

د. صلاح مسدود
مفتوح
د. محمد محمد عبد الله

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أمّ القيوين
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا والبحث العلمي
فروع الأدب

د. عبد الله صالح
مفتوح



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٠١٨٨٣

أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في البلاغة

إعداد الطالبة

عبد الله حسن عبد الرزاق بن خنيس

إشراف الدكتور

عبد الفتاح لايسين

١٤٠٩/١٤١٠م

١٤١٠
١٨٨٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى :

”وَلَا تَكُ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ

لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ“ (الحشر/ ٢١)

وقال تعالى :

”وَلَا تَكُ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ

وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ“ (المنكوت/ ٤٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الرسالة : أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم.

الدرجة العلمية : ماجستير.

الطالبة : ملك حسن عبد الرزاق بخش .

ملخص الرسالة

اقتضت طبيعة البحث لأن يكون في تمهيد وستة فصول وخاتمة. أما التمهيد فقد بينت فيه جهود السابقين في بيان أسرار التنوع ، ثم الفصل الأول عن تشبيهات الحياة الدنيا وأسرار تنوعها ، والثاني عن تشبيهات الانفاق ، والثالث عن تشبيهات الحق والباطل ، والرابع عن تشبيهات أعمال الكافرين ، والخامس عن تشبيهات أوصاف المخالفين ، والسادس عن التشبيهات التي تمثل أحوال الناس عند البعث . ثم الخاتمة وفيها عرضت أهم ما توصلت اليه من نتائج وأصول في أسرار التنوع ، ومن تلك الأصول :

١ - تناول المعنى الواحد في كل مرة من جانب من جوانبه التي تتلاءم مع الفرض والسياق .

٢ - الانتقال في تنوع التشبيهات من الصورة البسيطة التركيب الى الصورة الأكثر تركيباً تدرجاً في اقناع النفس وتلاؤماً مع وفرة المعاني .

٣ - التعبير عن المعنى الواحد بصورتين متضادتين أو متقابلتين كاللش الماء والنار والماء والنار عنصران يغلبان على أكثر تشبيهات القرآن .

٤ - مراعاة أحوال البيئة المعاشية والحضارية كالتعبير بصورة مستقاة من البادية وأخرى من الحضرة .

٥ - مراعاة المستوى الفكري والحضاري والتقدم العلمي .

٦ - الانتقال من الحسي الى المعنوي كالتشيل للانفاق في سبيل الله في صورة المضاعفة الحسابية لاثارة محور الطمع في الريح ثم الانتقال الى ابتغاء مرضاة الله .

٧ - من أسرار التنوع وأصوله أن لكل مثل بناءً ونظمه وعناصره وظلاله التي تتناسب مع

السياق الذي ورد فيه فالماء المختلط بنبات الأرض يتلاءم مع الريح الطيبة والبحر

والهشيم الذي تذرره الرياح يتلاءم مع الجنة الخاوية على عروشها والظلمات التي تتكاثف في بحر لحي تتناسق مع النور الذي يتضاعف في مشكاة فيها مصباح وهكذا . .

عميد كلية اللغة العربية

المشرف

الطالبة

د / محمد بن مريسي الحارثي

د / عبد الفتاح لاشين

ملك حسن عبد الرزاق بخش

المعركة

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

المقدمة

الحمد لله الذى فضلنا بالقرآن على الأمم أجمعين وآتانا به
مالم يوت أحدنا من العالمين والصلاة والسلام على من كان خلقه القرآن
ووصيته القرآن وميراثه القرآن القائل (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) (*)
يقول العلامة الزمخشري صاحب عدة التفاسير في البلاغة العربية "إن أملاً
العلوم بما يغمر القرائح وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح من
غرائب نكت يلطف مسلكها ومستودعات أسرار يدق مسلكها علم التفسير".
(١)
ثم بين رحمه الله تعالى أن هذا العلم لا يتم تعاطيه وإجالة
النظر فيه لكل ذى علم وإنما لا بد من البراعة في علوم البلاغة المختصة
بالقرآن الكريم كملهي المعاني والبيان وأن البراعة فيهما تحتاج إلى
تأني في إرتيادهما وتعب في التنقيح عنهما. (٢)
ومن هنا يتضح لنا دقة البحث في القرآن الكريم ومشقته ووعورة
مسلكه على جلاله وفضله وشرفه الذى لا يدانى .

ولقد بهرني أثناء دراستي العليا جمال التشبيه في القرآن
الكريم وجلاله فأردت أن يكون موضوعاً للبحث والدراسة . ولما كان التشبيه
في القرآن خصباً رحباً يتسع مجال القول فيه واثماً عجيباً لا تنتهي

(١) الكشاف ١ / ١٦٠

(٢) المصدر السابق .

(*) أخرجه البخارى والترمذى وأبو داود (جامع الأصول في أحاديث الرسول)

٥٠٧ / ٨ رقم الحديث ٦٢٩٨ .

(ب)

لطائفه ومعانيه وفق الله استاذي الدكتور محمد أبو موسى أن يقفني
على هذا الجانب منه ألا وهو أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم .

وهو باب دقيق المسلك صعب المرتقى لطيف المأخذ أشبه
بالسحر لم يسبقني إليه أحد بحمد الله فيما أعلم ولم أجد في جهود
العلماء السابقين من التفت إليه التفاتاً مباشراً إلا ما ورد عن الرماني
الذي أشار إلى أسرار التنوع بطريق غير مباشر حين جمع النظر إلى نظيره
وعلق عليه .

وعلماء المتشابه
وتعد كتب المفسرين / هي الحقل الأول الذي نشأ فيه الكلام
عن أسرار التنوع لأن هؤلاء هم الذين وقفوا عند الآيات المتشابهة
والمحو إلى الفروق التي بينها تأمل مثلاً قول ابن القيم حيث يقول :

”فان قيل : فهل يظهر فرق بين قوله تعالى في سورة يونس :
قُلْ مَنْ رَزَقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعُ وَالْأَبْصَارُ مَنْ يَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ
وَيَخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ①

وبين قوله في سورة سبأ - قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ .

قيل : هذا من أدق هذه المواضع وأغضاها وأطفها فرقا فتدبر
السياق تجده تقيضاً لما وقع .” (٢)

(١) سورة يونس آية ٣١ .

(٢) التفسير القيم لابن القيم ص ٣٠٦ .

ثم يحلل ، ويبين مناسبة كل آية لسياقها الذي وردت فيه .

أما في الشعر فيعد عبد القاهر الجرجاني أول من فتح باب أسرار التنوع في التشبيه بطريق غير مباشر وذلك في موازناته بين الأبيات المتشابهة في المعنى مثل بيت بشار :

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا
وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

مع قول المتنبي :

يَزُورُ الْأَعْيَادِي فِي سَمَاءٍ عَجَاجِهِ
أَسْنَتُهُ فِي جَانِبَيْهَا الْكَوَاكِبُ

أو قول عمرو بن كلثوم :

تَبْنَى سَنَائِكَهَا مَنْ فَوْقَ أَرْوَاهِمُ
سَقْفًا كَوَاكِبِهِ الْبَيْضُ الْمَبَاتِيرُ

فقد أشار عبد القاهر إلى أن هذه الأبيات رغم أنه يجمعها معنى عام واحد وهو تشبيه لمعان السيوف في السحاب بالكواكب بالليل " إلا أنك تجد لبيت بشار من الفضل ومن كرم الوقع ولطف التأثير في النفس ما لا يقل مقداره ولا يمكن إنكاره وذلك أنه راعى ما لم يراعه غيره وهو أن الكواكب تنهادى فأتى الشبه (١) .

وهكذا نبه عبد القاهر إلى هذه الفروق والدقائق وأسرار تنوعها .

وقد استقام البحث بعد ذلك في تمهيد وستة فصول وخاتمة.
وهذا التقسيم إنما هو بحسب الأغراض الظاهرة وإلا فإن التشبيه في القرآن الكريم
يجرى فيه ما يجرى في أبناء العشرة الواحدة من الصلات والوشائج والطباع الخفية.
أما التمهيد : فقد بينت فيه جهود العلماء السابقين في بيان أسرار التنوع في
التشبيه وغيره أى بصورة عامة لأن كتب المفسرين وعلماء المتشابه هي الحقل الأول
الذى نشأ فيه الكلام عن أسرار التنوع بصورة عامة ثم تطرق النظر إلى التشبيه في
القرآن الكريم .
الفصل الأول :

درست فيه التشبيهات التي تمثل الحياة الدنيا وأسرار تنوعها
وفيه بينت لماذا بنى التشبيه مرة على التحليل والتفصيل كما في سورة
يونس ، وأخرى على الطى والدمج كما في سورة الكهف ، وغير ذلك من
فروق ودقائق ظهرت أثناء التحليل والموازنة .

الفصل الثاني :

درست فيه التشبيه الذى يمثل الإنفاق ويتضمن :

- الإنفاق في سبيل الله ، والإنفاق الذى شابهته شائبة المن
والأذى أو الرياء أو الكفر الصريح ، وبينت فيه أسرار التنوع وراء تشبيه
الإنفاق في سبيل الله مرة بالحببة التي أنبت سبع سنابل وأخرى بالجنة ذات
الربوة التي أصابها وابل ، كما بينت فيه أسرار التنوع وراء تشبيهات الإنفاق
لغير سبيل الله بالصفوان الذى عليه تراب ، والجنة التي أصابها إعصار فيه
نار فاحترقت ، والحرث الذى أصابته ريح فيها صر فأهلكته .

الفصل الثالث :

درست فيه التشبيه الذى يمثل الحق والباطل وأسرار تنوعه .
بينت فيه أسرار التنوع وراء تشبيه الحق بالماء النازل من السماء والمعدن
الذى يوقد عليه ، وبالشجرة الغريبة الثابتة الأصل وأسرار التنوع وراء تشبيه
الباطل بالزبد الطافي ، وبالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض .

الفصل الرابع :

درست فيه التشبيهات التي تمثل أعمال الكافرين وأسرار تنوعها
وقفت فيه على أسرار التنوع وراء تشبيه أعمال الكافرين مرة بالرماد وأخرى بالسراب
أو الظلمات أو الهباء المنثور .

الفصل الخامس :

درست فيه التشبيه الذي يمثل أوصاف المنافقين وأسرار تنوعها
وقفت فيه على أسرار التنوع وراء تشبيه المنافقين مرة بالمستوقد نارا وأخرى
بأصحاب الصليب .

الفصل السادس :

درست فيه التشبيهات التي تمثل أحوال الناس عند البعث وأسرار
تنوعها ، وقد وقفت فيه على أسرار التنوع وراء تشبيه الناس عند خروجهم
من الأجداث بالجراد المنتشر أو الفراش المبعوث وهكذا . . .
ثم الخاتمة : وفيها عرضت أهم ما توصلت إليه من نتائج وما
استخلصته من أصول في أسرار التنوع .

وقد التزمت في هذه الدراسة بمنهج معين :

أولا : وضعت مدخلا لكل فصل بينت فيه كيف ورد هذا المعنى الذي
تناوله التشبيه عن طريق الحقيقة كما ورد عن طريق المجاز . وكل
ذلك تبعا لما يقتضيه السياق القرآني .

ثانياً : من أسرار المناسبة : بينت فيه بعض وجوه المناسبة بين المثل وبين مقاصد السورة وأغراضها وسياق الآيات لأن جزءاً كبيراً من بلاغة التمثيل هو من معطيات سياق يرتبط به .

ثالثاً : من أسرار اللغة والنظم : حلت فيه المثل تحليلاً بيانياً وقتت فيه أمام كل كلمة وجملته أتوسمها توسماً واعياً من ناحية بناءها ومعناها اللفظي وعلاقتها بأخواتها وهكذا . . .

وكل ذلك في ضوء السياق الذي وردت فيه محاولة استخراج ما وراء ذلك من وحي وأحوال وأسرار .

رابعاً : من أسرار التنوع : وفيه عقدت موازنة بين آيات التمثيل وصوره ومعانيه واستخلصت فيه أسرار التنوع ووجوه المقابلة والتضاد وغير ذلك من الدقائق التي ظهرت أثناء الموازنة والمقارنة .

وبعد : فلئن كان سلفنا الصالح رضي الله عنهم يقول : " قرب آية أقيمت في تأملها شهوراً ومن أراد تصديق ذلك فليتأمل شيئاً من الآيات قبل أن ينظر ما قلته ثم ينظره يظهر له مقدار ما تعبت وما حصل لي من قبل الله ومن العون " . (١)

فما عساي أقول وأنا إنما استضيء (بكشافهم) وأتزوّد من (جامع بيانهم) وأغترف من (بحر محيطهم) وأنظم من (روح معانيهم) ونظم دررهم) ثم أحرر ما كتبت (بمحررهم الوجيز) وبالتحرير والتنوير) . . . وهكذا .

فلله هذه الودائع التي استخرجت منها ما زادنى
 بصيرة وعلم وشحن فكري وقدح زناد عقلي وأورى جذوة قلبي
 وأوقني على أن ما خلصت إليه من نتائج وأسرار ولطائف إنما هي غيض من
 فيض .

ولا يزال القرآن الكريم مأدبة الله التي لا يشبع منها العلماء
 ينطوى على لطائف وأسرار لا تتناهى نرجوا الله أن يعطف نحوه قلوب
 طلبة العلم النقيه الزكية ليستخرجوا ودائعه ويكشفوا حجبه .
 بقيت كلمات يمتلي بها القلب اجلالا واكبارا وحمداً وشكراً لله
 الذى وفقني لخدمة كتابه الكريم والانس بصحبته أيما خوالي ما أحسب
 أن في الدنيا نعيماً يعدل نعيمي بهن ولولم يكن لي من هذا البحث
 إلا هذه الثمرات لكفتني .

ثم أتوجه بخالص الدعاء وجزيل الشكر إلى (جامعة أم القرى)
 هذه الأم التي ربنتا وتمهدت فينا أكرم ما خلق الله فينا (عقولنا وقلوبنا)
 ولها علينا فضل لا يدانيه فضل متفضل، وحسبها أنها تابعت بحوثنا،
 وأغدقت علينا من سخاء نفسها وسخاء هذه الدولة الفتية رعاها الله وحماها
 ما قوم اعوجاجها وزود مدادها طوال هذه السنوات الماضية .

وأخص بالشكر والتقدير الدكتور محمد بن مريس الحارثي عميد كلية
 اللغة العربية على ما بذله من جهد حثيث في إتمام هذه المرحلة من
 البحث .

كما أتقدم بالشكر والتقدير والعرفان لأستاذى الدكتور الفاضل المشرف
عبد الفتاح لاشين الذى تابع هذا البحث بجهد صابر وحرص شديد وله في كل
صفحة نظر فجزاه الله عنا خير الجزاء وحسبه فاتحة خير عليّ أن جعل الله
اجتنائي لشرة هذا البحث على يديه الكريمتين .

وأوجه جزيل شكرى وتقديرى وخالص دعائى إلى الأستاذين الفاضلين
الدكتور صباح دراز والدكتور الشحات عبد الرحمن أبو ستيت على ما تكرما به من
قبول هذا البحث للمناقشة نفعتني الله بحسن توجيهاتهما ورزقني حسن الأدب في
مناقشتهما والالتزام بصائب رأيهما فيما قوماني به وأرشداني إليه فجزاهما الله
عني خير الجزاء .

وجزى الله كل من كان له يد العون في إخراج هذا البحث على هذه
الصورة خير الجزاء .

وأخص بالشكر زوجي وقرّة عيني الدكتور الداعية عبد العزيز الجفري
والذى في ظل صحبتها المباركة فتح الله عليّ بهذا العلم المبارك .
كما أخص بالشكر اخوتي الأحبة عبد الرحيم وخالد وماجد الذين
بذلوا في سبيل هذا البحث ما بذلوه فجزاهم الله جميعا عني خير الجزاء
وثقل موازينهم عند اللقاء .

وأخيرا أتقدم خافضة جناح الذل من الرحمة إلى والدتي الكريمة
اللذين غرسا في نفسي حب العلم منذ النشأة وحملاني عليه حملا واللذين إن ضاقت
بي الدنيا وتنكر لي أهلها خاصة وأنا أكتب هذا البحث تحت ظرف شديد
وجدت لقلبيهما بابا لا يوصد دوني أبدا أرجو الله أن يكون عليّ هذا ما تثقل
به موازينهما يوم القيامة * وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا * .

وبعد : فهذا جهدى أرجو ربي أن يجعله خالصا لوجهه الكريم
وأن يغفر لي بهذا القصد ما وقعت فيه من فساد الرأى وعدم الاصابة في الاجتهاد

(ط)

وإنما غايتي أن يحرك الله هذه القلوب والعقول نحو هذا الباب الزاخر
بالبلاغة العالية والتي لا تزال في أكامها .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب . وآخر دعوانا أن الحمد لله
رب العالمين . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم
بإحسان إلى يوم الدين .

تمهيد

جهود العلماء السابقين في بيان أسرار التنوع

- ١ - الرماني
- ٢ - ابن ناقياء البغدادي
- ٣ - عبد القاهر الجرجاني
- ٤ - الخطيب الإسكافي
- ٥ - الفخر الرازي
- ٦ - الكرمانى
- ٧ - الفيروز آبادى

١ - الرمانى (أبو الحسن على بن عيسى الرمانى) ت : ٣٨٦ هـ

يعتبر الرمانى أول من التفت إلى أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم التفاتاً غير مباشر - بمعنى أنه لم يكن عامداً له محيطاً بكل أغراضه - وذلك حينما جمع النظر إلى نظيره في باب التشبيه وعلق عليه .

فقال في قوله تعالى :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ
الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا

" فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع

عليه وقد اجتمع في بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة " (١)

ثم قرن هذا التمثيل بما يماثله في الغرض نفسه وهو تشبيه أعمال الكافرين

في قوله تعالى :

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ
أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ

(١) النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن

وقال معلقاً عليه : " فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه

الحاسة إلى ما تقع عليه وقد اجتمع الشبه مع الشبه به في الهلاك
وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك لما فات وفي ذلك الحسرة العظيمة
والموعظة البليغة " . (١)

كما ذكر من التشبيهات التي تمثل الحياة الدنيا تشبيهاً —

أحدهما من سورة يونس وهي قوله تعالى :

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ
نَبَاتُ الْأَرْضِ

والثاني من سورة الحديد وهو قوله تعالى :

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ
وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ

وقال معلقاً على الأول : " وهذا بيان قد أخرج ما لم تجربه عادة

إلى ما قد جرت به وقد اجتمع (المشبه) والمشبه به في الزينة والبهجة
ثم الهلاك بعده ، وفي ذلك العبرة لمن اعتبر ، والموعظة لمن تفكر في أن
كل فانٍ حقير وإن طالت مدته وصغير وإن كبر قدره " . (٢)

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق ص ٨٣ .

وقال معلقاً على الثاني : " فهذا تشبيه قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به وقد اجتمع في شدة الإعجاب ثم في التفسير بالانقلاب وفي ذلك الاحتقار للدنيا والتحذير من الإغترار بهما والسكون إليها " . (١)

كما تناول التشبيه الذي يمثل هلاك قوم عاد وهو قوله تعالى

في سورة القمر :

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ
أَنزَعْنَا نَاسَهُمْ كَانَهُمْ
أَعْجَازٌ مُّنْقَعِرٌ

وقوله في سورة الحاقة :

كَانَهُمْ أَعْجَازٌ مُّنْقَلَبَةٌ

فقال معلقاً على التشبيه الأول : " وهذا بيان قد أخرج ما لم تجرب به عادة إلى ما قد جرت به ، وقد اجتمع في قلع الريح لهما وإهلاكهما إياهما . وفي ذلك الآية الدالة على عظيم القدرة والتخوف من تعجيل العقوبة " . (٢)

(١) المصدر السابق ص ٨٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٣ .

وقال في التشبيه الثاني : " وهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبيديهة إلى ما يعلم ، وقد اجتمعا في خلوا لأجساد من الأرواح ، وفي ذلك الإحتقار لكل شيء " يؤءول به الأءمر إلى ذلك المآل " . (١)

والرمانى فى تناوله للتشبيه فى القرآن الكريم ينظر إليه من جهات عدة :

- ١ - ينظر إليه من جهة عنصر البيان والكشف وكيف يبرز التشبيه المعنى الذهني أى الأءمر الذى يدرك بالفكر فى الصورة المحسنة التى تدرك بالحواس .
- ٢ - يقف أمام الصفة المشتركة التى تجمع بين طرفى التشبيه ويبين عن وجه الملاءمة الدقيقة بينهما " أى وجه الشبه والذى يكمن فيه المفزى والغرضى وقد عبر عن ذلك بقوله : " وقد اجتمعا فى بطلان المستوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقسة " . (٢)
- ٣ - يتذوق العناصر التى تكونت منها صورة التمثيل وما وراءها من إىحاءات وفىوضات وكيف وقعت موقعها الأمكن والأبلغ

(١) المصدر السابق ص ٨٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٢ .

فيقول في آية النور : " ولوقيل يحسبه الرائي ماء ثم
يظهر أنه على خلاف ما قدر لكان بليفا وأبلغ منه لفظ القرآن
لأن الظمان أشد حرصاً عليه وتعلق قلب به " (١)

٤ - يهتم بنسيج بناء التشبيه وصياغته والتي تكشف عن خبايا
المعاني فيقول : " وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن
التشبيه فكيف اذا تضمن مع ذلك حسن النظم وعذوبة
اللفظ وكثرة الفائدة وصحة الدلالة " (٢)

وهذا النظر المتوسم الواعي والحس المتذوق البصير لصور
التمثيل وعناصر نسيجه وبناءه يعيننا على إدراك الفروق الدقيقة وأسرار
التنوع وراء هذه الصور .

(١) المصدر السابق ص ٨٢

(٢) المصدر السابق ص ٨٢ وانظر الاعجاز البلاغي ، د . محمد محمد أبو موسى ،
ص ١٠١ - ١٠٤

٢ - ابن ناقيا البغدادي ت : ٤٨٥ هـ

يعد ابن ناقيا هو المصنف الفرد للتشبيهات القرآنية فسي كتابه "الجمان في تشبيهات القرآن" (١)

ومنهجه في كتابه هذا يعتمد على تفسير المعنى القرآني في الآية ثم الاستشهاد لهذه المعاني بشواهد شعرية يتخيرها من أروع النصوص الشعرية التي جرت في كلام العرب وأندرها وهو لا يقصد بذلك إلى الموازنة بين الشعر والقرآن فإنها لا تأتي في هذا الباب، ولكنه إنما يضع بين يدي القارئ بلاغة الشعراء وغيرهم من أرباب البلاغة ليجلي بلاغة القرآن وبنه على مكان الفضيلة فيه، ويؤكد أن التفاوت بين التنزيل والشعر ظاهرٌ ظهوراً شديداً لا يخفى على ذي كياس إذا أسهمها نظره وعاطاه تأمله. (٢)

وهذه الأبيات الشعرية التي يسوقها ابن ناقيا حول معنى واحد هي باب من أبواب أسرار التنوع في الشعر ولكن ابن ناقيا لم يلتفت إليها ولم يقف عليها بالتحليل والموازنة وبيان الفروق الدقيقة

(١) انظر الإتيان للسيوطي ٥٤ / ٢

(٢) الجمان ص ٧١

التي بينها وإنما يكتفى ببيان أن هذا المعنى الذي أخذ الشعراء من لفظ الكتاب الكريم وقوا به دون بلاغة القرآن واستيفاء معانيه يقول :

" وكذلك كل ما ينقله الشعراء أو غيرهم من أرباب البلاغة إلى كلامهم من معاني القرآن لا يبلغون شأوه ولا يدركون مثاله إعجازاً وإعوازاً وإبداعاً وامتناعاً " . (١)

الجمان

ويغلب على منهج ابن ناقياً في كتابه / أن يقرن النظير إلى نظيره في التشبيهات القرآنية ليزيد المعنى جلاءً ووضوحاً دون أن يعلق عليهم ————— وأولتفت إلى أسرار تنوعها والفروق الدقيقة التي بينها فيقول مثلاً في تشبيه الموج في القرآن قال تعالى :

وَهُي تَجْرِي بِمَنْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ

" الجرى مر سريع كمر الماء على وجه الأرض . والسفينة تجرى بالماء والفرس يجرى في عدوه والموج جمع موجه وهي القطعة العظيمة ترتفع عن جملة الماء الكثير ، وأعظم ما يكون ذلك إذا اشتدت الرياح فدل التشبيه على عظم شأن الأمر من حال الماء وتطبيقه الأرض ومن ملاسة الرياح له ومن ذكر الاعتبار بجرى السفينة في هذه الأحوال

وناب لفظه مع اختصاره عن شرح كبير . ونحو هذا التشبيه قولـــــــــــــــــه
تعالى في سورة أخرى :

فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ
كَالطُّودِ الْعَظِيمِ ①

ويكتفي ابن ناقياً بذلك دون أن يعلق على التمثيل الثاني ويذكر
الفرق بينهما ثم يورد تمثيلاً آخر في المعنى نفسه فيقول : " وقد
ورد في التنزيل في صفة موج البحر بالعظم والارتفاع تشبيه آخر
وهو قوله تعالى في سورة القمر :

إِذَا غَشِيَهم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ

لأن موج البحر يعظم فيصير كالظل في ارتفاعه وتغطيته ما تحته " . (٢)

ويقرن بين قوله تعالى :

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ
فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ..

وبين قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ

(١) الجمان ص ١٢٦ .

(٢) السابق ص ١٢٨ .

فيقول : " بين الله أن أعمال الذين كفروا في ذهابها وإحباطها كرماد ذهب به الريح في يوم عاصف ، وكذلك بين أن العمل يبطل بالمن والاذى كما يبطل بالرياء ، وكما يذهب الوابل التراب عن الصفا " . (١)

وهذا يدلنا على أن تقسيمنا للتشبيهات في القرآن الكريم على تلك الأغراض التي تناولناها بالدراسة والتحليل إنما هو تقسيم بحسب الظاهر وإلا فإن التشبيه في القرآن يتلاحم ويتراحم ويؤكده بعضه بعضاً ولا يمكن فصله إلا للدراسة والموازنة .

وقد يذكر ابن ناقياً المعنى القرآني الذي ورد عن طريق التشبيه ويورد المعنى نفسه عن طريق الحقيقة فيذكر قوله عز وجل :

وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَاجِرُ كَانَتْهَا حَآجٌّ وَّالْيَ مَدْبَرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ

ثم يذكر قوله تعالى :

فَأَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تُلْهِي تُعْجِبُ مُبِينٌ

ويقول في تحليلهما وبيان معانيهما : " الشعبان : الحية الضخم الطويل وأصله من شعبت الماء شعباً إذا فجره فسمى بذلك لأنه يجري كجرى

الماء عند الانفجار ومعنى " مبین " أى بین أنه حیه .

وأما تشبيهه بالجان : فالمراد به أنها في اهتزازها

وخفة حركتها وسرعتها كالجان وهي في صورة الشيطان ... (١)

كما يقرن بين قوله تعالى :

وَحُورٌ عِينٌ ۖ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُوفِ الْمَكْنُونِ (٢)

وقوله تعالى :

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ عِلْمَانٌ لَهُمْ كَانَهُمْ لَوْلُوفٌ مَّكْنُونٌ (٣)

وقوله تعالى :

* وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لَوْلُوفًا
مَّنْشُورًا (٤)

وهو هنا لا ينظر إلى المشبه به ولكنه ينظر إلى وحدة

المشبه به مع اختلاف المشبه .

(١) الجمان ص ١٧٤ .

(٢) الواقعة / ٢٣ .

(٣) الطور / ٣٤ .

(٤) الانسان / ١٩ .

٣ - عبد القاهر الجرجاني ت ٤٧١ هـ :

يعد الإمام عبد القاهر الجرجاني أول من فتح باب أسرار
التنوع في التشبيه في الشعر بطريق غير مباشر وذلك في موازناته بين
الأبيات المتشابهة في المعنى مثل بيت بشار :

كأن مشار النقع فوق رؤوسنا
وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبها

مع قول المتنبي :

يزور الأعداء في سماء عجاجه
أسنته في جانبها الكواكب

أو قول عمرو بن كلثوم :

تبني سنايكم من فوق أروهم
سقاء كواكب البيض المباتير

فقد أشار عبد القاهر إلى أن هذه الأبيات المتناظرة يجمعها معنى
عام واحد وهو تشبيه لعمان السيوف في الفبار بالكواكب في الليل، ثم بين
أن بيت بشار يفضلها جميعاً ويحلل سر هذه المزية والأفضلية فيقول :
" إلا أنك تجد لبيت بشار من الفضل ومن كرم الموقع ولطف التأثير
في النفس ما لا يقل مقداره ولا يمكن إنكاره ، وذلك لأنه راعى ما لم

يراعه غيره، وهو أن جعل الكواكب تهاوى فأتى الشبه ، وعبر عن
هيئة السيوف وقد سلت من الأغمار وهي تعلو وترسب وتجي* وتذهب
... وكان لهذه الزيادة التي زارها حظ من الدقة تجعلها في حكم

تفصيل بعد تفصيل . (١)

ولا يكتفى الإمام عبد القاهر بهذا التحليل الواعي الدقيق
لسر المزية التي فضل بها بيت بشار بل أنه يذهب إلى أبعد من ذلك
وهو قيام هذا المعنى في نفس قائله وكيفية إحاطته به وقدرته على تصور
دقائقه فيقول عنه أنه قد نظم هذه الدقائق والمعاني كلها في
نفسه واستغرق في تفصيلها والإحاطة بها ثم أحضر إلينا صورتها
(٢)
بلفظة واحدة ونبه عليها بأحسن التنبيه وأكملها وهي كلمة (تهاوى) .
وهذا هو جوهر الفرق في أسرار التنوع بين تشبيهات الشعراء

وتشبيهات القرآن الكريم ..

(١) أسرار البلاغة ص ١٥٢ .

(٢) المصدر السابق .

فتشبيهاً الشعراء وراءها هذه النفس التي تتغير عليها
الأحوال فتفاوت قدراتها في تصور المعاني والإحاطة بها لذلك
تفاضل أقوالها وتتمايز بلاغتها .

بينما تشبيهاً القرآن الكريم لا تتفاوت بلاغتها وإن تنوعت
صورها واختلفت أسرارها فكل صورة يل كل كلمة في موضعها هي
البليغة وحدها .

٤ - الخطيب الإسكافي ت ٤٢٠ هـ :

تعد كتب المفسرين / وعلماء المتشابه هي الحقل الأول الذي نشأ فيه الكلام عن أسرار التنوع وذلك لأن هؤلاء هم الذين وقفوا عند الآيات المتشابهة والمحو إلى الفروق التي بينها .
ومن هؤلاء الخطيب الإسكافي الذي يقول في مقدمة كتابه :
" إني منذ خصني الله بإكرامه وعنايته وشرفني بإقراء كلامه ودرايته ، تدعوني دواع قوية يجمعها نظر ورؤية في الآيات المتكررة بالكلمات المتفقة والمختلفة وحروفها المتشابهة تطلباً لعلامات ترفع ليس إشكالها وتخص الكلمة بآيتها دون أشكالها فما وجدت أحداً من أهلها بلغ غاية كنهها . . . ففتقت من أكام المعاني ما أوقع فرقانا وصار المبهم المتشابه وتكرار المتكررتبياناً ولطمعن الجاحدين رداً ولمسلك الملحدين سداً وسميته " درة التنزيل وغرة التأويل " . (١)

وسنستشهد بمثلين من تلك الآيات المتشابهة التي ذكرها في كتابه .

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ص ٧ ، ٨ .

الاول قوله تعالى :

وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ①

وقوله تعالى :

وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ②

يقول الخطيب : * والسائل أن يسأل عن اختصاص هذا المكان بالمؤمنين

واختصاص آخر سورة النمل بالمسلمين : (٣)

ثم تأمل كيف يعلل لذلك بالنظر في سياق كل آية فيقول :

* والجواب أن قبل هذه الآية في سورة يونس قوله تعالى :

ثُمَّ نُنْجِي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ

فقال بعده : وأمرت أن أكون منهم .

أما في سورة النمل فإن قبل هذه الآية منها :

وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ

(١) يونس / ١٠٤ .

(٢) النمل / ٨١ .

(٣) درة التنزيل وغرة التأويل ص ٢١٥ .

فكأنه قال : أمرت أن أكون ممن إذا سمع بآياته آمن بها
 وكان من المسلمين الذين مدحوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم يسمعهم
 أى ينتفعون بما يستمعونه منه ، فلما تقاربت اللفظتان وكانتا تستعملان
 لمعنى واحد حملت كل واحدة منهما على اللفظ الذى تقدمها ولاءها* (١)
شاهد آخر :

قوله تعالى في سورة الأعراف :

قَالُوا إِنْ لَنَا لَأَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ
 الْمُقَرَّبِينَ

وقال في سورة الشعراء :

قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ

يقول الخطيب : * للسائل أن يسأل عن زيادة (إذا) في سورة الشعراء
 واخلو سورة الأعراف منها .

والجواب أن معنى قوله (إذا) جواب وجزاء وكان من قول
 فرعون لهم إن غلبتم فجزأى أن أجازيكم بإعلاء رتبكم وتقريب

منزلتكم فلاجل ذلك أفعل هذا بكم ، فاختصت سورة الشعراء
بهذا دون غيرها لأنها موضع بني على فضل اختصاص لما جرى
لم يبين غيرها عليه من نحو ما تقدم وما يجيء بعد .^(١)

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ص ١٧٣ .

٥ - الإمام فخر الدين الرازي ت ٦٠٤ هـ :

اهتم الإمام فخر الدين الرازي بالموازنة بين الآيات المتشابهة في المعنى والغرض، وبين الفروق التي بينها في كتابه المسمى " التفسير الكبير " وإن لم يستقصها كلها على الوجه الذي سلكه الكرمانسي في كتابه (البرهان) والذي تميز بالإيجاز والوضوح .
ومن تلك الآيات المتشابهة التي وُزن بينها الرازي قوله تعالى في سورة الأعراف :

وَأَذِقْ لَهُمْ أَسْكَوًا
هَذِهِ الْقَرْيَةُ وَكُلُّوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ
سُبْحَانَكَ نَعُفُوكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ①

وقوله تعالى في سورة البقرة :

وَأَذِقْنَا أَذْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ
رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَعْفُوكُمْ خَطِيئَتَكُمْ
وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ②

(١) آية ١٦١ / الأعراف .

(٢) آية ٥٨ / البقرة .

فقد تناول الرازي الفروق التي بينها وأوجه الاختلاف من وجوه
 عدة نذكر منها قوله : * إن أَلْفَاظَ هذه الآية تخالف أَلْفَاظَ الآية
 التي في سورة البقرة من وجوه :

الأول : أنه قال في سورة البقرة :

وَلَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ

وهاهنا قال :

وَلَذُقُوا لَحْمَ السَّكَنَى هَذِهِ الْقَرْيَةَ

الثاني : أنه قال في سورة البقرة فَكُلُوا بالفاء وهاهنا

وَكُلُوا بالواو .

والثالث : أنه قال في سورة البقرة (رغدا) وهذه الكلمة غير مذكورة في
 هذه السورة * . (١)

إلى آخر الوجوه التي ذكرها . في الوجه الأول

ثم يعلل لهذا الاختلاف / بالنظر في معنى الكلمة وكيف أن

الدخول يسبق السكنى ولما كانت تلك السورة تسبق هذه كان الأمر

بالدخول أولا ثم السكنى ثانيا ، يقول : * فالفرق أنه لا بد من دخول

القرية أولا ثم اسكنوها ثانيا * . (٢)

(١) ٣٨-٣٧/١٥

(٢) المصدر السابق .

ويعمل للوجه الثاني بقوله : * ان الدخول حالة مخصوصة

فما يوجد بعضها يتقدم فإنه إنما يكون داخل في أول دخوله
وأما ما بعد ذلك فيكون سكناً لا دخولاً .

وإذا ثبت هذا فنقول : الدخول حالة منقضية زائلة وليس

لها استمرار فلا جرم يحسن ذكر فاء التعقيب بعده، فلهذا قال :

أَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا

وأما السكون فحالة مستمرة باقية فيكون الأكل حاصل منه عقبيه

فظهر الفرق * . (١)

وهكذا نجد الرازي يعمل لموقع الفاء بالنظر إلى السياق الذي

وردت فيه وصلتها بما قبلها فالفاء هنا للتعقيب لأن الدخول حاله
منقضية .

بينما الواو في (وكلوا) لمطلق الجمع والاستمرار مع السكنى

الدائمة لأن النعمة تقتضي دوام السكنى مع دوام الأكل .

ثم يعلل للوجه الثالث بقوله : " وأنه ذكر في سورة البقرة (رَغَدًا)

وما ذكره هنا ، فالفرق الأكل عقب دخول القرية يكون أَلَذَّ لَأَنِّ الْحَاجَةِ

إِلَى ذَلِكَ الْأَكْلِ كَانَتْ أَكْمَلَ وَأَتَمَّ وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ الْأَكْلُ الَّذِي لَا جُرْمَ

ذَكَرَ فِيهِ قَوْلُهُ " رَغَدًا " .

وَأَمَّا الْأَكْلُ حَالِ سَكُونِ الْقَرْيَةِ فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَا يَكُونُ فِي مَحَلِّ

الْحَاجَةِ الشَّدِيدَةِ مَا لَمْ تَكُنِ اللَّذَّةُ فِيهِ مُتَكَامِلَةً فَلَا جُرْمَ تَرْكُ قَوْلِهِ (رَغَدًا)

فِيهِ " . (١)

وَهَا هُنَا يَعْلِلُ الرَّازِي سِرَّ الْاِخْتِلَافِ بِالنَّظَرِ بِجَانِبِ السِّيَاقِ

إِلَى الْحَالَةِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا عِنْدَ دُخُولِهِمُ الْقَرْيَةَ وَشِدَّةِ حَاجَتِهِمْ

إِلَى الطَّعَامِ فَلَا شَكَّ أَنَّ الطَّعَامَ يَكُونُ أَلَذَّ وَأَطْيَبَ عِنْدَ شِدَّةِ الْحَاجَةِ

إِلَيْهِ فَأَتَمَّ عَلَيْهِمُ النِّعْمَةَ بِذِكْرِ كَلِمَةِ (رَغَدًا) بَيْنَمَا هُمْ فِي الْحَالَةِ الثَّانِيَةِ

مُتَنَعِّمُونَ يَأْكُلُونَ مِنْ حَيْثُ شَاءُوا .

وَمِنَ الْآيَاتِ الْمُتَشَابِهَةِ الَّتِي وَقَفَ عِنْدَهَا الرَّازِي قَوْلُهُ تَعَالَى

فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ :

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَهْوٌ

(١) ٣٨ - ٣٧ / ١٥

(٢) الْأَنْعَامُ / ٣٢

وقوله في سورة العنكبوت :

(١) وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ

فيشير الرازي إلى أوجه الاختلاف بينها وهو أنه سبحانه قال هناك :

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا * وقال في سورة العنكبوت * وما هذه الحياة

الدنيا * بزيادة (هذه) ثم يعلل لذلك بقوله : * لأن المذكور من

قبل ها هنا أمر الدنيا حيث قال تعالى : * فأحيا به الأرض بعد

موتها * فقال هذه، والمذكور قبلها هناك الآخرة حيث قال رَبِّحَسْرَتَنَا

عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ فلم تكن الدنيا

في ذلك الوقت في خاطره فقال (٢) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا .

تأمل كيف أشار (بهذه) إلى قربها ومشولها في حسه ولم يشر

في الآية الثانية بذلك لبعدها عنه .

وبهذه الحاسة الذواقة التي قد تستطرد أحيانا وتندق وتلطف

أخرى وتتأمل في سياق الآيات وفروق الكلمات يعلل الرازي ويوازن ويقارن .

(١) العنكبوت / ٦٤ .

(٢) ٩٢ / ٢٥ - ٩٣ .

٦ - الكرماني (١)

أفرد تاج القراء الكرماني كتابا في (أسرار التكرار في القرآن) سماه " البرهان في مشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان " وقد حدد منهجه في كتابه هذا حين قال :

" هذا كتاب أذكر فيه الآيات المتشابهات التي تكررت في القرآن والفاظها متفقة ، ولكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير أو ابدال حرف مكان حرف أو غير ذلك مما يوجب اختلافا بين الآيتين أو الآيات التي تكررت ..

وأبين ما السبب في تكرارها والفائدة في اعاتها .. " (٢)
ثم أنه يبين الحامل له على هذا العمل فيقول : " لأن الأئمة رحمهم الله تعالى قد شرعوا في تصنيفه واقتصروا على ذكر الآية ونظيرتها ولم يشتغلوا بذكر وجوهها وعللها والفرق بين الآية ومثلها وهو المشكل الذي لا يقوم باعبائه إلا من وفقه الله لا دائه " . (٣)

(١) محمد بن أبي نصر بن عبد الله الكرماني (مجهول التاريخ) ، صاحب كتاب " شواذ القراءات واختلاف المصاحف " .

النشر ج ١ باب ٣٥ - ٣٦ .

(٢) أسرار التكرار في القرآن ص ١٧ - ١٨ .

(٣) المصدر السابق .

ومن هذه الأسرار التي ذكرها في التكرار قوله عن آية

(٦٠) من سورة البقرة (فانفجرت) وكيف أنها وردت في

الأعراف (١٦٠) بصيغة **وَأَنْجَسَتْ** . ثم يعلل ذلك

بقوله : * لأن الانفجار انصباب الماء بكثرة ، والانجاس : ظهور الماء

وكان في هذه السورة (كلوا واشربوا) فذكر بلفظ بليغ ، وفي الأعراف

(١) * **كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ** * وليس فيه (واشربوا) ، فلم يبالغ فيه * .

ومن ذلك قوله في سورة الزمر ، قال تعالى :

(٢) **ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا مَذْذُوبًا مُضْفَرًا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا**

وفي سورة الحديد :

(٣) * **ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا** *

ويعلل الكرمانى سر ذلك بقوله : * لأن الفعل الواقع

قبل قوله **ثُمَّ يَخْرُجُ** في هذه السورة مستند إلى الله تعالى وهو

قوله :

(٤) **ثُمَّ يَخْرُجُ بِهِ زَرْعًا**

(١) أسرار التكرار في القرآن ص ٣٠ .

(٢) الزمر / ٢١ .

(٣) الحديد / ٢٠ .

(٤) الزمر / ٢١ .

فكذلك الفعل بعده (ثم يجعله) .

أما الفعل قبله في سورة الحديد فسنند إلى النيات وهو :

(١) **أَعَجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ**

فكذلك ما بعده وهو **ثُمَّ يَكُونُ** ليوافق في السورتين

ما قبله وما بعده . (٢)

(١) الحديد / ٢٠ .

(٢) أسرار التكرار في القرآن ص ١٨٥ .

٧ - الفيروزآبادى ت سنة ٨١٢ هـ :

اعتنى الفيروزآبادى بالآيات المتشابهة في القرآن الكريم في كتابه المسن (بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز) وإن لم يستقصها^{كلها} وأفرد لكل سورة ذكرها فقره بعنوان المتشابهات * .
فمن ذلك قوله في سورة المنافقين :

* المتشابهات قوله تعالى :

(١) وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ

وبعده : (لا يعلمون) ، لأن الأول متصل بقوله تعالى :

يُولِّهِ خَزَائِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وفي معرفتها غموض يحتاج إلى فطنة والمنافق لا فطنة له ، والثاني متصل بقوله :

وَلِلَّهِ الْغَنَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ

أى لا يعلمون بأن الله معز لا ولياء ومذل لا أعداء * . (٢)

وقال في سورة المؤمن :

(٣) لَكُمْ فِيهَا فَاوَكَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ

(١) المنافقون / ٥٧

(٢) بصائر ذوى التمييز ١ / ٤٦٥

(٣) المؤمن / ١٩

(فواكه) بالجمع و (منها) بالواو وفي الزخرف ^(١) (فاكهة) على

التوحيد (منها تأكلون) بغير واو .

ثم يعملل الفيروز آبادي لذلك بقوله : " راعى في السورتين لفظ

الجنة وكانت في هذه (جنات) بالجمع فقال (فواكه) بالجمع .

وفي الزخرف * وتلك الجنة * بلفظ التوحيد وإن كانت هذه جنة

الخلد لكن راعى اللفظ فقال (فيها فاكهة) وقال في هذه السورة

وَمِنْهَا أَنْ تَكُلُونَ ^{بزيادة الواو لأن تقدير الآية : منها تدخرون ومنها}

تأكلون ، ومنها تبيعون ، وليست كذلك فاكهة الجنة فانها للاكل

فقط . فلذلك قال : (منها تأكلون) ووافق هذه السورة ما بعدها

أيضاً ، وهو قوله تعالى :

لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ

فهذا للقرآن معجزة وبرهان . " (٢)

(١) الزخرف / ٧٣ .

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١ / ٣٣٠ .

الفصل الأول :

التشبهات التي تمثل الحياة الدنيا
وأسرار تنوعها .

المدخل :

ورد ذكر الحياة الدنيا وأحوالها في القرآن الكريم في موضع كثيرة منه، جاء بعضها على طريق التشبيه والتشليل، وبعضها الآخر على غير طريق التشبيه أى بأساليب متنوعة تتلاءم مع السياق الذى وردت فيه، بين فيها سبحانه أن متاعها مهما عظم فهو في الآخرة قليل

فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ①

وأنه متاع الغرور ② وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ مَّتَاعٌ الْغُرُورِ ③

وأنها قد غرت أقواما فأهلكتهم وأن سبب غرورهم بها اطمئنانهم إليها وطغيانهم فيها وإنكارهم للبعث وظنهم أنها هي حياتهم الدنيا

وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ④

لذلك حذرنا منها غاية الحذر فقال :

إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ⑤

كما جاء وصف زهرتها في الحديث النبوى الشريف إذ يقول

عليه الصلاة والسلام :

(١) التوبة / آية ٣٨

(١) الحديد آية ٢٠

(٢) الأنعام آية ٢٩

(٤) لقمان آية ٣٣

(إِنْ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَصِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ
كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النَّسَاءَ) (١)

وكان أخش ما يخشاه عليه الصلاة والسلام على أمته ما يفتح
لهم من زهرتها وزينتها :

(إِنْ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يَفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا
وَزِينَتِهَا) (٢)

وذلك لما سيؤدى إليه هذا الانفتاح من التكاليف على نعيمها
والتنافس في متعها والتكاثر والتفاخر بزینتها ومن ثم التحاسد والتدابير
والتباغض والانشغال بهذه المتع عن طاعة الله .

لذلك يقول عليه الصلاة والسلام في حديث طويل :

(فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَبْسُطَ الدُّنْيَا
عَلَيْكُمْ كَمَا بَسَطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكُكُمْ كَمَا
أَهْلَكَتَهُمْ) (٣)

(١) رواه مسلم ٢ / ٢٧٤ .

(٢) متفق عليه ، البخارى ٣ / ٢٥٨ .

(٣) مختصر صحيح مسلم ، تحقيق ناصر الدين الألباني ص ٥٥٣ .

وقد جاء بيان أحوال الدنيا وسرعة انقضائها مع قوة اغترار
الإنسان بها من طريق التشبيه والتشليل في مواضع معدودات / القرآن
الكريم ————— جاء في سورة يونس قوله تعالى :

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ
نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ
زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَطْنَ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَنهَذَا أَمْرُنَا
لَيْدًا أَوْ نَهَارًا جَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ
نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ①

وجاء في سورة الكهف :
وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا
تَذَرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنَدًا ②

وجاء في سورة الحديد :
أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ
وَرِثَةٌ وَفَخِرْ بَيْنَكُمْ وَكَثُرْتُ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ
أَخْبَأَ الْكُفَّارِينَ أَنَّهُ يُرْسِلُ قَرَارَهُ مُمْسِفَةً تَرَى الْيَكُونُ حُطَمًا
وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ③

(١) يونس آية ٢٤ .

(٢) الكهف آية ٤٥ .

(٣) الحديد ٢٠ .

وبلاحظ أن هذه التشبيهات تشترك في معنى عام وهو تقرير وتأکید أن الحياة الدنيا آيلة إلى الفناء سريعة الانقضاء ، ومع ذلك فالإنسان قوى الفتنة / غافل عن حقيقتها وقد تحمله فتنته واغتراره بها إلى أن يظن القدرة عليها أو يفاخر بها على فقراء المسلمين ، أو يشغل به العجب بها عن طاعة الله والإنفاق في سبيله حتى تنتهي هذه الدنيا وتتجلى حقيقتها الفانية إما بعقوبة من الله أو باستدراج الله لهم .

كما يلاحظ أن هذه التشبيهات تشترك في عناصر عامة هي الماء النازل من السماء ونيات الأرض المختلط به ، والفناء الذى يؤول إليه بعد زهوه ونضارته .

وتنفرد كل صورة من صور التشبيه بعد ذلك بعناصر خاصة تتلاءم مع السياق الذى وردت فيه .

وفي هذا الفصل سوف أجتهد في بيان مناسبة كل تشبيه لسياقه لأننا نعرف ابتداءً أن كل تشبيه جاء مطابقاً لسياقه ، وهذا لا يحتاج إلى إثبات لأنه ثابت ببلاغة القرآن فضلاً عن إعجازه . وإنما الذى أحاوله هو بيان هذه المناسبات وأسرار تنوعها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى :

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ
نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ
زُخْرُفَهَا وَازَّيَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا
لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ
نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ①

(١) الآية ٢٤ من سورة يونس .

من أسرار المناسبة :

يقول العلامة الإمام البقاعي رحمه الله تعالى ^(١) عن شيخه

ما ملخصه :

" ان الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة ، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات ، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب ، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل ، بدفع عنا الاستشراف إلى الوقوف عليها فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن فإذا عقلت تبيين لك وجه النظم مفصلاً في كل آية وآية في كل سورة " .

ويقول الإمام البقاعي :

" وقد ظهر لي باستعمالي لهذه القاعدة أن اسم كل سورة مترجم (دال) على مقصودها لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه (عنوانه الدال اجمالاً على تفصيل ما فيه) ومقصود كسل سورة هاد إلى تناسبها " . ^(٢)

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ح ١ / ١٨ - ١٩ .

(٢) نظم الدرر ١ / ١٨ - ١٩ .

وقد علق الدكتور محمد محمد أبو موسى على هذا النص بقوله

ما ملخصه :

" والنظر هنا يَنفَعَل في جهات أربع :

الأولى : نظري في الفرض واستكشافه وتحديده ، وليس هذا بالأمر الهين لأنه لا يظهر إلا بفحص الكلام كلمة كلمة ، وتركيبا تركيبا ، وصورة صورة .

والجهة الثانية : النظر في المقدمات ، يعني معرفة منازل المعاني ومراتبها في ضوء المعرفة الواضحة للفرض الذي انعقد عليه الكلام وبهذا نوضح المعنى الذي هو بمثابة الأصل والمعنى الذي هو مهاد ووطاء وهذا باب من النظري يحتاج إلى مراجعة وأناة .

والجهة الثالثة : أن ننظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المقصود يعني العلاقة بين المقدمة والمطلوب . . .

وهذا في الشعر يفيد أن الحديث عن الطلل والرحلة والصاحبة في قصيدة المديح غير الحديث عن الطلل والرحلة في قصيدة الهجاء ومدايح الكتاب والعلماء غير مدايح غيرهم وهكذا . . .

والجهة الرابعة : هي النظر في حركة الكلام وكيف تشير في سيرتها هواجس وأحوالا وأشجانا نرى الكلام يحقف عندها ويتغفل

حتى يشبع أحوال الاستشراق هذه وذلك وفاء لحسب
البلاغة كما قالوا وهو جيد لأنه استكشاف حالة المجازية
بين اللغة والنص". (١)

وإذا ما عدت إلى الآية الكريمة الواقع فيها المثل وجدت
أن من الدوافع العامة /تقتضي إبراز هذا المعنى في صورة المثل أن هذا
المعنى ما تقع الغفلة فيه ، غفلة لا توقظها اللغة المجردة ، فأكشـر
أهل الأرض غافلون عن حقيقة هذه الحياة الدنيا مغترون بها ، هذا
إلى جانب أن تقرير هذا المعنى وتوكيده في النفس يمثل ركنا من أركان
الإيمان ، فالوقوف على حقيقة هذه الحياة الدنيا واليقين بسرعة انقضاءها
وقلة بقائها ، ما يحمل النفس على الإقبال على الدار الآخرة ، والتأهب لها .
ولا سبيل إلى تحريك هذه الدوافع وإيقاظ تلك الغفلة إلا بفتح
باب من العين إلى مكان العقول من قلبك يجعلك تبصر هذه الحياة
الدنيا في إقبالها وإدبارها ماء ينزل من السماء فيختلط به نبات الأرض
فإذا هو موقن ممدق ، وإذا به قوام حياتك * حتى إذا أخذت
الأرض زخرفها وازينت * فإذا هي عروس فاتنة تسبي الأرواح وتأخذ
بمجامع القلوب ، وإذا الإنسان أسير فتنتها وهو يظن أنه أسرها ومالكها
والقادر عليها قسندرة لا يشوبها فتور ولا وهن ، فيطغى ويبغى فسي
الأرض ويغفل عن الدار الآخرة والتأهب لها ، وسرعان ما يأتي أمر الله

(١) مقدمة البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : د / محمد محمد أبو موسى

الطبعة الثانية ، مكتبة وهبه ص : ١٤ ، ١٥ -

فيحمد جذور هذه الحياة الدنيا ، ويظفي* هذا الوهج المتألق ويجعلها

حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَغْنِ بِالْأُمْسِ

ومن خلال هذا التشيل البديع ترى وتسمع وتفكر وتجسد
وتعقل وتحس ، حتى يتقرر ذلك في النفس أبلغ قرار وأكد . وقد نفذ
إليها من منافذ شتى لا من منفذ الذهن وحده وباللغة المجردة .
وعند النظر والتأمل لسياق الآيات في سورة يونس قبل بد*
المثل يتبين لنا كيف تمهد الآيات السابقة لهذا المعنى وتوطئ* له .

يقول عز وجل :

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا فِيهَا
وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ①

هذا القول الكريم يوحى بأنهم لا يأملون لقاء الله بالبعث
والإحياء وآثروا هذه الحياة الفانية واطمأنوا إليها وانكبوا عليها قاصرين
مجامع همهم على لذائذها وزخارفها . (٢)

وفي لفظ الاطمئنان ما يوحى بالغفلة والبعد والإغراق .

وفي قوله عز وجل بعد :

فَنَذِرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ②

-
- (١) الآية ٧ من سورة يونس .
(٢) أبو السعود ١٢٢ / ٤ .
(٣) الآية ١١ من سورة يونس .

استدراجاً من الله سبحانه وتعالى وإمهالا للكافرين الغافلين
عن البعث والجزاء ، حتى يظن الظان منهم أنه ليس بمعذب وإنما هو في
مهلة ثم يؤخذ على غرة منه .

وفي قوله عز وجل بعد :

كَذَلِكَ نُنْزِلُ لِلْمُشْرِكِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ①

فيه من أسباب تعذيبهم في الغفلة والبغي والإسراف ما يزيّن
لهم سوء أعمالهم .

ثم يعقب ذلك قوله عز وجل :

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكُمْ وَجَرْتُمْ بِهِمْ
بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ② فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ
يَبْعُثُونَ فِي الْأَرْضِ بَعِثْنَا حَقّاً يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَثْنَاهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ
مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ③

يصف جهود الإنسان الكافر وكنوده لربه ، وشدة افتتانه
بالحياة الدنيا وأن فطرته التي فطره الله عليها لا تصفو ولا تتجلى إلا في

(١) الآية ١٢ من سورة يونس .

(٢) الآية ٢٢ ، ٢٣ من سورة يونس .

وقت الشدائد والمحن عندما يحاط به ثم لا تلبث أن تخالطها الشهوات والشبهات وعبادة غير الله ، حينما يشعرون بالأمن ويمتد بهم الزمان فيطففون ويبغفون في الأرض .

ثم تأمل كيف يعملوا هذا النداء * يَا أَيُّهَا النَّاسُ * بمافيه

من التهديد والمبالغة في الوعيد ، ليكشف لهم حقيقة نعيمهم وأن العاقبة عليهم وأن ما هم فيه من المتعة والمنفعة عاجلة شي لا يعتد به سريع الزوال دائم الوبال * ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ * تأمل ما وراء " ثم " التي توحي بتراخي العسر عليهم وأن هذا التراخي استدراج من الله لهم ، ثم * فَتُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * في الدنيا من الاستمرار في البغي وهو وعيد بالجزاء والعذاب .

وهكذا يوطن سباق الآيات لهذا التشيل ويقتضي هذا التحليل والتفصيل والذي يكشف لهم القناع عن حقيقة هذه الحياة الدنيا وحالها " العجيبة الشأن البديعة المثال المنتظمة لغرابتها فسي سلك الأمثال ، في سرعة تقضيها وانصرام نعيمها غبا إقبالها واغترار الناس بها بحال ما على الأرض من أنواع النبات في زوال رونقها ونضارتها فجأة وذهابها حطاما لم يبق لها أثرا أصلا بعدما كانت غضة طرية قد التف بعضها ببعض وزينت الأرض بألوانها وتفتت بعد ضعفها بحيث طمع الناس وظنوا أنها سلمت من الجوائح " (١)

وقد ذكر أهل العلم في أسرار مناسبتها ووجوه شبهها كلاما فقالوا :

قال الزمخشري : "شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاما بعدما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرتها ورفيفه". (١)

وقال أبو حيان : " ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما قال :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

ضرب مثلا عجيبا غريبا للحياة الدنيا يذكر به من يبغى فيها على سرعة زوالها وانقضائها وأنها ليجال ما تعز وتسر تضحل ويؤول أمرها إلى الفسار". (٢)

وقال ابن القيم : " شبه الحياة الدنيا في أنها تتزين فسي عين الناظر فتروقه بزینتها وتمجبه فيميل إليها ويهواها اغترارا بها حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سلبها بغتة أحوج ما كان إليها وحيل بينه وبينها". (٣)

(١) الكشف ٢/٢٣٣

(٢) البحر المحيط ٥/١٤١

(٣) التفسير القيم للإمام ابن القيم ١/٣٠٥

وقال الفخر الرازي : " اعلم أنه تعالى لما قال :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَمَتَّعْتُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

أتبعه بهذا المثل العجيب الذي ضربه لمن يبغى في الأرض ويفتر بالدنيا ويشدد تمسكه بها ويقوى إعراضه عن أمر الآخرة والتأهب لها " (١)

وقال الإمام البقاعي : " ولما كان السياق لإثبات البعث

وتخويفهم به وكانوا ينكرونه ويعتقدون بقاء الدنيا وأنها إنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع دائما بلا انقضاء فهي دار يرضى بها فيطمئن إليها وللتنفير من البغي والتعزز بغير الحق وكانت الأثال أجلى لمحال الإشكال قال تعالى مثلا لمتاعها قاعرا أمرها على الفناء ردا عليهم في اعتقاد دوامها من غير بعث " (٢)

(١) تفسير الفخر الرازي ٧٦/١٢

(٢) نظم الدرر ١٠١/٩

من أسرار اللغة والنظم :

قال تعالى: **إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ①** جاءت هذه الآية الكريمة بمنزلة البيان لجطة " متاع الحياة الدنيا " في الآية السابقة .
لذلك لم تعطف على ما قبلها وإنما قطعت واستأنف بها ، وأتت " إنما " هنا لتشير إلى أن قصر الحياة الدنيا على هذا المثل المصور لبدايتها ونهايتها ، أمر واضح معلوم لا يجوز لدى عقل أن ينكره ، فما أشد جهل أولئك الغافلين عن هذه الحقيقة المطمئنين لهذه الحياة الدنيا المنكرين للبعث والجزاء . إذ الأصل في الأداة " إنما " أن تأتي فيما هو معلوم وغير منكر ، كما أنها توحى بالتمريض بغفلة هؤلاء القوم وجهلهم وهوم من أجل مواقع " إنما " وألقها بالقلب .

والقصر هنا قصر قلب يجنى على تنزيل المخاطبين منزلة من يحسب دوام بهجة الحياة الدنيا فقلب عليهم المثل القرآني اعتقادهم وبصرهم بخطأ تصورهم .^(٢)

وقد التبس هذا على أبي حيان ، فنحن أن تكون " إنما " للحرص فقال : " وإنما هنا ليست للحرص لا وضعا ولا استعمالا ، لأنه تعالى ضرب للحياة الدنيا أمثالا غير هذا " .^(٣)

(١) انظر آية ٢٣ من سورة يونس .

(٢) انظر التحرير والتنوير ١١ / ١٤١ .

(٣) البحر المحيط ٥ / ١٤١ .

ولو أنه راعى السياق الذى وردت فيه "إنما" لما فاتته ذلك
 (رحمه الله) لأننا لو نزعنا من "إنما" إفادتها القصر وجعلناها
 للتوكيد فقط لا غفلنا قدر عظيم من المعنى المقصود من إيرادها وهو حسم
 شبهة المنكرين ، والتعريض بغياباتهم وغفلتهم . ولما كان وراء ذلك
 أكثر من إثبات هذه الصفة للحياة الدنيا وليس هذا المراد فحسب ،
 وإنما المراد هذا النفي بعد الإثبات المستفاد من إنما وهي نفي أن تكون
 الحياة الدنيا كما توهموها فانكبوا عليها وتعلقوا بها وهذا هو محض المعنى .
 والمشبه : حال الحياة الدنيا في سرعة انقضائها وانعدام نعيمها غيب
 إقبالها واغترار الناس بها .

والمشبه به : هو الصورة المكونة من ماء ينزل من السماء فيختلط
 به نبات الأرض فيزهو النبات ، وتتزين به الأرض ثم يصبح فناً .

والمثل : " الحال العائلة على هيئة خاصة " ، " وأصل المثل
 الانتصاب والمثل المصور على مثال غيره ، يقال مثل الشيء إذا انتصب
 وتصور ، والمثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما
 مشابة ليبيين أحد هما الآخر ويصوره وهو أعم الألفاظ الموضوعات
 للمشابهة " . (١)

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب - مادة (م ث ل) .

ثم تأمل مشول الحياة الدنيا وانتصابها بين يديك ، بعد أن كانت
معنى مضمراً في ذهنك ، وما وراء ذلك من قوة الإحساس بها ورويتها
مقبلة مدبرة وتوكيد هذا في النفس أبلغ توكيد .

"لأن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي
وتأتيها بصريح بعد مكنى" . (١)

وقوله تعالى : الْحَيَاةُ الدُّنْيَا

" تعنى مدة الحياة الناقصة غير الأبدية ، لأنها مقدر
زوالها ، فهي دنيا ، وتشمل مدة بقاء الأشياء الحية ، وبقاء الأرض ، وقد
تعني مدة حياة الأفراد أى حياة كل أحد ، ووصفها بالدنيا لقربها ،
أى الحاضرة غير المنتظرة كنى عن الحضور بالقرب" . (٢)

وفي هذا الوصف إشارة الى نقصانها وقربها وزوالها وأن هناك
حياة أخرى تقابلها لها الكمال والبقاء .

وقوله تعالى :

﴿ كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ
وَالْأَنْعَامُ ﴾ .

(١) أسرار البلاغة ص ١٠٢ .

(٢) التحرير والتنوير ١٥ / ٣٣١ .

وراء اختيار هذه العناصر المكونة لصورة المشبه به ما وراءها من اللطائف والدقائق .

ففي تنكير كلمة " ما " تشريف وتعظيم لهذا الماء الذي به بدو الحياة ، وما يؤكده هذا المعنى قوله " أنزلناه " إذ لا يذكر القرآن هذا الفعل بهذه الصيغة إلا في مواضع التشريف والتكريم والتعظيم كقوله تعالى :

(١) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ

وَقَوْلُهُ : إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (٢)

وفي قوله : " من السماء " تأكيد لسمو هذا الماء وطهارته ونقاته وعلو مصدره .

فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ

" خَلَطَ مَخَالَفٌ لَخَلَصَ مُضَادٌّ لَهُ ، تقول خَلَطْتُ الشَّيْءَ بِغَيْرِهِ فَاخْتَلَطَ ، والخليط المجاور ، ويقال : الخِلْطُ : السَّمُّ يَنْبُتُ عودُهُ عَلَى عَوْجٍ فلا يزال يتعَوَّجُ وَإِنْ قَوْمٌ وهذا من الباب لأنه ليس يَخَالِطُ فِي الاستقامة " (٣)

(١) الآية ٩٢ من سورة الأنعام .

(٢) سورة القدر آية ١ .

(٣) المقاييس مادة (خلط) .

وقد يوحي هذا النص بأن النفس تولد على الفطرة ثم يخالطها من المطامع والشهوات ما يشوب صفاء فطرتها ، وسياق الآيات الماضية أرانا كيف تعود هذه الفطرة إلى التجلى والصفاء عندما يحاط بها فتخلص الدين لله ، ثم كيف تخالطها الشهوات عندما تأمن مكر الله ويطول عليها العمر .

وقد اختلف العلماء في معنى (الباء) في قوله تعالى :
تعالى :

فَأَخْتَلَطَ بِهَا نَبَاتُ الْأَرْضِ

أهي للمصاحبة أم للسببية ؟ وهم باختلافهم هذا يفسحون معنى الكلمة ويستخرجون ودائعها ، لأن الكلمة القرآنية رحبة سخية لا ينتهي عطاؤها ، لأنها كلام الله ما دامت تلك المعاني لا تتضارب ولا تخرج عن مقتضى السياق .

ومعنى المصاحبة : أن النبات اختلط بالماء نفسه فهو يجرى فيه مجرى الغذاء ويخالطه . (١)

(١) انظر روح المعاني للآلوسي ١١/١٠٠ .

خذ مثلاً قول أبي حيان : " في معنى (الاختلاط) وأنه
تشبث النبات بالهاء وتلقفه إياه ، وقوله له لأنه يجري مجرى الغذاء ،
وكيف خالطه وداخله فغزى كل جزء منه . (١)

وما يفيض به هذا الجزء من المشبه به على المشبه من فيوضات
فهذه الباء توحى بتشبث الإنسان بهذه الحياة الدنيا وتعلقه بها
وقوله لها ، وهي تجرى منه مجرى الدم . فأرضها مهاده ، وسماؤها
دثاره ومنها خلق وفيها يعباد ومنها يخرج تارة أخرى .

بينما يذهب الزمخشري وغيره من المفسرين إلى أن " الباء " هنا
للسببية والمراد : اشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً . (٢)
بعد ضعفها بحيث طمع الناس وظنوا أنها سلمت من الجرائم . (٣)

وكلمة " نبات الأرض " : توءد معنى الضعف والطراوة ثم ما
آل إليه حاله بعد اختلاطه بالماء فطال وامتد وقوى واشتد وتكاثر وتكاثر
واشتبك بعضه ببعض .

وهذا الجانب من المشبه به : يوحى بنضارة العيش ونعيمه
واقبال زهرة الحياة ، وكيف تألقت نضرتها في العين وأشرقت بهجتها
في النفس فأقبل عليها الإنسان وافتتن بها .

(١) البحر المحيط ٥ / ١٤١ .

(٢) الكشف ٢ / ٢٣٣ .

(٣) أبو السعود ٤ / ١٣٧ .

فتأمل كيف استأنس الماء نبات الأرض ، فلان له واخطط به أو
كيف أسرع في بعث الحياة ، ولا زال الجور طبعاً نديا فتكاثر النبات
وتكاثف .

هذا ما توحى به الفاء في قوله " فاخطط به " والتي توحى أن
بسرعة نماء الحياة وإقبالها ، وإن كل ذلك مترتب على نزول الماء . (١)

وقوله عز وجل :

مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ

تأمل قيمة هذه الجملة التي أتت لتصف حال هذا النبات ، فليس هو
النبات الذي يُبْهِجُ منظره وتسره النفوس فحسب ، وإنما هو فسوق
ذلك النبات الذي به قوام حياة الناس والأنعام ، لأن النبات كما يقول
علماءنا ينقسم إلى مأكول وغيره (٢) ، والآية أجلت قيمة هذا النبات
وأوحت بالرغبة العارمة والتعلق الشديد بما هو قوام حياتهم ، ويقابل
ذلك التعلق الشديد بهذه الحياة الدنيا .

وما يزيد هذا التعلق والرغبة فيه كثرة هذه النعم ووفرتها
وسخائها تأمل هذا حين تكون الأنعام مشاركة للناس في الأكل تجد

(١) انظر التحرير والتنوير ١١ / ١٤٢ .

(٢) انظر البحر المحيط ٥ / ١٤٢ .

هذا في القرآن عند التذكير بنعم الله على خلقه :

وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى
كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ①

ولكن شدة فرق دقيق بين قوله تعالى :

كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ

وقوله : مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ

إذا أردت أن تتف على فتأمل هذه الإضافة المفصلة عن أن
الأنعام مسخرة مذلة لهم ، لأنها أنعامهم ، وأنهم المالكون لها القديرون
عليها وما وراء ذلك من التكريم لهم .

ووازن بينها وبين هذه المشاركة في الفعل مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ

والتي توحى باستوائهم في التمتع والتلذذ بنعم هذه

الحياة :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ②

وما وراء ذلك من الازدراء والإهانة والتحقير حين لا يكون هم الناس إلا
متاع الحياة الدنيا .

(١) الآية ٥٣ ، ٥٤ من سورة طه .

(٢) سورة محمد آية ١٢ .

ولو أنه أراد سبحانه وصف تنوع المأكّل لقال : (مِمَّا يَأْكُلُ
النَّاسُ وَيَأْكُلُ الْأَنْعَامُ) ولكن هذه المشاركة في الفعل أوجت بهذه
المخالطة في طلب المتعة والتلذذ .

والتعبير بالأكل عن التمتع بالحياة تعبیر سخّي جداً يجسم
في الخيال صورة حسية لهذا التمتع ، يشارك في إدراكها الحس والذوق
وهو أبلغ في الإحساس ، مما يؤدي إلى تعميق هذا في النفس الحية ،
ومن ثمّ ترغيبها عنه .

وهذا الالتفات في صيغة الفعل (يَأْكُلُ) من الماضي السدّي
عليه نسق الآيات إلى المضارع . فيه إيقاظ ولفت وتنبيه إلى ضرورة التأمل
والتفكر في هذه الصورة الحافظة بالحركة ، والسعي الحثيث المتجسّد
في طلب المتع ، ترى فيه الناس والأنعام لا يفتأون منكبين متهاكّين ،
يأكلون كلما آفاقوا من لذة فزعوا إلى أخرى في حرقة ونهم بالغ وعشق
حارق للحياة .

وإذا راجعت المثل واستقصيت التأمل ، وجدت أن المثل
يحكي قصة مضت وانتهت ويتحدث عن حياة قامت ثم بادت ، ولكن هذه
اللقطة " ما يأكل الناس والأنعام " تظل تنبئ بالحركة ترى فيها
الناس والأنعام لا يزالون يأكلون ، ولكن ماذا يأكلون ؟

يأكلون الحصيد و يأكلون الفناء !!

نقطة نفسية عظيمة ترينا ما سوف يقع بأنه واقع الآن وأمام أعيننا
فهو لا محالة واقع .

وأما قوله تعالى :

حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ ①

" ففي معنى الغاية المستفاد من (حتى) ها يؤذن بأن
بين بدع يظهر لذات الحياة الدنيا وبين منتهاها مراتب جمعة وأطواراً
كثيرة طويّت في معنى حتى " . (٢)

وهذا من بديع إحكام هذا النظم الشريف وجليل سبكه وكيف
يرتبط الكلام بعضه ببعض ، ويتناول الزمان في ذلك الفعل حتى يصل
ما قبلها بما بعدها ، ويجعل ما بعدها غاية لما قبلها ولا يكون ذلك
إلا باحدى وجهين إما بتقدير محذوف :

" أى فما زال ينمو حتى إذا "

أو يتجاوز في (فَاخْتَلَطَ) أى فدام اختلاط النبات بالماء
حتى إذا " . (٣)

وراء ذلك ما وراءه .

فقوله " فما زال ينمو حتى إذا " : وراءه توغل جذوره وكثرة
قطوعه وقوة تماسكه + وراءه " فدام اختلاطه بالماء حتى إذا " : بقاء
نضارته وبهجته ودوام طراوته وفتنته .

(١) يونس آية ٢٤ .

(٢) التحرير والتنوير ١١ / ١٤٣ .

(٣) انظر البحر المحيط ٥ / ١٤٢ .

وورا " ذلك الا من إلى هذه التي تقوت بعد ضعفها بحيث طمع

الناس فيها وظنوا أنها سلمت من الجوائح .

يقول صاحب التحرير والتنوير : " والقول في (حتى إذا أخذت

الأرض زخرفها) كالقول في قوله **حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ** وهو

غاية ، شبه بها بلوغ الانتفاع بخيرات الدنيا إلى أقصاه ونضوجه وتامه ،

(١)

وتكاثر أصنافه وانهماك الناس في تناولها ونسيانهم المصير إلى الفناء .

ولا يفوتك وأنت مسحور بهذا الكلام الذي قال عنه علماءنا :

" إنه أغشى من السحر وأهول من البحر وأعجب من الشعر " . أن تقف

أمام هذا التعبير في أداة الشرط (إذا) فتري كيف أكسب الكلام قوة

أسر ، وشدة تلاحم ودقة سبك وأحالة من الخبر إلى تحقق الوقوع ، وعقد

آخره على أوله وجعل بعضه آخذاً بحجز بعض .

ولو قيل **حَتَّىٰ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا** لانحلت عقدة

الكلام وانفصمت عراه وتناثرت لآلئه وذهب ماؤه .

وهذه الجملة وهي قوله عز وجل :

حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ

وقف عندها المفسرون وقالوا عنها : إنها " كلام فصيح وجملة بديعة

اللفظ ، جعلت الأرض آخذة زخرفها متزينة ، وذلك على جهة التشييل بالعروس ،

(٣)

إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتست وتزينت بأنواع الحلي .

(١) التحرير والتنوير ٤٣/١١ (٢٠٠٠) ص ١٠٠

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٨٦ .

(٣) البحر المحيط ١٤٢/٥ وانظر الكشاف ٢/٢٣٣ .

فالمعنى مبني على استعارة وهي لينة في هذا المثل ما يجعله
أخصب وأشد تأثيراً وأقوى إيحاءً ، لأن هذه العناصر البلاغية إنما تدمج
بعضها في بعض عندما تتكاثف المعاني وتتكاثر وتكون من الغزارة والوفرة ،
بحيث لا يوجد سبيل للإبانة عنها إلا هذا ، ولأن التعبير بها في
هذا الموضع ، أغزر وأبين وأمكن ، وهذه سمة من سمات الإعجاز في القرآن
الكريم ترى فيه هذه الصور البانية لا تأتي توشيحاً ولا حلية لفظية ،
وإنما تأتي في موضع لا يتم المعنى إلا بها ، فتجد كل جملة في موضعها
بليغة .

ثم ماذا وراء هذه العروس التي أخذت الثياب الفاخرة من كل
لون واكتست وتزينت بأنواع الحل والفتنة إلا تصويراً دقيقاً بالغ لحس
هذه النفس الغافلة والمفتنة بهذه الحياة الدنيا .

أرأيت كيف تصل هذه اللغة الشريفة العالية إلى مضررات النفوس
وتتغرس في جذور القلوب لتبين عما يتراءى لها وتوهمه ، وكيف تتكاثف
عناصر التعبير تبعاً لقوة الإحساس بهذه الحياة الدنيا ، وطغيانه
على الناس ، فإذا الأرض لم تعد أرضاً ، بل غداة حسناء ترفل في شوب
عرسها .

ليس هنا تشبيه ، لأن في التشبيه إيحاء بأن شئ فرق
بين المشبه والمشبه به يحتفظ كل منها بخصائصه وحقيقته أما في
الاستعارة فوهم بالغ يقلب النفس ترى فيه الجماد حياً ناطقاً والأعجم
فصيحا والأجسام الخرس مبينة والمعاني الخفية بادية جليلة . (١)

(١) عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ص ١٠٢

ثم راع الخيال يتلمس ما وراء ذلك من شدة التعلق واستغراق القلب والمبالغة في الحفاوة والانس .

وإذا ما عدنا إلى الآية الكريمة ، وجدنا مفرداتها تتضافر جميعا لتوكيد هذا المعنى .

تأمل كلمة (أَخَذَتْ) وهل تجد كلمة تعطى عطاءها في هذا الموضع . " فالأخذ هو التناول باليد " (١) ووراءه القوة والقدرة والتمكن " والأخذ حَوَزَ الشَّيْءِ وَجَبَّيْهُ وَجَمَعَهُ " (٢)

وراء هذا إيحاء بأن هذه العروس إنما تأخذ في أخذها القلوب وتسبى العقول وتستولى على النفوس لشدة اغترارهم بها .

ولو نزعنا هذه الكلمة من مكانها ثم أبدلت بما يراد فيها لا نطفأ هذا المعنى ، ولغظ القرآن أبلغ وأمكن .

والزخرف : " الزينة المزوقة ومنه قيل للذهب زخرف " (٣)

والمراد : " حسنيتها ومهجتها " (٤)

(١) البحر المحيط ٥/١٤٢ .

(٢) المقاييس مادة (أخذ) .

(٣) المفردات للراغب مادة (زخرف) .

(٤) روح المعاني ١١/١٠٠ .

ومسندة اللفظة يُشيع القرآن جواً ساحراً آخذاً يكاد يخطف
الأبصار بريقه وتألقه وكمال حسنه وفي إضافة الزخرف إليها دليل على
بلغ احتفائها به .

وقوله تعالى : (وَأُزِينَتْ) : استيفاء لأبعاد هذه الصورة الفصيحة
اللفظ عن بديع معناها وذلك بشرح الاستعارة وإشاعتها وفي ذلك
إيغال في الوهم وزيادة في الافتتان ، وإغراق في البعد والغفلة .

وفي عطف (وَأُزِينَتْ) على قوله : " أخذت الأرض زخرفها " تأكيد
لما قبلها لأنك حين تتأمل المعنيين ، تجدهما من باب واحد ، وهذه الواو
المؤنونة بتغايرهما كأنها أوهمت أن قوله (وأزينت) صفة جديدة مغايرة
للتى قبلها ، ومستقلة في إبراز حالة أخرى من حالات هذه العروس وهي
حرصها العميق على هذا التزين لما وراءه من تأثير وفطنة .

وما يؤيد ذلك صيغة الفعل ، وكيف داخلها الإدغام
الموحى بأنها تختفي بهذه الزينة وتحتفل بها ، وكأن هناك نوعان من
الزينة ظاهر جلي ومدغم وخفي (١) .

وقد يكون قوله " وأزينت " والله أعلم من عطف الخاص على العام
وفي تضعيف حرف الزاى في " وأزينت " ما يوحى بأن هذه الأرض تكاثفت
فيها الزينة وتضاعف فيها الرونق .

(١) انظر نظم الدرر ٨٧/٥ .

وَوَظَنَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا

وكلمة (ظَنَّ) في اللغة تأتي بمعنى الشك كما تأتي بمعنى اليقين^(١).

والسدى يظهر لي - والله أعلم - أنها لا تضيق عن هذين المعنيين مجتمعين فقله عز وجل : * وَظَنَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا * يقين مابعد يقين بالقدرة عليها والتمكن من تحصيل منفعتها ورفع غلتها وذلك لحسن نموها وسلامتها من العاهات^(٢).

وما يؤيد هذا اليقين قوله :

أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا .

تأمل كل هذه التأكيدات من أن واسمية الجملة ، واختيار لفظ القدرة ، كل ذلك يدل على قدرتهم الدائمة عليها ، والتي لا يعثر بها فتور ولا وهن وأن ذلك اليقين بالقدرة الدائمة عليها صادر من أهلها ، أي ممن خالطوها وألفوها زماناً أزال وحشتهم بها وغربتهم فيها ، فأصبحوا من أهلها وما وراءه من الأنس بها .

وهذا المعنى يتلاءم مع السياق السابق الذي ترى فيه أولئك الخافلين " يهفون في الأرض " أي يسرعون في الفساد فيها متجاوزين كل حد .

(١) المفردات للراغب مادة (ظن) .

(٢) انظر الكشف ٢٣٣/٢ .

فيقول الراغب : " وَظَنَّ أَهْلَهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا " تنبيهه
على أنهم صَارُوا فِي حُكْمِ الْعَالَمِينَ لِفَرْطِ طَمَعِهِمْ وَأُمْلِهِمْ " . (١)

فإذا ما عدنا إلى هذا اليقين الذي خالط قلوبهم نجد أنه
مبني على الظن وغلبة الهوى وما سولته لهم أنفسهم حتى استيقنته قلوبهم
تأمل بناء الجملة كيف بنيت هذا اليقين على الظن فعبرت بهيئتها
عن معانيها .

ثم تأمل كيف ينهار هذا اليقين والظن البالغ الذي بنوه على
شفا جرف هار ، أمام إتيان أمر الله بغتة .

أَتَيْهَا أَمْرُنَا لِيَأْذَنَّا بِأَوْنَهَا بِأَفْعَلَتْهَا حَصِيدًا كَأَن لَّهَ تَغْنُّ بِالْأَمْسِ

ومعناه " نزل بها ما قدرناه من العذاب وهو ضرب زرعها
بما يحتاجه من الآفات والعاهات " . (٢)

ويقول الزمخشري : " وهو ضرب زرعها ببعض العاهات بعد
أنهم واستيقنهم أنه قد سلم " . (٣)

تأمل ما وراء ذلك من عظم الخطب وشدة الحسرة وهذا يتناسب
مع طغيانهم وشدة الغفلة .

(١) للفردان للراغب مادة (ظن) .

(٢) روح المعاني ١٠١/١١ ، أبو السعود ١٣٧/٤ .

(٣) الكشف ٢٣٣/٢ .

ثم تأمل ما توحى به لفظة " أمرنا " من السرعة ، إذ من معاني الأمر : سرعة الإيجاد بأسرع ما يدركه الوهم :

وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ①

و كيف يتلاءم مع (أتى) " لأن أتى مجي " بسهولة " . (٢)

وفي الاضافة في كلمة (أمرنا) ما يوحى بالتعظيم والهيبة والإجلال والإكبار لهذا الأمر وعظيم القدرة التي تطوى الكل في وضعة .

ثم تأمل هذا التناسق البديع بين قوله تعالى :

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَرَمَ مِنْهُمْ
إِلَى قَوْلِهِ : وَظَنُّوا أَنَّهُمُ احْبُطَ بِهِمْ .

وقوله :

أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا

وكيف أحاط بهم الموت من كل جانب في الآية الأولى وإن إحاطة مكانية وهم في لجج البحر ثم لما أمهلهم الله أمنوا مكره وبلغوا في الأرض فنبههم عز وجل في هذه الصورة الماثلة بين أيديهم بأن قدرته محيطية بهم إحاطة زمانية وهما الليل والنهار إذ لا يخرج كائن عن وقوعه فيهما

(١) الفران للراغب مادة (أمر) . القرآنية ٥٥ .

(٢) المصدر السابق مادة (أتى) .

فهي زمانية مكانية فإن هم نجون من الموت وأنستهم فرصة النجاة لحكمة
الله واستدراجاً لهم فلن يأمّنوا إتيان أمر الله ليلاً أو نهاراً. وقد أحاط
بهم زمن غلتهم أوزمن يقطّتهم فيجعلهم حصيداً ويستأصلهم
استئصال هذا النبات الذي ضربه مثلاً لحياتهم فيهلكهم كما أهلك
القرون الأولى. (١)

فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا

الجعل : "عامٌ في الأفعال كُتِبَ ومن معانيه تضيير الشيء
على حالة دون حالة وهو بعد مرحلة الخلق". (٢)

والحصيد : "أصل الحَصْدِ قَطْعُ الزَّرْعِ وقوله : "فجعلناها
حصيداً" فهو الحَصَادُ في غير إبانِهِ على سبيل الإفساد". (٣)
ومعنى فجعلناها حصيداً أي فجعلنا زرعها ونباتها شبيهاً بما
حَصِدَ مِنْ أَصْلِهِ. (٤)

-
- (١) انظر التحرير والتنوير ١٤٣/١١ ، وانظر روح المعاني ١٠١/١١
(٢) الراغب مادة (جعل)
(٣) المصدر السابق مادة (حصد)
(٤) الكشاف ٢٣٣/٢ ، روح المعاني ١٠١/١١

فبعد أن عظم الانتفاع بهذا النبات وكمل حسنه وبعثته ودنت
 قطوفه وظنوا أنهم قادرون عليه متمكنون من الانتفاع بفلقته وقع اليأس منه
 إن باغتهم أمر الله فأحاط بالزرع فجعله حصيدا . وفي إضافة الجعل
 الى الأرض وحذف نباتها من المبالغة والايحاء بشمول تلك الإصابة وعمومها
 وعظيم خطبها واستئصالها للزرع حتى كأن الأرض نفسها لم تكن لتغيرها
 بتغير ما فيها . (١)

كَأَنَّ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ

غنى: غنى القوم في دارهم أقاموا كأنهم استغنوا بها. والغنية
 : المرأة .. استغنت بجمالها عن لبس الحلي . (٢)

* وغنوا في ديارهم ثم فنوا وخربت مبانيهم وحلت مغانيهم
 * كأن لم يغنوا فيها * وقال بشر :

وَقَدْ تَفَنَّى بِنَا حِينًا وَنَفَنَسَى

بها والدهر ليس له دَوَامٌ . (٣)

(١) انظر روح المعاني ١١ / ١٠١ .

(٢) المقاييس مادة (غنى) .

(٣) أساس البلاغة (غنى) .

فقله تعالى :

كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ الْأُمْسَ

"أى كأن لم يغن نباتها أى لم يمكث ولم يقم". (١)

تأمل التقابل البديع بين تلك الصورة الفخية الحافلة بالبهجة والأنس والحركة والحياة ، وقد غني القوم فيها بالمكان ، ولفوا الغاية في الاستغراق في الدنيا والاعطشان إليها والأنس بها ، وما آل إليهم حالها بعد ذلك .

فهذه الجملة تؤكد لما قبلها " وبالغة في التلف والهلاك حتى كأنها لم توجد قبل ولم تقم بالأرض بهجة خضرة نضرة تسرأهلها". (٢)
"والأمس مثل في الوقت القريب كأنه قيل كأن لم تغن آنفا". (٣)

كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ

"تذييل(*) جامع أى مثل هذا التفصيل ، نفصل ونبين الدلالات كلها الدالة على عموم العلم والقدرة وإتقان الصنع". (٤)

(١) روح المعاني ١١ / ١٠١

(٢) البحر المحيط ٥ / ١٤٢

(٣) الكشف ٢ / ٢٣٣

(٤) التحرير والتنوير ١١ / ١٤٤

(*) معنى التذييل : أن يذيل المتكلم كلامه بعد تمام معناه بجمله تحقيق ما قبلها . بديع القرآن ص ١٥٥

* والتفكر التأمل والنظر وهو تفعل مشتق من الفكر * (١)

* وقال بعض الأدباء : الفكر في المعاني وهو فرك الأمور محثها طلباً للوصول إلى حقيقتها * (٢)

فتأمل كيف يتلأم التفكير مع هذا التفصيل .

وفي الآية تعريض بالذين لم ينتفعوا بهذه الآيات بأنهم ليسوا من أهل التفكير ..

وجيء بـ " التفكير " بصيغة المضارع للإشارة إلى تفكير شديد ومكرر . (٣)

ثم تعرض الآيات صورة مقابلة لتلك الدار الفانيّة لتمييز المعاني وتتجلى الصور .

(١) المصدر السابق (١) / ١٤٤ .

(٢) الراغب مادة (فكر) .

(٣) التحرير والتنوير ١٣ / ٨٥ .

يقول تعالى :

وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ

وفيها ترغيب للناس إلى الدار الباقية بعد ترغيبهم عن الدار

البائدة . وتوحى هذه التسمية من كونها سالمة مما يكدر صفو عيشها

سالم أهلها مما يبتلى به أهل الدنيا من الآفات والعايات والموت والهلاك ،

فضلا عن سلام من ربهم وسلام الملائكة عليهم وسلام بعضهم على بعض .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى :

وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
مُقْتَدِرًا ﴿١﴾

من أسرار المناسبة .

تمتد أسرار المناسبة بين هذا المثل البديع وبين بداية السور
الكريمة التي أنزل الله فيها الكتاب على عبده :

لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا لِّمَنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَّا كَثُفَ فِيهِ أَبَدًا ①

تأمل هذا النعيم المقيم الذي لا انتهاء له ولا انقضاء . والذي يحيط
بهم فلا يفارقهم لحظة عين ، وقارنه بنعيم الحياة الدنيا السريعة الانقضاء
القريبة الفناء .

ثم تأمل قوله تعالى :

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝
وَإِنَّا جَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ②

أى سنجعل ما عليها من زينة ونعيم حطاما وركاما كأرض جرداء
لا نبات فيها . وقارنه بتلك الحياة التي اختلطت بنبات الأرض فاختلبت
بنضرتها القلب ثم ما لبثت أن أصبحت هشيما تذروه الرياح .

وبعد أن بين سبحانه الحكمة من ذلك وهي اختبار الخلق أيهم

(١) سورة الكهف آية ٣ .

(٢) سورة الكهف آية ٧ .

أحسن عملاً يعرض لنا قصة من روائع قصص القرآن لمن أعرض عن الدنيا وزينتها وأقبل على الرحمن فاراً بدينه مثبتاً لنفسه على الإيمان فأواه الله / وهياً له من أمره رشداً وربط على قلبه فثبته غاية الثبوت .

ومن لطائف هذه القصة وأسرار مناسبتها للتمثيل الذي نحن بصدد أن الحياة الدنيا في حس الموت من قصيرة جداً تأمل قولهم بعد أن بعثوا من تلك الرقدة الطويلة التي تشبه الموت فقالوا :

(١) لَيْسَ أَيُّومًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ

وما وراءه من الإحساس بقصر الحياة الدنيا ، وهو المعنى الذي جاء المثل لتقريره وتوكيده وما وراءه من ^{تأكيد} البعث الذي ينكره الغافلون لافتخارهم بهذا الإرتفاق المجال وتعاليمهم على فقراء المسلمين .

فأمر عليه الصلاة والسلام أن يصبر نفسه مع هؤلاء الذين تتعالى عليهم قريش ، ونبيه إلى أنهم هم الذين يجب أن يباهي صناديد قريش بمجالستهم لأنهم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي إن دعت قريش مفاخرها وآباءها وأموالها .

ثم بين عز وجل كيف أعد لهم من العقوبة ما يجانس عملهم فمن أحاطت به مفاخره وطوقته أنسابه وأمواله وحالت بينه وبين الإيمان بالله ورسله أحاطت به جهنم بسرادقها ، وأغيثوا بما كالهمل يشوى الوجوه

المتكبرة التي أنفت الإسلام ورفضته لأنه يساوى بينهم وبين هؤلاء
الضعفاء الذين تعاف أنفسهم مجالستهم لأنهم لا زينة لهم من بزة
وست . (١)

ثم بين سبحانه / أن هؤلاء الذين لم يعطوا في الدنيا حظاً، هولهم خالص
يوم القيامة على أبيهم سميت وأكمل بزة :

أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ
أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ
مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۝

وقارن بين هذا الارتفاق العاجل الذي فاخر به القوم وبين
ذلك الارتفاق الآجل الذي أعد لمن آمن وعمل صالحاً .

ثم لما بلغ بهم الحال إلى هذا المآل فأبطرتهم النعمة وطلبوا
طرد فقراء المسلمين ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضرب لهم مثلاً
لرجلين أحدهما للمؤمن الذي يعمل بطاعة الله والآخر الكافر الذي أبطرت
النعمة وعاقبة كل منهما .

ومخالبة رسول الله صلى الله عليه وسلم تشيع في أجواء السورة
الكريمة لأنها نزلت تسلياً لهذا الحبيب البائع نفسه على آثارهم حزناً
على ألا يؤمنوا فحسن إسناد ضرب الأمثال إليه .

(١) انظر التحرير والتنوير ١٥ / ٣٠٥ .

(٢) الكهف آية ٣١ .

من أسرار اللغة والنظم :

قال تعالى :

* وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلًا لِّرَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ
وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ۝ كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْهُمَا
وَلَمْ تَظْلِمْنَهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ۝ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ
لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ ثَمَرًا ۝ وَأَعْرَضُنَا ۝ ①

تأمل هذا التصوير الرائع البديع الذى يصور به القرآن منظر
هاتين الجنتين المشرتين بأنواع الكرم، المحفوفتين بأشجار النخيل فكان
ضعف تلك وطراوتها أحيط بقوة/ ومكانتها ^{هذه} ليحفظها من العاهات والآفات
ف ءَانَتْ أَكْهُمَا وَلَمْ تَظْلِمْنَهُ شَيْئًا ② (٢) غاية الوفاء ومنتهى العطاء
والسخاء والجودة والطيب .

ثم تأمل صفاءها حين لا تتوزعها المشا رب بل يمدّها ويسقيها
نهر عظيم واحد ، وقارن هذه النعمة التى ينطق حالها يشكر المنعم
بصاحبها الذى بلغ به العجب والفخر والتطاؤل غايته ومنتهاه فما كان
منه إلا أن يجادل صاحبه الموء من الذى يذكره بالله بقوله :

(١) الكهف آية ٣٤ .

(٢) الكهف آية ٣٤ .

أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَا لَا وَأَعَزُّ نَفَرًا ① وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ②

تأمل ظلمه لنفسه حين أشرك بالله وكذب بالبعث وبطر بالنعمة فكانه عرضها للهلاك (٢) فلم يحط ضعفها بسياج قوى من إيمان بالله وعمل صالح دائم كما أحيطت جنتاه بذلك وأمدت بما يديم حياتها ونضرتها، وأخذ العبرة والعظة من هذه الطبيعة والكون من حولنا أمر يحث عليه الشارع الحكيم . فانظر إلى ضعف نفسه وقد توزعت له الأهواء، وخالفه الكبر والعجب والشرك بالله ثم تأمل كيف يتضاعف غروره ويتكاثف عجبُه فيقول :

كَمَا أَظُنُّ أَنَّ نَبِيَّكَ هَذِهِ أَوَّلًا ③

وهكذا تمتد جذور الأمل في الحياة ويشد الحرص عليهم — وتعمم الفتنة بها فلا يتجاوز نظره إلى ما وراءها ، فيقول :

وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً

ثم يستخفه العجب والغرور فيقول لصاحبه :

وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأُحَدِّثَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ④

(١) الكهف آية ٣٤ .

(٢) انظر روح المعاني ١٥ / ٢٧٥ .

(٣) الكهف آية ٣٥ .

(٤) الكهف آية ٣٦ .

فينكر عليه صاحبه كفره وجحوده لنعم ربه ويقول له مقرعاً

وموخاً :

أَسْكَفَرْتُ بِاللَّيْلِ خَلْقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّيْتُكَ رَجُلًا ①

تأمل كيف يذكره بالنظر والتأمل في أصل نشأته وخلقتـــــــــــــــــه

إذ كيف يعجب بنفسه ويتعالى وهو من تراب .

* ثم من نطفة * أى من ماء مهين ، وفيه إشارة الى ضعف

نشأته وهوانه فكيف يسند قوته الى ما خوله الله من نعمة المال والولد

ويغفل عن الواهب المنعم القادر على سلبها ومحققها .

* ثم سواك رجلاً * فأى جحود أعجب من مخلوق سوى ينكر

خالقه ، ورجولته تزدرى عقلها وكرامتها حين تنكر البعث وتشرك بالله .

ثم تأمل كيف يحمله على الإقرار بمعجزه وضعفه والاعتراف بأن هذه

النعم من خالقه الذى لا قوة إلا به إن شاء أبقاها أو شاء أفناها . (٢)

وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ③

(١) الكهف آية ٣٧ .

(٢) انظر روح المعاني ٥ / ٢٧٩ .

(٣) الكهف آية ٣٩ .

ثم يخبره بغراسة الموءن الصادق الذى ينظر في العواقب بما
ستؤول إليه جنته إن هو ظل على معصيته لربه :

○ فَتَسْتَأْذِنُ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ
فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ○ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُوَاطِبًا ○^(١)

أى لا تأمن أن تأتيها آفة من فوقها أو من تحتها .

ثم تأمل كيف أحاطت بشره عاقبة كفره :

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ
خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْسَ لِي لِأَشْرِكُ رَبِّي أَحَدًا ○^(٢)

« والإحاطة ألاخذ من كل جانب، مأخوذة من إحاطة العدو بالقوم إذا غزاهم »^(٣)

والتَّوَرُّ: المال الكثير المختلف من النقدين والألأنعام والجنات
والمزارع . وهو مأخوذ من تَوَرَّ ماله ، يقال تَوَرَّ اللَّهُ مَالَهُ إِذَا كَثُرَ قَال
النايغة :

فَلَمَّا رَأَى أَنَّ تَوَرَّ اللَّهُ مَالَهُ

وَأَثَلَ مَوْجُودًا وَسَدَّ مَفَاقِرَهُ ○^(٤)

(١) الكهف آية ٤٠ .

(٢) الكهف آية ٤٢ .

(٣) التحرير والتنوير ٣٢٦ / ١٥ .

(٤) المصدر السابق ٣١٨ / ١٥ .

وهذه الفاء في قوله : فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفِّهِ
إذا وقع الأمر بفتة . (١)

* هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا *

تأمل كيف أتت هذه الجملة تذيلاً للجعل التي قبلها ، فالكافر
لما علم أن الله لم تغن عنه شيئاً أدرك أن الولاية لله فقال :

أَيُّ لَيْسَنِي لِمَ أَشْرَكَ بِرَبِّي أَحَدًا

وهكذا نرى أن أعظم حائل بين المشركين والنظر في أدلة التوحيد
كان انهماكهم في الإقبال على الحياة الدنيا الزائلة وافتخارهم بهذا الارتفاق
العاجل ، واعتقادهم أن الحياة هي حياتهم الدنيا ، فأمر عليه الصلاة والسلام
أن يضرب لهم مثلاً آخر لهذه الحياة الدنيا التي غرتهم بهجتها بعد أن
ضرب لهم مثلاً بين فيه لهم أن ما يفتخرون به على فقراء المسلمين ليس أهلاً
لأن يفتخروا به لأنه إلى زوال . (٢)

قال تعالى :

وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا

فَذُرُّهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنَدًا ﴿٥٧﴾

(١) انظر روح المعاني ٢٨٣/١٥ .

(٢) انظر نظم الدرر ١٢/٦٥ .

(٣) الكهف آية ٤٥ .

في ظل هذا الإحساس البالغ الأسى والحسرة الذي تتأجج
في صدر هذا المشرك وهو (يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على
عرشها) ينقله الحق نقطة أرحب يرى فيها حياته الدنيا ماثلة أمام عينه
ما ينزل من السماء فيختلط به نبات الأرض فيصبح هشيما تذروه الرياح
ويوقفه على أن الحسرة العظمى هي في خسران لحياته كلها :

يَخْسِرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ①

ثم تأمل كيف ناسب أن يبدأ المثل بقوله : " واضرب لهم "
لأنه يتناسب مع قوله تعالى :

* وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ ②

وكأنها إيقاعات تشدد وتقوى وتتوالى لتنبه النفس الغافلة
لتقف على فقه هذه الأمثال الفريفة الصفة العجيبة الشأن وتأخذ العظة
الوجدانية من هذه الطبيعة حولها .

والمعنى : " اذكر لهم ما يشبهها في زهرتها ونضارتها وسرعة
زوالها لئلا يفترخوا بها ولا يضربوا عن الآخرة صفحا " . (٣)

-
- (١) الحج آية ١١ .
(٢) الكهف آية ٣٢ .
(٣) روح المعاني ٥ / ٢٨٥ .

وفي تقديم الضمير "واضرب لهم" مزيد عناية واهتمام بضرب المثل
لهؤلاء الغافلين وكأنهم لشدة غفلتهم ضمير غائب ، وغيبة الضمير
توحي بفقدان الحس ، وفيه تحقير لهم وإزدراء لشأنهم لعدم تشريفهم
بالخطاب ، وإذا ما عدت إلى الضمير وجدته يتناسق مع ضمائر الجمع
في سياق الآيات كقوله تعالى : " وحشرناهم - وعرضوا (٠٠٠) .

والمراد بمثل الحياة الدنيا أى الحياة القريبة الحاضرة ، كنى عن
الحضور بالقرب . (١)

فهى قريبة فى حسهم وتصورهم بمتعتها ولذاتها ، ولكن حقيقة
أمرها وسرعة انقضائها بعيد عن إدراكهم لذلك مثلت لهم فى هذه
الصورة الحسية حتى تدرك كنهها العقول الغافلة والقلوب الشاردة التسي
لا تقوى على إدراك غير المحس ولا توءم إلا بالحاضر :

كَمَا أَرْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ

فاختلط به نبات الأرض : لكثرة وتكاثفه ووفرتة التف بعضه
ببعض فهو فى غاية الخصب والنضارة والازدهار ، أو المراد أن الماء دخل
فى النبات حتى روى واهتز ورف . (٢)

فهو فى غاية النضرة والبهجة .

(١) انظر التحرير والتنوير ١٥ / ٣٣١ .

(٢) المصدر السابق ٨٥ / ٣٣١ روح المعاني ٥ / ٢٨٥ .

وقارن هذه الحال بحال ذلك صاحب الذى بلغ أوج الكمال والقوة مع وفرة نعمه وكثرتها واعتزازه وافتخاره بنفسه وشمه .

فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ

"(١) (والهشم : كسر الشيء الرخو كالنبات) ."

وهو اسم على وزن فعيل بمعنى مفعول أى مهشوما محطما ،
فالهشم : الكسر والتفتيت . (٢)

(٣) (والهشيم : ما تهشم وتحطم الواحد هشيه) .

وفي صيغة هشيم مبالغة تفيد شدة تهشمه ولوغه غاية التفتت والتلاشي .

والمعنى : " أى فأصبح ذلك النبات الملتف أثربهجتـــــــــه
ونضارته هشيا تذروه الرياح " . (٤)

وقوله : تذروه " الرياح " أى تشيره وتفرقه في الهواء وتذهب به .
وهذه الجملة تأكيد لعدم بقاءه وتنصيص على زواله كأنه لم يكن

(١) المفردات للراغب . مادة (هشم) .

(٢) انظر التحرير والتنوير ٥ / ١ / ٣٣١ .

(٣) روح المعاني ٥ / ٢٨٦ .

(٤) المصدر السابق .

لأن (نرو) لها أصلان أحدهما الشّيء يُشْرِفُ على الشّيء ويظله والآخر الشّيء يَتَساقَطُ متفرّقاً . (١)

وقارن هذه بتلك الجنتين اللتين أظلت صاحبها ثم تساقطت عنه وهوت على عسرونها وكذلك هي حياته الدنيا وما يسودها من مفاخرة تتساقط عنه فتصبح هشيما تذروه الرياح .

فإذا قوته التي فاخر بها وكاثر وتباهى وتعالى توّول إلى منتهى الضعف والذلة والهوان ، يقول الزمخشري * شبه حال الدنيا في نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والفناء بحال النبات يكون أخضر وارفاً ثم يهيج فتطيره الرياح كأن لم يكن . (٢)

وهي (رياح) وليست ريحا تلك التي تذهب بحياته الدنيا وتفرقها وتذروها كأن لم تكن فهو جزاء يجانس عظه حين توزعت له الهواء والمطامع والشهوات من العجب والغرور والافتخار بكثرة ماله ونفقه وشره ثم الجحود لنعم الله والشرك به وإنكار البعث والتهكم والسخرية بمن يذكره ويدعوه وهكذا ..

وقارن بين قوله :

فَأَصْبَحَ يَمْلِكُ كَمَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا

وقوله : فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ

(١) المقياس مادة (نرو) .

(٢) الكشاف ٢ / ٤٨٦ .

وأصبح بمعنى صار ولكنها تفيض من إحياءتها وظلالها إذ توحى
بانبلاج وظهور صبح الحقيقة الثابتة التي غفلوا عنها تحت وطأة الشهوات
وظلمة الشرك والعجب فكان خواءهما على عروشها أذهب ليل غلظتهم
فأصبح الحق جلياً لكل من تتأتى منه الروءية .

كما أن تهشم النبات وتفتته أى زوال الحياة الدنيا وسرعة
تقضيها جلّى حقيقتها وأنها مهما بلغت من النضرة والبهجة فهي إلى
زوال فجديرٌ بمن هذه طبيعتها الزهدُ فيها والرغبةُ عنها وألا يفتخر بها
عاقل فضلاً عن أن يكثر بها غيره .

ثم أنك إذا استقصيت التأمل وراجعت المثل وجدت أن المثل
يحكى قصة مضت وانتهت ويتحدث عن حياة كانت خضراء وارفة ثم أصبحت
هشياً واهياً ولكن هذا الالتفات من الماضي الذى عليه نسق الآيات
إلى المضارع في قوله " تذروه الرياح " فيه حياة لا زالت تنبض بالحركة
ترى فيه الرياح في عمل دؤوب وسعى حثيث متجدد تذروا الهشيم
وتظل هذه الصورة ماثلة أمام أعيننا حتى تتم العظة وتحصل العبرة .
فله هذه الطبيعة التي يمثل الله بها ما لا تدركه الحاسة
ولا يقف عليه بصر .

* وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا *

(١) (المقتدر : قوى القدرة كلها) .

وجملة التذييل هذه موقعها التذكير بقدرة الله تعالى على خلق الأشياء وأعدادها وجعل أوائلها مفضية إلى أواخرها وترتيب أسباب الفناء على أسباب البقاء وذلك اقتدار عجيب . (٢)

كما أن قوله (مقتدرا) جاء متناسبا مع الحياة الدنيا التي تطويعها يد القدرة في لحظة تسوطة لأحداث القياسة الرهيبة بعد ذلك ولذا جاء باطلاق آخره ومتعلقه . (٣)

ثم نعود للآيات الكريمة ننظر في طريقة صياغتها ونظمها لنرى كيف أتى التمثيل ليخرج الأمر المعقول في صورة المحسوس .

والمشبه : هو حالة هذه الحياة الدنيا في إقبالها ومهجتها ونعيمها وسواء أكان المراد الحياة الدنيا كلها أم حياة الأفراد أم المراد بها حياة الثمرات من المال والولد أي زينتها ، ثم توليها وزوال ذلك كله أو زوال نفع هذه الثمرات وانعدام التمتع بها .

(١) التحرير والتنوير ١٥ / ٣٣١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) من الإعجاز البلاغي في القرآن / د . صباح دراز ص ٦٧ .

والمشبه به : حال النبات المنبت بالماء يكون أخضرا وارفا ثم
يصير يابسا تطيره الرياح كأن لم يكن .

وقد بُنيت الآية على هذا الإيجاز البديع والترتيب والتعاقب
السريع الموحى بقصر الحياة الدنيا وما يقتضيه قِصرها من قصر مدة
التمتع بها وأنها وشيكة الارتحال سريعة الزوال . وتعاقب الفاء في الآية :

فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ۖ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ

لم يدع للزمن فترة يتراخى فيها ويخلد إلى الأرض كما في سورة يونس
بل ربطت الكلام ببعضه ببعض ورتبت ثانيه على أوله وثالثه على ثانيه
بهذا التعاقب السريع المبني على الإيجاز .

يقول صاحب روح المعاني : " وعبر بالفاء في الآية للاشعار
بسرعة زواله وصيرورته بتلك الصفة فليست فصيحة " . (١)

بمعنى أننا لو قدرنا المحذوف فقلنا : (فزها ومكت فأصبح) لكننا
قد أغفلنا هذا الجانب العظيم المراد من نظم الآية وهو سرعة زوالها
كأنها لم تلبث ولم تمكث فتزهو .

كما أن في عدم ذكره وتقديره تأكيد بأنه لم يكن ، ورحم الله الإمام
عبد القاهر حين قال : " وتجديك أنطق ما تكون إذا لم تنطق " . (٢)
وقارن بين سرعة الفناء وطول أمل البقاء .

(١) روح المعاني ٥/٢٨٦ .

(٢) الدلائل ص ١٤٦ - تحقيق محمود محمد شاكر .

(٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى :

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ
وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ
أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ
حُطَلًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ
وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١﴾

من أسرار المناسبة :

من المقاصد الأساسية لسورة الحديد تحقيق إيمان المؤمنين وتزكيتهم في القلب وما ينبثق عن ذلك من تضرع وأخبات وخشوع لله الذي يسبح له ما في السموات والأرض والذي وصف نفسه سبحانه بصفات الجلال والكمال والبقاء مع بداية هذه السورة الكريمة مما يحمل القلب على التضحية بالنفس والنفيس لإعزاز دين الله الذي له ميراث السموات والأرض .

﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ
فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ①

ثم تأمل التوبيخ والتعجيب من أمر التقاعس عن تلبية نداء ربهم وعن تصديق إيمانهم والعلة وراء ذلك .

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ
يَدْعُوكُمْ لِنُؤْمِنُوا بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ②

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ③

(١) سورة الحديد آية ٧ .

(٢) سورة الحديد آية ٨ .

(٣) سورة الحديد آية ١٠ .

ثم نوه سبحانه بفضل أولئك السابقين الى مرضاة ربهم :

لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ ①

وبين ما أعد لهم من خير عظيم وما أعد ضد ذلك للمتقاعسين
الفاقلين أو المنافقين وبين لهم سبب ارتكاسهم وحرمانهم من الأجر
العظيم :

وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ
وَعَرَّيْتُمْ الْأَمْوَالَ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَرَّيْتُمْ بِاللَّهِ الْعُرُورَ ②

ثم يحذر عز وجل عباده المؤمنين من بلوغ هذه الحالة والوقوع
في سهوة قساوة القلوب التي وقع فيها أهل الكتاب من قبلهم وبعاتبتهم
عتابا بالغا تخبت له القلوب المؤمنين :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ
وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ
عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ③

ثم يطمعهم عز وجل في عونه ورحمته وقدرته على إحياء قلوبهم
بذكره كما يحيى الأرض الميتة بوابل السماء .

(١) الحديد / ١٠ .

(٢) الحديد / ١٤ .

(٣) الحديد / ١٦ .

وبيّن لهم أن من أسباب خصوبتها وإخباتها أن يصدقوا فسي
سبيل الله ففي ذلك تحقيق لإيمانهم وتزكية لقلوبهم وأن هو* لا* الذين
حققوا إيمانهم وصدقوه :

أُولَئِكَ هُمُ الصّٰدِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ①

ولما كانت العوائق التي تحول بين العبد والإنفاق في سبيل
الله هو الشح والحرص على استبقاء المال لانفاقه في لذائذ الحياة
ومتعها من لهو ولعب وتفاخر وتكاثر مثلت لهم الدنيا من هذا الجانب
الذي يحرصون عليه ويتنافسون فيه .

وصدرت بما يوجب غاية اليقظة والحضور. (٢)

يقول الزمخشري : " وشبه حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلّة
جدواها بنبات أنبته الغيث فاستوى واكتهل وأعجب به الكفار الجاحدون
لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات فبعث عليه المعامة فهـاج
واصفراً وصار خطاماً عقوبة لهم على جحودهم " . (٣)

(١) سورة الحديد / ١٩ .

(٢) انظر نظم الدرر ١٢ / ٦٨ ، التحرير والتنوير ١٥ / ٣٣٨ .

(٣) الكشاف / ٤ / ٦٠ .

ويقول صاحب التحرير والتنوير : " أعقب التحريض على الصدقات والإنفاق بالإشارة إلى دحض سبب الشح وأنه الحرص على استبقاء المال لإنفاقه في لذائذ الحياة الدنيا فضرب لهم مثل الحياة الدنيا بحال محقرة على أنها زائلة تحقيرا لها وتزهيدا فيها لأن التعلق بها يعوق عن الفلاح كل ذلك في سياق الحث على الإنفاق الواجب وغيره وأشار إلى أنه ينبغي أن تتخذ الحياة وسيلة للنعيم الدائم في الآخرة ووقاية من العذاب الشديد وما عدا ذلك فهو متاع قليل " (١)

(١) التحرير والتنوير ٢٧/٤٠٠

من أسرار اللغة والنظم :

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ
زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ①

"اعلموا" : افتتح الكلام بـ "اعلموا" ليشير إلى أن الكلام الذى

بعده له مغزى عظيم يجب التفات الذهن بلكيته إليه . (٢)

والخطاب فى (اعلموا) للمؤمنين / على طريقة الالتفات
الغافلين
اقبالاً عليهم للاهتمام . (٣)

تأمل كيف أن القصر انصبَّ على مافي الحياة الدنيا من اللعب
واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر إذا حال بين العبد وطاعة ربه ،
فمتع الحياة أوحياة المتعة فانية كهذا الزرع الذى هذا مثله فما أحراهم
أن يغنوا ما هوفان فى الإعداد للآخرة التى آمنوا بها والسابقة إلى
جنة عرضها السموات والأرض .

وهذا القصر الإضافى فى "إنما" لتنزيل المنكرين منزلة غير
المنكرين لأن لديهم من البراهين والأدلة ما لو فطنوا إليها لرأوها على
وجهها الذى وصفها بها القرآن من أنها لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر .

(١) سورة الحديد / ٢٠ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ٢٧ / ٣٩٣ .

(٣) المرجع السابق ٢٧ / ٣٩٤ .

كما أن فيه تعريضا بهم لغفلتهم عن هذه الحقيقة وتحذيرا لهم
من أن يكونوا كالمنافقين الذين فتنوا أنفسهم وتربصوا وغرّبهم الأُماني وغرهم
بالله الغرور ، أو كأهل الكتاب الذين طال عليهم الأُمَد فقست قلوبهم
وكثير منهم فاسقون ، أو الكفار الذين كفروا وكذبوا بآيات الله وأولئك
أصحاب الجحيم .

ووراء وصف الحياة الدنيا باللعب بسهولة انخداع النفس بها
وسرعة استجابتها لما هو في طبعها وفطرثها من حب اللعب الذي فيه
من الأُنس والمسرة والحلاوة للنفس ما فيه وما هو إلا وهم وسراب لا يلبث
أن ينجلي عن إضاءة للآوقات والأزمان التي هي رأس مال الإنسان . ثم
إن الإفراط فيه من غير أصحاب طوره يؤذّن بخسة العقل . (١)

فضلا عما في تنكير (لعب) ما يوحي بأنه لعب عظيم بالسُخ
(٢)
يكثُر ويغلب على أحوال الناس في الدنيا ويستغرق جزءا عظيما من حياتهم .
وقد ورد وصف الحياة الدنيا بأنها لعب ولهو في أكثر من موضع في القرآن
الكريم ، قال تعالى :

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ
وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٧ / ٤٠١ .

(٢) المصدر السابق ٢٧ / ٤٠٢ .

(٣) سورة الأنعام آية ٣٢ .

وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١)

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌّ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ

أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلَكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٢)

وقدم اللعِب على اللهو في الأكثر * لأن اللعب زمانه الصبا

واللهو زمانه الشباب وزمان الصبا مقدم على زمان الشباب * (٣)

بينما قدم اللهو على اللعب في سورة العنكبوت * لأن المراد

زمان الدنيا وأنه سريع الانقضاء قليل البقاء * وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ *

أى الحياة التي لا أمد لها ولا نهاية لا بد لها بدأ بذكر اللهو لأنه

في زمان الشباب وهو أكثر من زمان اللعب . (٤) وَاللَّهُوُّ : " مَا يَشْغُلُ الْإِنْسَانَ عَمَّا يَعْينُهُ وَبِهِمْ يَقَالُ

لَهَوْتُ بِكَذَا وَلَسَهَيْتُ عَنْ كَذَا اسْتَفَلْتُ عَنْهُ بَلَهَوُ .

... وَيَعْبُرُ عَنْ كُلِّ مَا بِهِ اسْتِمْتَاعٌ بِاللَّهُوِّ ...

وَمَنْ أَرَادَ بِاللَّهُوِّ الْمَرَاةَ وَالْوَلَدَ فَتَخَصَّصَ لِبَعْضِ مَا هُوَ مِنْ زِينَةِ

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الَّتِي جُعِلَ لَهَا وَلَعِبًا : (٥)

(١) سورة العنكبوت آية ٦٤ .

(٢) سورة محمد آية ٣٦ .

(٣) اسرار التكرار في القرآن للكرمانى ، ص ٦٨ .

(٤) المصدر السابق .

وانظر : صفاء الكلمة ص ٢٢٠ ضمن سلسلة من أسرار التعبير في القرآن ، د/عبد الفتاح لاشين

(٥) الراغب ، مادة (لهي) .

وهكذا تتكاثر المعاني وتفيض وتغزر .

ترى هذا وتدركه في تكشيف الحياة الدنيا من تلبيسها وإغرائها
وخداعها للنفس على مراحل زمنية تستغرق عمر الإنسان فكلما امتد به
العمر مرحلة قوى تعلقه بها واستغراقه فيها فهي تبدأ باللعب فترة
الطفولة لتغرى النفس ببراءة مقصدها ثم لا تلبث أن تستميل القلب فترة
الشباب والطاقة والنشاط فتطيه عن غايته العظمى وهدفه الأسنى عما
يُهمُّه ويعنيه من طاعة ربه والإقبال على آخرته فإذا لهن القلب أصبح
مصيداً للشيطان فزين له سوء عمله .

تأمل كيف وصف الحياة الدنيا بأنها زينة بعد هاتين المرحلتين
وقد تهيأت فيها النفس لاستقبال هذا التمويه والخداع والتزيين فإذا بها
ترى القبيح الفاسد والزائل الفاني جميلاً باقياً (١) فتحرص على عمارته
وتتفق في سبيل ذلك العمر والمال بدلا من إنفاقهما فيما هو خير
وأبقى .

ثم تأمل كيف أتت كل من كلمة (لهو وزينة) نكرة لتوحى
بأنه لهو عظيم يشغل الناس ويشغلوا به ، وزينة طاغية تأسر القلب أسرا
بينما هي في الحقيقة زينة حقيرة باطلة لا يحصل من ورائها شرف ذاتي .

(١) انظر تفسير الفخر الرازي ١٥ / ٢٣٤ .

فإذا ما غلبت هذه الأمور على النفس وضربت بجذورها في

تربة القلب آتت أكلها وكان من ثمارها التفاخر والتكاثر .

أرأيت كيف تتولد المعاني بعضها من بعض ، وكأن الحياة

الدنيا شجرة انبثقت داخل نفسه فازينت فبلغ به العجب غايته أن يفاخر

ويكثر بزينتها من الأموال والأولاد وقارن هذا بأولئك الذين

يفخرون بالأضغاف المضاعفة عندهم .

وهكذا تتأكد المعاني وتتراقى الصفات وتقوى وتشتد .

فاللهو فيه معنى اللعب وزيادة الزينة فيها معنى اللهو

وزيادة التكاثر والتفاخر نتيجة وشرة لإنبهار النفس بهذه الزينة وكأن التكاثر

امتداد لنفسه التي يفاخر بحسبها ونسبها . * وتفاخر بينكم * الفاء

والخاء والراء أصلٌ صحيحٌ يدل على عَظُمٍ وقَدَمٍ . من ذلك الفخر . ويقولون

عن الفَخْر هو عَدُّ القديم . والتفَخُّرُ التعَظُّمُ ونخلة فُخُورٌ عظيمة الجِذْعِ

غليظة السَّعَفِ . . (١)

وهكذا يأتي الفخر بعد طول أمد لأنه عد القديم الذي

زين له ، وراء طول الأمد قسوة القلب وغلظة نفس تحول بين العبد

وامتثاله أمر به ، وقارنه بأولئك المخبئة قلوبهم من المصدقين والمصدقات .

وتأمل ما وراء صيغة (تفاخر وتكاثر) على وزن تفاعل من بلوغه غاية الانفعال والهيجان لأن هذه الصيغة تزيد من حدة التكاثف والتفاخر وطغيانهما وتوحى بهذا التنافس والتباهي والعجب الذي غلب نفوس أهل الهوى .

ثم هو لا يتجاوز هذه البينونة **وَتَفَاخُرُ بَيْنِكُمْ** أى هذه المسافة الضيقة بينكم من الأنساب البالية والمتع الفانية ، وقارن هذا بما يتسابق إليه المؤمنون * مغفرة من ربهم وجنة عرضها السموات والأرض فالتفاخر والتسابق هناك له ذلك البعد وتلك الرحابة التي تسع السموات والأرض أى الكون كله .

ثم تأمل كيف بدأ التكاثف بالأموال والأولاد أى بالعسَدَر والعُدَد وما وراء ذلك من توزع نفسه واستغراق قلبه بما هو زائل مائل .

وقارن هذا التكاثف بما هو فان بالاضعاف الباقية

وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفُ لَهُمُ أَوَّلَ أَجْرِهِمْ ①

ولما كانت هذه الأمور ^{قد} شغلت الناس عن الدار الآخرة وألهت القلوب عن الطاعة والإخبات لربها وجعلتهم يقصرون همهم على متعتها

بدلاً من اتخاذها وسيلة لتعيم الآخرة.

ولما كان الإعجاب بها قد بلغ بالنفوس غاية العجب مثلت لهم هذه الحقيقة في هذا التمثيل البارز الذي يصور أطوار الحياة الدنيا وما فيها من شباب وكهولة وهرم وفناء ومن إقبال الأمور في زمن إقبالها ثم إدبارها بعد ذلك ، بأطوار الزرع وكلها أعراض زائلة وآخرها فناء . (١)

قال تعالى :
كَمَثَلِ غَيْثٍ
أَخْبَجَ الْمَوْصِلَ إِذْ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حَطَبًا
وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ

فالمشبه : هنا أحوال أهل الدنيا الغالبة عليهم الصارفة لهم عن طاعة ربهم ، والمشبه به : نبات الغيث الذي بلغ غاية النضج والخصوبة والجمال فلم يلبث أن اصفر ثم أصبح حطاباً .
تأمل كيف بدأ التمثيل (بغيث) وما وراء ذلك من العناية والاهتمام .

والغيث : هو الذي يأتي بعد قنوط الناس " وهو الحيا .
النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءِ " . (٢)

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٧ / ٤٠٣ .

(٢) المقاييس مادة (غَيْث) .

وفي تنكيره ما يوحى بأنه غيث متفرد في جوده وعظم نفعه—
لذلك صدر به المثل حفاوة به واعظاما لشأنه .

ثم تأمل تركيب هذه الجملة القرآنية على هذا النمط البديع
الذى يكاد ينطق بما يختلج في صدورهم ويعتصر في نفوسهم من
نشوة الإعجاب .

وذروة الافتتان بهذا النبات الذى بلغ العجب به أن غلغلا
عن مصدره فأوغلوا في البعد .

وأداروا ظهورهم للغيث وأقبلوا على نباته مفتتين معجبين
فشغلوا بالمعمول عن العامل وبالنبات عن المنبت وقارن هذا بأولئك
الذين فتحت لهم الدنيا بعد جذب وشقاء وأوتوا من زهرتها ما آنس
نفوسهم وشغل قلوبهم فافتتنوا بها وغلغلا عن واهب هذه النعم فلم
يؤدوا حق شكرها .

أوبأولئك الكافرين الذين إذا رأوا معجبا لم يتخط فكرهم
عما أحسوا به فيستغرقوا إعجابا .

وأعجب : " أمرٌ عجيب إذا استكبر واستعظم . وقد أُعجبتُ به وشيءٌ
مُعجِبٌ إذا كان حسناً جداً " (١)

(١) المقاييس مادة (عجب) .

والكفار : " في اللغة من الكُفِرَ وهو ستر الشيء ، ووصف الليل
بالكافر لستره الأشخاص ، والزراع لستره البذر في الأرض ، وكُفِرَ
النعمـة وكُفِرَ أنها سترها بترك أدائها شكرها . (*)

ثم تأمل كيف تتضافر عناصر التمثيل لتؤكد وتقوى معنى الإعجاب
وشدته وأخذ بمجامع القلوب .

وذلك لأن تخصيص الكفار بالذكر هنا " لا نهم أهل البصر
بالنبات فلا يعجبهم إلا المعجب حقيقة " . (١)

(٢) " فإذا أعجب الزراع نيته مع علمهم به فهو في غاية الحسن " .
(٣) ولكن في إشار كلمة (كفار) بدلا من (زراع) كما في سورة الفتح
(يعجب الزراع) إيحاء بأن علمهم لم يتجاوز ستر هذا البذر في الأرض
وأن المنبت الحقيقي والزراع الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى .

ثم لاحظ كيف بُنيت عناصر التمثيل على المبالغة لتؤكد
معنى الإعجاب وشدة الففلة فهم كفار على صيغة المبالغة لتوحي بكثرة

(*) الراغب مادة (كفر) .

(١) البحر المحيط ٢٢٤ / ٨ .

(٢) الفخر الرازي . ٢٣٥ / ١٥ .

(٣) آية ٢٩ من سورة الفتح .

الأُغْطِية والأسْدال التي حُجبت عنهم نور الفِطْرة والإيمان من اللّهُ
واللّعب والزينة والتفاخر والتكاثر تعظيماً لأمر الدنيا وإعجاباً بحاسنها
وحطام بنائها .

والنبات : ما نبت من ذلك الفَيْث وحصل به ونشأ عنه وهو اسم
مصدر من (نبت) وهو هنا أُطلق على النبات من إطلاق المصدر على الفاعل
للمبالغة . (١)

وفي إضافة النبات للفَيْث لتأكيد تفرده عن النبات بخصوصيته
وبهائه ونضارته وروائه فهو غاية الحسن .

كما أن في ذلك إيحاءً بأنه نبات ذلك الفَيْث وليس ما عملت
أيديهم وقارنه بتلك النعم من الأ* موال والأ* ولاد وأنها ما وهبهم
اللّهُ ليبتليهم فيها وليست مما كسبت أيديهم . * ثم يهيج فتراه مصفراً
ثم يكون حطاماً * .

يهيج : " يَقَالُ هَاجَ الْبَقْلُ يَهِيحُ إِصْفَرُ وَطَابَ " . (٢)

" يَهِيحُ يَتَحَرَّكُ إِلَى أَقْصَى مَا يَتَأْتِي لَهُ " . (٣)

(١) التحرير والتنوير ٢٧/٤٠٦ .

(٢) الراغب مادة (هاج) .

(٣) حاشية الشهاب على البيضاوي ٦/١٦٠ .

ثم تأمل رقة أهل العلم في استنباط المغزى من التشيل إذ يقولون : * واصفرار النبات أعظم دلالة على التهيؤ للزوال وهذا هو الأهم في مقام التزهيد في متاع الدنيا * . (١)

ولم يقل : (فتراه يابسا) لأن الاصفرار يقابل النضرة والجمال أي العرض الذي أعجبهم وحال بينهم وبين رؤية الجوهر .

ولم يقل (فتراه يصفر) والتي توحي بتجدد هذه الصفة وحدوثها حالا بعد حال ، وإنما أوحى بقوله مصفرا إلى قبوت ذلك ودوامه وكأنه الأصل وكأن الهيجان هو الحادث الطارئ الذي ما لبث أن زال ليترتب عليه هذه الحقيقة الثابتة اللازمة له .

هذه الحقيقة التي تجلت في قوله (مُصَفَّرًا) والتي أفرغت النبات من كل معاني الحياة والسرواء والعطاء وجعلته خاويا تصفر فيه الريح ومن كانت هذه صفته اللازمة له لم يكن قط محط إعجاب .

ثم أنك إذا ما عدت إلى معنى (رأى) في قوله تعالى :
(فتراه مصفرا) لرأيته يقتضي معنى العلم هذا ما يشير إليه الراغب في أن (رأى) إذا عدى إلى مفعولين اقتضى معنى العلم . (٢)

(١) التحرير والتنوير ٢٧/٤٠٦ .

(٢) الراغب مادة (رأى) .

تأمل هذا وكيف أن كل راءٍ تتأتى منه الرؤية يرى النبات
مصغراً ببصيرته الموءنة رؤية إثروءية .

(ثم يكون حطاماً) .

* الْحَطْمُ كَسْرُ الشَّيْءِ مِثْلُ الْهَشْمِ وَنَحْوِهِ اسْتَعْمِلَ لِكُلِّ كَسْرٍ
مَّتَنَاهُ . (١)

حطم : " هو كسر الشيء ؛ يقال للمتكسر في نفسه حطم . ويقال
للفرس إذا تهدم لطول عمره حطم . الحطم راءٌ يصيب الدابة في
قوائمها أو ضعف . والحطمة السنة الشديدة لأنها تحطم كل شيء .

والحطم السواق يعنف يحطم بعض الإبل ببعض . (٢)

ثم تأمل جملة (ثم يكون حطاماً) ولم يقل : (يجعله حطاماً)
أى كأن هذه الحطامية في جبلته وطبعه وفطرته . (٣)

ويتلاءم التحطيم هنا مع تلك الأموال المقدسة والقلوب
المستغلظة البالغة غاية الفخر والعجب والقوة والقسوة .

ولما كانوا قد بلغوا الغاية في الانهماك في الدنيا والإعراض عن
الآخرة عظم عز وجل أمور الآخرة الأبدية تنفيراً من الانهماك في الدنيا

-
- (١) الراغب مادة (حطم) .
(٢) المقاييس مادة (حطم) .
(٣) نظم الدرر ١٩ / ٢٩٠ .

وحشا على ما يوجب كرامة العقبي فقال وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ^(١)

وبهذا التذييل البديع تتأكد حقيقة هذه الدار التي غرت

وخدعت وألبست الأمور غير لباسها فأوهم النفع فيما فيه الضرر البالغ فقال

وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ .

والغُرُور : الخديعة أو إظهار الأمر الضار الذي من شأنه

أن يحترز العاقل منه في صورة النافع الذي يرغب فيه . ^(٢)

وفي الراغب : الغُرُورُ كُلُّ مَا يَغُرُّ الْإِنْسَانَ مِنْ مَالٍ وَجَاهٍ

وَشَهْوَةٍ وَشَيْطَانٍ ، وقد فسّر بالشيطان إذ هو أَخْبَثُ الْغَارِينَ ، وبالذُّنْيَا

لما قيل : الدُّنْيَا تَغُرُّ وَتَضُرُّ وَتَمُرُّ . ^(٣)

(١) حاشية الشهاب ١٦٠/٨

(٢) التحرير والتنوير ٤٠٧/٢٧

(٣) الراغب مادة (غرر)

من أسرار التنوع في التشبيهات التي تمثل الحياة الدنيا :

أول ما يلفت النظر للتأمل والتفكر هذا البناء البديع المحكم السبك المتقن المتلاحم ، الذي بنى عليه التشبيه التمثيلي في القرآن الكريم ، وقد أفرغ إفراغا واحداً ، بحيث يرى وهو على حد واحد من الاستواء والتلاحم والتحدر ، آخذاً بعضه بحجز بعض متميزاً بصورته وهيئته وسمته وملامحه عن صور التشبيه الأخرى ، وإن كان يتحسد معها في الغرض والمعنى العام لأنه قد اتضح لنا بالتحليل والمداورة ، أن كل تشبيه تمثيلي متميز يتناول جانباً من جوانب هذا المعنى العام لم يتناوله غيره .

ولما كان أهل العلم يرون أن لكل معنى في الجملة هيئة وسماً يعرفه به أهل العلم معرفة لا تلتبس .^(١)

صار بالضرورة لكل تشبيه في القرآن الكريم هيئة وصورة يتميز بها ، وهي من جهة أخرى تتلاءم وتتناسق مع السياق الذي ورد فيه ، لأن جزءاً كبيراً من بلاغة التشبيه ودقائق معانيه هي من معطيات هذا السياق .

(١) انظر الصورة في التراث البلاغي ص ١٧٩ عن مجلة اللغة العربية جامعة أم القرى السنة الثانية ٤٠٤ - ٤٠٥ هـ ، د. محمد محمد أبو موسى .

١ - وأول تلك الأسرار في هذا التنوع هذا المطلع البديع

لكل مثل من أنواع التشبيه التمثيلي ، والذي يتلأم مع طريقة النظم في السياق الذي ورد فيه .

ففي سورة يونس (عليه السلام) ورد قوله تعالى :

إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

ثم قارن طريقة النظم هذه مع طريقة النظم في التمثيل :

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ

وفي سورة الكهف قال سبحانه :

وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ

وَأَضْرَبَ لَهُم مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وفي سورة الحديد يقول سبحانه :

اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

اعْلَمُوا أَنَّ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَبَّ وَهُوَ وَزِينَةٌ وَقَفَاخْرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي

الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ

وهكذا وكأنها إيقاعات أو ضربات متواليات متناسقات تتلأم

وتتلاحم مع السياق ، فيشتد ويقوى وتتكاثر معانيه ، وتفيض وتكون مسن

الغزارة والوفرة بحيث لا يحيط بها ، ويبين عنها إلا ضرب الأمثال

وقيامها ، فترى بداية كل مثل فضلا عن أنها تتناسق مع السياق من جانب

الإيقاع الخارجي طريقة النظم فانهما أيضا تتلاءم مع المعنى الذي
سيقت له .

٢ - تدور المادة اللغوية أو عناصر التشبيه التي كونت أساليبه
حول الماء النازل من السماء أو الغيث - نبات الأرض واختلاط الماء
به - الزخرف - الزينة - أهل الأرض وافتنانهم بها - الحصيد - الهشيم
الرياح - الكفار أو الزراع - الأحوال التي طرأت على النبات من الهيجان
والاصفرار والحطام .

هذه التشبيهات وإن كانت قد اشتركت في معنى عام وهو
تشبيه حال الحياة الدنيا في نضرتها وبهجتها وافتتان الناس بها
ثم ما توول إليه من الهلاك والفناء إلا أن لكل تشبيه معرضاً ومعنى
يتلاءم مع السياق الذي ورد فيه .

ففي سورة يونس أتى التعبير بأسلوب القصر (إنما مثل
الحياة الدنيا) ليقلب معتقداً باطلاً تغفل في قلوب القوم وحملهم
على التعادى في ذلك إنكارهم للبعث فأطمانوا إلى الحياة الدنيا وغفلوا
عن الآخرة فناسب مجيء هذا الأسلوب ليحسم شبه المفكرين وليعرض
بغباوتهم وشدة غفلتهم .

فالتشيل هنا مبني على التفصيل والتحليل الذي يصف فيه
تغفل هذه الحياة الدنيا في قلوب أهلها وشدة افتتانهم بها وفيه

إشارة إلى ناحية من نواحي الإعجاز العلمي في القرآن الكريم
وهو ظهور سلطان العلم وطغيانه على الناس حتى توهموا أنهم متمكنون
من الدنيا قادرون عليها عالمون بها كل العلم.

بينما نجد التمثيل في سورة الكهف مني على الطي والايجاز،
فالمراحل التي فصلت في سورة يونس مطوية هنا ، لأن الغرض الاساسي
بيان سرعة زوال هذه الحياة الدنيا وقصر مدة التمتع بها ، وهذا يتناسب
ويتناسب مع عقيدة المشركين ، الذين يظنون إن هي إلا حياتهم الدنيا ،
والذي يمثله موقف هذا المشرك المعجب الذي بلغته شدة افتتانه
بجنته أن يقول :

مَا أَظُنُّ أَنْ يُبْعِدَ هَٰؤُلَاءِ مِنْكَ أَبَدًا ﴿١٠١﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً

تأمل طول أمله بهذه الحياة الدنيا وكيف ناسب ذلك أن يجنى التمثيل
على قصر مدة التمتع بها وسرعة زوالها ، وهي الحقيقة الثابتة التي تقابل
هذا الاعتقاد الواهم ، والتأمل لسياق الآيات في سورة الكهف يجدها
تتحدث عن افتخار المشركين بأموالهم وأولادهم على فقراء المسلمين
وضعفائهم الذين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصبر نفسه
معه .

ما يقتضي أن يتناول التمثيل أيضا سرعة زوال متعهم
وزينتها من الأموال والبنين لكونهما من أقوى أسباب التعالي على الناس
وطول الأمل وشدة الحرص .

وكان التمثيل يوحي بمعنى خاص يستقيه من السياق

بعد ذلك المعنى العام الذى يتبادر إلى الذهن عند تلاوته،

وبما يؤيد أن التمثيل لا يضيق عن هذه المعاني قوله سبحانه بعد ذلك :

الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ
ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَقْلًا ①

التنوع قوله تعالى وأحيط بثمره ② : ٣ - ومن أسرار في سورة الكهف / : بينما كانت الإحاطة بهم

في سورة يونس ، وكيف جاء نسق التمثيل متناسقا مع هذا المعنى

الذى سبق له .

يقول سبحانه :

وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ ③ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهَ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ
خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي مَا أُرْثِرُ بِرَبِّي أَحَدًا ④

وكيف يتناسب مع قوله تعالى :

فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ⑤ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْنِدًا ⑥

(١) الاية ٤٦ من سورة الكهف .

(٢) الاية ٤٢ من سورة الكهف .

لأن هذه الحالة التي بلغها صاحب الجنتين من العجب والافتتان والغفلة : حينما استوفت جنته غاية الحسن والطيب والجمال وشعوره بالقوة والاعتدار ، ثم ما آل إليه حاله من ضعف وذلة وهوان بعد أن تفرقت عنه نعمته وخوت جنته .

وَلَوْ تَكَّنْ لَهُ وُفْقَةٌ يَنْصَرُّونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا

يتناسب مع بلوغ هذا النبات غاية قوته وتكاثفه ونضارته ومهجته ، ثم ما آل إليه حاله :

فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ

فغاية القوة والاعتدار يقابلها منتهى الضعف والهوان .

بينما تجد الإحاطة بهم في سورة يونس إذ يقول سبحانه :

وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَلَمُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذَا وَنَبَايُنَا غَيْرُكَ لَيَكُونَنَّ مِنَ الْكَاذِبِينَ

إلى قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي بَغِيظٌ عَلَيْكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ
مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١)

وكيف يتناسب مع قوله تعالى :

حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّتْ وَخُلَّتْ أَمْهَا اللَّهُمَّ قَدَرُونَ
عَلَيْهَا أَنْتَ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَعَمَلُهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ الْأَمْسَ (١)

وهذا من بديع التناسق والتلاؤم في نظم القرآن الجليل إذ كيف يتناسب ويتلاءم استئصال جذور الحياة الدنيا التي تحصد وتقلع من منابتها وكأنها لم تكن بالأمس بعد أن ظن أهلها وأيقنوا أنهم قادرون عليها

مع تهديد هم بأن عاقبة بغيتهم ستعود عليهم لأن القوم بلغوا

• الغاية في الفساد

٤- ومن أسرار التناسق والتلاؤم / العناصر التي تكونت منها صورة التشبيه التمثيلي أن

للحياة الدنيا وهي الماء الذي اختلط بنبات الارض ، وما جرت عليه من احوال

وتعلقت به من مواصفات ، وما آل إليه حاله بعد ذلك هــ

بمعينها العناصر التي يمثل بها قيام البعث في القرآن الكريم ، لأنه لما

كان المخاطبون في الأمثال السابقة مشركين منكرين للبعث أو مؤمنين غافلين أو منافقين كما في سورة الحديد .
مثلاً لهم الحياة الدنيا وقد مضت وفتت ، لتوكد وتقرر الإيمان باليوم الآخر فإذا البعث الذي ينكرونه أو يغفلون عنه ماثل لهم من بين حصيد البغناء .

هـ - ومن التناسق البديع التناسب بين العاقبتين في المثلين الكريمين اللذين ينتهيان باتيان أمر الله وباعثته لهم ، فالنبات المخطط بالماء والذي يبلغ غاية قوته وكمال بهجته ووفرته لا يترك ليتابع مراحل الطبيعة نحو الفناء ، ولكنه يفاجأ ليلاً أو نهاراً بما يقتلعه ويحتاجه من آفات وعاهات فيجعله حصيداً .
أو يذهب ماؤه غوراً ، فيجف ويتهشم فتراه في أوج إقباله قد أدبر .

وكلمة (أصبح) توكد معنى الباعث والمفاجأة التي أذهلتهم بعد أن كشفت عنهم قناع الغفلة .
وهذا الذي يتناسب مع الطاغين المفسدين في الأرض المنكرين للبعث ومع المفتخرين بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين .

بينما يتابع النبات في سورة الحديد أطواره ومراحله الطبيعية
فعنصر العقوبة غير موجود ، لأن المخاطبين هنا أولئك الذين فتحت لهم
الدنيا بعد الفتح وأوتوا من زهرتها ما آانس نفوسهم واختلجها ، وقد
يكون بعضهم حديثي عهد بالاسلام ،
ولا زال التكاثر بالمال والتفاخر بالولد بقايا الجاهلية في نفوسهم
فلما فتحت لهم الدنيا وذاقوا من نعيمها بعد بؤس وجدب ، فبلغ
فسي أعينهم غايمة العجب ،
ثم دعوا إلى الإنفاق في سبيل الله والمجاهدة بأموالهم وأنفسهم
تقاعست نفوس بعضهم ، وحال بينها وبين المسارعة لتلبية نداء الله ،
وداع الجهاد ، حرصها على استبقاء المال لإنفاقه في لذائذ الحياة الدنيا
ومتاعها من اللعب واللهو والزينة ، والتفاخر والتكاثر فحصر الله سبحانه
أسباب الشح هذه . وقصر الحياة الدنيا قصر اضيق على هذه الأمور التي
حالت بينهم وبين المسارعة بانفاق أموالهم في سبيل الله ، فهي أصول تنضوى
تحتها كل متعة أو متاع . (١)

(١) انظر الأمثال في القرآن الكريم ، محمد جابر الفياض ص ٣٣٨ .

٧ - ومن أسرار التنوع أن التشيل في سورة الحديد أثر التعبير

بلفظة (كفار) والمراد بهم الزراع ، لأنهم أهل
البصر بالنبات فلا يعجبهم إلا المعجب حقاً ، فهو إيمان
إلى بلوغ هذا النبات كمال الحسن ومنتهاه .

بينما عبر عنه في سورة يونس بقوله سبحانه :

* وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا *

لأن الحياة الدنيا لما كانت مثله هناك بالمعروس ، كان لفظ
أهلها ما يقتضيه النظم القرآني البديع لما في ذلك من
الإيمان إلى أنهم أهل البصر بها ومعرفة وجوه طلبها
والذين انقطعوا لها وجعلوها كل همهم وغاية أمرهم .

٨ - ومن أسرار التنوع أيضا إضافة النبات الى الغيث في سورة الحديد

بينما أضيف الى الأرض في سورة يونس والكهف ، لأن المقصود من إضافته

للغيث التنويه بروائه وقوته وجماله الذي لعب بالقلوب ، واختلب النفوس

زال

فألهاها عن طاعة الله وعن المسارعة لإعزاز دين الله ، ولا حسنه يتكاثف ويقوى

ويشتد حتى باتت لا ترى كحسنة مبهائه .

كما أن وراء إضافة النبات للغيث - والله أعلم - إيحاء بأن هذه

النعم التي يفاخرون ويكاثرون بها إنما هي من رحمة الله وفضله الذي أغاثهم

بها ثم هم يجحدونها ويمنعوها أداء شكرها .

بينما أضيف النبات الى الأرض في سورة يونس والكهف لأن المقصود

(والله أعلم) الإشارة إلى ضعف نشأته التي توحى بها طراوة هذا النبات ورخاوته

، والإنسان في بدء خلقه ، كنبات الأرض ثم يشتد ساعده ويقوى فينسى

ضعف نشأته ويفغل عن هدى ربه ، فيقسو قلبه ، فيطغى ويبغى ،

ويفتخر ويتعالى ويفاخر ويكاثر .

٩ - ومن أسرار التنوع أن يقتضي النظم القرآني البديع ، وسياق الايات التعبير

عن بلوغ النبات أقصى ما يتأتى له من النمو والنضارة والبهجة بقوله (ثم

يهيج) لأنه اللفظ الذي يفى بالمعنى الذي سيق له ، ألا وهو اللعب

واللهو والتفاخر والتكاثر وما وراء ذلك من الهيجان والجلبة ، ففي لفظ
(يهيج) اضطراب وشوران يتلاءم مع شدة الانفعال والعجب التي
تصاحب حالة اللعب واللهو والتفاخر والتكاثر فتبلغ أشدها وما عليه
واقع الناس اليوم من شدة افتتانهم بهذه الأمور وكذا هذا المعنى .

بينما فصل هذا المعنى في سورة يونس بقوله :

حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا
أَنَّهُمْ قَدْ رُؤِنَ عَلَيْهَا

لأن سياق الآيات هنا مبني على التحليل للحياة الدنيا وتفصيلها وهو الذي
يتناسب مع أهلها الذين رضوا بها وأنسوا واطمأنوا إليها ، والذين هم
عن آيات الله غافلون .

بينما طوت سورة الكهف كثيرا من هذه المعاني ، لأن السياق
ليس سياق تحليل للحياة الدنيا ورسم خطواتها التي أوغل القوم فيها
فابعدوا .

وإنما هو تصوير للإقبال ثم الإعراض وهو الأشبه بحال صاحب
الذي أحيط بشمره بينما كانت له جنة لا يظن أن تبعد أبدا .

١٠ - ومن أسرار التنوع أيضا ملائمة العناصر التي بني عليها التشبيه

للسياق الذي ورد فيه ففي سورة يونس نجد أن البحر والرياح الطيبة والموج
والماء والنبات كل هذا من واد واحد .

وفي سورة الكهف نجد الجنة التي أمست خاوية على عروشها والماء
والنبات والهشيم الذي تذرره الرياح أيضا من واد واحد في التلاو^مم والتناسق
والاحكام^م.

وفي سورة الحديد تلج هذا التناسق بين اللهو واللعب والزينة
والتفاخر والتكاثر وما يحدثه من هيجان وشوران / حالة العجب بنبات الغيث
وحركة هذا النبات عندما يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما .

وهكذا نجد أن تنوع التشبيه في القرآن الكريم يفسح مجالاً لدراسة
دقيقة تبحث الأسباب والأسرار التي من أجلها كان هذا التنوع ، وهي
فروق لا تظهر ولا تتجلى إلا بمقدار ما تعطى منها من المتابعة والمدارسة
والتحليل وجمع النفس ، وتفرغ الخاطر ، والنظر بسكون طائر ، وخفض
جناح .

وكما اقتربنا أكثر وجدنا أسراراً أجمل وخواطر أعظم وكان الرمانى
يقصد إلى هذا اللون من البحث حين ساق آية يونس ، وآية الحديد في قرن
واحد ، وعلق على آية يونس بقوله :

(وقد اجتمعتا في الزينة والبهجة ثم الهلاك بعده ، وفي ذلك
العبرة لمن اعتبر والموعظة لمن تفكر في أن كل فانٍ حقيرٌ وإن طال مدته ،
وصغيرٌ وإن كبر قدره . (١)

(١) النكت في إعجاز القرآن للرمانى ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن
ص ٨٣ .

وقال في تعليقه على آية الحديد * وقد اجتمعتا في شدة الإعجاب

، ثم في التغير بالانقلاب ، وفي ذلك الاحتقار للدنيا والتحذير من الاغترار
(١)

بها والسكون إليها " وهو بذلك يلفت الإنتباه إلى أسرار التنوع بطريق غير

مباشر .

(١) المصدر السابق ص ٨٣ .

الفصل الثاني :

التشبهات التي تمثل الإنفاق
وأسرار تنوعها .

ويتضمن :

- ١ - الإنفاق في سبيل الله .
- ٢ - الإنفاق المشوب بالمن والاذى أو الرياء أو الكفر .

المدخل :

ورد ذكر الإنفاق في القرآن الكريم في مواضع عديدة وعلى صور
بلاغية مختلفة جاء بعضها عن طريق التشبيه والتشيل وبعضها الآخر
عن غير طريق التشبيه حيث فيها سبحانه النفوس على البذل والإنفاق
بألطف أنواع الخطاب فقال تعالى :

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَكُمْ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١)

ووعدهم بأنه سيخلفه وأنه يوفى إليهم غير منقوص :

يَوْمَ أَنْقَضْتُمْ مِنْ شَيْءٍ وَفَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٢)

وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤْتِ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٣)

وأنه فوق ذلك سيتجر لهم بما أنفقوا وينسيه ويشره لهم حتى

يصبح أضعافاً مضاعفة :

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَكُمْ أَضْعَافًا كَثِيرَةً (٤)

-
- | | |
|-------|--------------------------|
| (١) | آية ١١ من سورة الحديد . |
| (٢) | آية ٣٩ من سورة سبأ . |
| (٣) | آية ٢٧٢ من سورة البقرة . |
| (٤) | آية ٢٤٥ من سورة البقرة . |

وان لهم فوق ذلك أجرا عظيما وعطاء كريما والا من يوم الوعيد

وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

ثم بين لهم سبحانه صفات قبول هذه النفقة الطيبة التي لها

هذا الفضل وهذه العزية .

فاشترط أن تكون من أطيب المال :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ (١)

لَنْ تَسْأَلُوا اللَّهَ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبُّونَ (٢)

وأن تكون خالصة لوجه الله :

وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ (٣)

وأن لا يمن بها ولا يؤذى :

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى (٤)

وأن أعلى مراتب الإنفاق ، الإنفاق على كل الوجوه سرا وعلانية

حتى تصبح هذه الصفة خصلة قائمة في نفوسهم وجبلة تنطبع عليها

قلوبهم فلا يبالون أن ينفقوا على أية حال :

(١) البقرة / ٢٦٧

(٢) آل عمران / ٩٢

(٣) البقرة / ٢٧٢

(٤) البقرة / ٢٦٣

(١)
الَّذِينَ يُفِيقُونَ فِي الْمَرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظَّيْنِ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ

ثم مثل سبحانه لهذه المعاني كلها في صور تشيلية رائعة
المعنى بديعة النظم خصبة التشبيه تنفذ إلى القلب من نوافذ شتى
ترى فيها تلك الأضعاف المضاعفة ماثلة في :

حَبَّةٌ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ

أو ترى فيها تلك النفس الزكية المطمئنة ونفقتها بخيرها
الخصيب :

كُلُّ حَبَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَأْتَّى أَكْطَا ضَعْفَيْنِ

كما ترى مقابل ذلك تشيلاً لمن شابت نفقته شائبة المن
أو الكفر
والأذى أو الرياء / فتراها كصفوان عليه تراب :

فَأَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَرَكَتْهُ رُكَّةً مَوْصِلًا

أو ترى أعماله جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار
فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ

أوتراها كحرث أصابته ريح فيها صر فأهلكته
وسأجتهد بإذن الله وتوفيقه في بيان أسرار التنوع وراء
التشثيل للإنفاق بالحبة التي أنبتت سبع سنابل ، وبالجذرة ذات الربوة
كما بين أسرار التنوع وراء تشبيه المان المؤذى بالمراثي وبالصفوان الذي
عليه تراب وبالجذرة التي احترقت فزالت ، وبالحرث الذي أصابته ريح فيها
صر فأهلكته .

وقد راعيت أثناء تحليلي لهذه الآيات أن تكون كما هي في
سياقها الذي وردت فيه ————— ولم أفصل آيات
الإنفاق في سبيل الله عن الإنفاق وراء الناس لأن كليهما يربطهما سياق
واحد وأنها بهذا التضاد تتضح معانيها وتتجلى بلاغتها وحسبه أنه
رابط من أقوى روابط الكلام وصلته ببعضه .

١ - الانفاق في سبيل الله .

قال تعالى :

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ

أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ
سَنَابِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣١﴾

(سورة البقرة) .

وقال تعالى :

وَمَثَلُ الَّذِينَ

يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَنْبِيئًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ
حَبَّةٍ بَرْنَوْقٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَكَانَتْ أُكْلًا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ
فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٢﴾ (سورة البقرة) .

٢ - الإنفاق المشوب بالرياء أو المن والأذى أو الكفر -

وقال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا بُطْلُوا صِدْقَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي
يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ
صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى
شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧٦﴾

(سورة البقرة) .

أَيُّدُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ
مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ
وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفًا فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ
فَأَحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٧﴾

(سورة البقرة) .

مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ
حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ
أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٨﴾ (سورة آل عمران) .

من أسرار المناسبة :

للآيات في القرآن الكريم سياق قريب يرتبط به وسياق عام لا تتفصل عنه ولذلك تتعدد وجوه النظر في أسرار المناسبة ولطائفها فالآية القرآنية أشبه بفرع في دوحة ، وكلما عظمت هذه الدوحة وطالت دقت أسرار المناسبة ولطغت ومعدت وامتدت فإذا أردنا الوقوف على بعض تلك الأسرار في السياق العام لهذه الآيات نجد أنها تمتد إلى بداية السورة ، كقوله عز وجل :

وَمِمَّا زَكَّيْنَاهُمْ يُعْمِلُونَ (١)

إجمال لصفة من صفات المتقين ثم يأتي التفصيل بعد ذلك في ثنايا السورة ، حيث يأمر الله عز وجل بالإِنْفَاق ويصفه بأنه بمثابة القرض لله ويرغب في ذلك ، وبعد بمضاعفته أضعافا كثيرة ، ثم يضرب الأمثال ويقص القصص لمن بذلوا أموالهم وأرواحهم في سبيله ، ثم يذكر البعث وإحياء الموتى وانتهاءهم إلى الدار التي يؤفون فيها أجورهم يوم لا تنفع فِدْيَةٌ ولا خُلَّةٌ ولا شفاعَةٌ وإِنَّمَا تُنْفَعُهم أعمالهم التي أهمها الإِنْفَاق في سبيله ، ثم يضرب المثل

(١) الآية ٣ من سورة البقرة.

الحديث عنه برهانا ودليل صدق على الإيمان بالله الذي تجلت صفته
في أعظم آية . والإيمان باليوم الآخر الذي أقيمت له الأدلة لأن المال
شقيق الروح لا يجذل ولا يهان ما لم يعبر القلب بالإيمان واليقين .

ثم تأمل هذا الذي :

مَرَّ عَلَى اقْتَرَبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا (١)

وكيف حفظ الله له طعامه ، وشرابه لم يتسنه بينما فنيت راحلته ثم بعثت ،
وما وراء ذلك من إثبات القدرة لله على كل شيء ، فالقادر على حفظ قوت
الإنسان الذي هو مظنة اللطف والفساد قادر على حفظ جزاء الأعمال
التي هي الزاد ليوم المعاد .

وهكذا يقر المؤمن بقدرة ربه إيماناً و يقينا :

قَالَ أَكْبَرُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢)

ثم تأتي مرحلة أعلى وأعظم مرحلة الاطمئنان القلبي بروء يسهة
الحياة ، تبعث بعد موت في هذه الاطيار الممزقة بين يدي رجل مؤمن من
قد بلغ إيمانه علم اليقين ولكنه الشوق العالي الذي يحرك قلبه ، فلا يهدأ

(١) البقرة / ٢٥٩ .

(٢) البقرة / ٢٥٩ .

ولا يطمئن حتى يأنس بروءية صنع الله وقدرته تشل بين يديه فإذا هو
عين اليقين .

ويا لهذه النفوس الموءنة العالية كيف تتشوق إلى هذا الأنس
والاطمئنان من الرحمن الرحيم . ويا لله لهذا الود والرحمة الربانية تفر قلب
عبده الأواه الحليم .

فإذا كان إبراهيم طلب من ربه ذلك وهو من هو إيماناً وقيناً ،
فما أخرى هذه النفوس الموءنة التي نوديت بصفة الإيمان وحرضت على الإنفاق
في سبيل الرحمن أن تطمئن وتأنس بمعينة وروءية ما أنفقت يبعث ومثل
بين يديها أضعافاً مضاعفة ليكون ذلك تحريضاً لها وتأليفاً لقلبها ، ما دنا
سياق
في/الحديث عن البعث فهذه الشمس تأتي من المشرق فتولد معها الحياة
والدفء ، وتلك القرية الخاوية على عروشها تعود إليها نضارتها وخصوبتها
بعد يمس وجفاف ، وهذه العظام تنشر ثم تكس لحماً بعد رفات ورميم ،
وتلك الطيور ترفرف في السماء ، وقد جمعت عليها أشلاؤها بعد فناء ،
وهذه الحبة التي أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مادة حبة واللحم
يضاعف لمن يشاء ، كل هذه المظاهر يظهر فيها روح الحياة والخصوبة
والتوالد والتكاثر .

ثم تذوق بديع هذا التناسق بين العناصر التي مثلت كيف
تبعث الحياة من عالم الفلك إلى عالم الحيوان إلى عالم الطير/إلى عالم
النبات .

ومع ذلك فان السياق القرآني لا يضيق عن معان وأسرار آخر
فكلها حلقات في سلسلة سياق متسق ، فقد ذكر أهل العلم أنه لما ذكر
عز وجل فيما سبق جهاد الدعوة وجهاد النفس شرع الآن في ذكر
الجهاد بالمال . (١)

كما قالوا " انه لما ذكر المبدأ والمعاد ودلائل صحتها أتبع
ذلك ببيان الشرائع والأحكام والتكاليف فبدأ بإتفاق الأموال في سبيل
الله " . (٢)

وفي ذلك إرساء لقواعد النظام الاقتصادي والاجتماعي الذي يقوم
عليه المجتمع المسلم الجديد وهذا النظام يقضي على النظام الربوي الذي
كان سائدا في الجاهلية ويزرع السخاء والعطاء والإتفاق في سبيل الله
الذي له ميراث السموات والأرض بدل الربا الذي صار حربا لله ولرسوله
وهذا هو الفرق بين التوجه الإنساني الرحيم في الاقتصاد الإسلامي والتوجه
الأناني البغيض في النظام الربوي .

والتأمل لا مثال القرآن الكريم في سورة البقرة يجد أن التمثيل
للإتفاق في هذه السورة له من العناية والاهتمام ما ليس لغيره وذلك لشرف
النفقة وفضلها ومكانتها .

(١) تفسير الرازي الفخر ٥٨ / ٧
(٢) البحر المحيط ٣٠٣ / ٢

فقد ورد في سورة البقرة تمثيل للمنافقين في مثلين يديعين وهما

قوله تعالى :

أَمْثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا

أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ (١)

كما ورد فيها تمثيل لقسوة قلوب اليهود قوم موسى :

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارِ (٢)

وجاء فيها تمثيل للذين كفروا :

أَوْ مَثَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ (٣)

والتأمل لهذه العناصر التي بنيت فيها صور التشبيه يجدها

من وارد واحد ويرى بينها من التناسب والاحكام ما يحمل النفس على

الاخبات لربها مصرف الا^١مثال، فالمستوقد ناراً يستضي^٢ بها وأصحاب

الصيب الذين يتعشرون في خطاهم بين ظلمات ورعد و برق ،

وأولئك القاسية قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة وسط طبيعة

تتفجر أحجارها ينابيع ثرة وتهبط من خشية الله^٣، وذلك الناعق على غنمه

(١) آية / ١٨-١٩ من سورة البقرة .

(٢) آية / ٧٤ من سورة البقرة .

(٣) آية / ١٧١ من سورة البقرة .

وهم في غلة عنه، وتلك الحبة التي أنبتت سبع سنابل، والجنة بربوة
التي أصابها الوابل، والصفوان الذي عليه تراب، والحبة التي احترقت
فزالت، كلها صور متناسقة وهيئات للمعاني متناسبة تدل على طبيعة
واحدة تجلت على مراتبها قدرة رب واحد وبارئ واحد...

ولكن ثمة فرق دقيق بين تلك الصور وبين الإنفاق في سبيل
الله إذا أردت أن تقف عليه فتأمل ما توحى به تلك الصور من معاني
الحيرة والشك والضلالة والقسوة والغفلة وعدم الانتفاع والفناء والهلاك
بينما يمثل الإنفاق في سبيل الله معاني الخير والخصوبة والبركة المضاعفة
والحياة النامية الزاكية الباقية عند الله.

من أسرار اللغة والنظم :

يقول ابن القيم : " شبه سبحانه نفقة المنفق في سبيله سواء

أكان المراد بها الجهاد أو جميع سبل الخير من كل بر بمن بذر بذرا

فأنبت سبع سنابل اشتملت كل سنبل على مائة حبة والله يضاعف بحسب

(١)

حال المنفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه ونفع نفقته وقدرها ووقعها موقعها "

وهذا من التشبيه التمثيلي الذي يمثل المعقول في سورة المحسوس : " ولا بد

(٢)

فيه من/ مضاف : أي مثل نفقتهم كمثل حبة ، أو مثلهم كمثل باذر حبة .

وأيا كان المحذوف ففي الآية إيجاز بالحذف في المفرد وهو كثير في كلام

الله تعالى .

وفي البدء بالذين آمنوا إشارة إلى أن رأس الأمر في هذه

المضاعفة هو الإيمان ومقدار عمقه في القلب يعظم الأجر عليه .

وهو ما يؤم^{إليه} بالسنابل السبع والمضاعفة المطلقة لمن يشاء .

وهذا المثل مدني مضروب للمؤمنين لذلك بدأ بذكرهم ووجه

الحديث إليهم ، فهم موضع العناية والاهتمام لذلك أرجح أن يكسبون

(١) ابن القيم ، كتاب إعلام الموقعين ص ١٨٣ .

(٢) الكشف ١/ ١٩٣ .

المحذوف مقدراً في المشبه به لأن ذكر الحبة لا يُغني عن ذكر باندها
لأن المراد/ تعود به هذه المضاعفة من خير خصيب على نفس زارعها. (١)
والمشبه به: حال إعطاء النفقة
ومصادفتها موقعها وما أعطى من الثواب لهم والمشبه به: هذه
الحبة التي هذه صفتها :

كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلٍ مِائَةُ حَبَّةٍ
وأما وجه الشبه ^{جوانب} فله / كثيرة قد تتسع وتمتد وتظهر أثناء التحليل
والدراسة والتأمل ولكنها على وجه الإجمال تتلخص في " أن كليهما دفع
ما يميز عليه وما حبه من فطرة النفوس دفعه عاجلاً من أجل نفع آجل
وخير فعاد عليه نفعه وأجره أضعافاً مضاعفة ". (٢)
فهي الهيئة الحاصلة من النمو والزيادة في شيء بعد قلته
وضالته .

ثم تأمل ما وراء التعبير بهذه الصلة :

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ

(١) انظر الأمثال في القرآن د / محمد جابر الفياض ص ٣٥٦ ،

(٢) التحرير والتنوير ٣ / ٤٩٠

والمؤمنون بأن المراد حال إنفاقهم خصوصاً هذه الحال التي تكاد

تكون عزيزة ونادرة إذ هي مما تتميز به النفوس الكريمة :

وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١)

ثم تأمل كيف يستنهضون أنفسهم من الإخلاق إلى حب المال

فيهلكونه سخياً في سبيل الله بهذا الفعل " ينفقون " والذي يوحى

بتجدر ذلك الوابل الممدق بالعطاء واستمراره، هذا بعض ما تشي به

هذه الصلة بموصولها عن هذه النفقة بمنفقها من دقائق فتعظم قدرهم

وتفيض بسخاوة نفوسهم وإيثارهم الباقي الخالد على الفاني البائد .

ثم إذا ما عدت إلى هذه الصلة ، وجدت أن التعبير بها جاء على

هذه الصورة الجماعية : **مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ** والتي تتجاوب

فيها القلوب المؤمنة تتنافس على البذل والعطاء ، وتتسابق إلى الأجرة

والجزاء لا تبتغي تميزاً ولا شهرة ، بل حيث كان الخير سارعت إليه

وزاحمت عليه ، ثم استحضرت في نفسك صورة عبد الرحمن بن عوف - رضي الله

عنه - حين جاء بأربعة آلاف مريضاً ربه يسابقه عثمان رضي الله عنه

وهو يجهز جيش العسرة بألف بعير بأقتابها وأحلاسها .

(١) الآية ٩ من سورة الحشر .

ووازن هذا التناقض والتعاون والإخاء بصورة ذلك المنافسق

في قوله تعالى :

(١)

كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِشَاءَ النَّاسِ

فهو ينفق وحده ويرائي وحده ، وكأنه لا يرى إلا نفسه ولا يسعى إلا لما فيه استعلاؤه ها وتميزها وشهرتها .

وفي إضافة الأموال إليهم في قوله تعالى :

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ

رغم كونهم مستخلفين فيها ما يشير إلى طيب نفوسهم عند بذلها لأنها أموالهم التي منحوها من وكدهم نفوسهم وصباغة قلوبهم فهم لا يجذلونها إلا فيما فيه بركتها وقاؤه ها . ولأن المال بعد النفقة صار مالهم المدخر لهم عند ربهم فالسياق سياق تكريم لهم وتشريف لأنهم امتثلوا وأنفقوا كما أن فيه إشارة إلى طيب الأموال لأنها من هذه المعادن الكريمة الطيبة . وازن هذا بأولئك الذين يتخيرون الخبيث الردي لينفقونه .

ثم تأمل كيف قيد الإنفاق بقوله : * في سبيل الله * .

إشارة إلى الإخلاص في العمل ، ووقوع النفقة موقعها حيث وقعت في سبيل الله الذي له الكمال كله . وهذه الجملة هي مناط الفائدة

فليس المهم أنهم ينفقون أموالهم لأن من الخلق من ينفق الكثير من ماله
وإنما المهم أنهم ينفقونها في سبيل الله .

ولما اجتمع لهذه النفقة طيبها ، وطيب منفقها ، وطيب موقعها
كانت بركتها وما أعطى من الثواب لهم :

كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَكَبًا لِّفِكْلٍ سُبُلَةَ قِائَةٍ حَبَّةٍ

وهكذا يقع التمثيل في القرآن موقعه الا يمكن حيث ينقلهم
عز وجل إلى عالم الغيب فإذا هو مرئي ومشاهد وإذا أموالهم التي فنيتم
وهلكت ماثلة أمام أعينهم وبين أيديهم أضعافا مضاعفة ، وبهذه الصورة
الحية الخصبة يستجيش القرآن المشاعر ويملك القلوب ويحضر ويرغب إذ
يريهما ما يغلب على الظن أنه مغرم بأنه مغنم وما يرويه نقصا بأنه
زيادة وأي زيادة .

يقول ابن القيم : " والياذل متى علم أن عين ماله يعود إليه
ولا بد طوعت له نفسه وسهل عليه إخراجه .

فإن علم أن المستقرض ملئ وفي محسن كان أبلغ في طيب فعله
وساحة نفسه ، فإن علم أن المستقرض يتجرله بما اقترضه وينمي له ويشمره
حتى يصير أضعاف ما بذله كان بالقرض أسمح وأسمح ، فإن علم أنه فسي
ذلك يزيده من فضله وعطائه أجرا آخر من غير جنس القرض وأن ذلك الأجر
حظ عظيم وعطاء كريم ، فإنه لا يتخلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من البخل

والشح أو عدم الثقة بالضمان وذلك من ضعف إيمانه * . (١)

ووراء تفكير (حبة) ما وراءها من كونها حبة فريدة مميزة في صفتها ومركبتها وطبيعتها، والحب ما يزرع للاقتيات ففيه إقامة أود الإنسان كما " أن النفقة عمود من أعمدة الدين ، و بها يقام ركن من أركان الإيمان وهي الزاد ليوم المعاد .

وفي كلمة (أَنبَتَ) : أى بما جعل الله لها من قوة الإنبات بطيب أرضها واعتدال ريّها فهي أبرك بذر وقعت في أخصب أرض فتمت أحسن نمو فجاءت غلته مضاعفة إلى سبعمائة ضعف أى منتهى الخصب والنماء أو تمامه وكماله . (٢)

والمنبت الحقيقي هو الله وفي إسناد الإنبات لها تأكيد لقوة السببية (٣) .

و (السَّنْبِلَةُ) : فُتْعَلُهُ من أَسْبَلَ الزرع إذا صار فيه السنبل أى استرسل بالسنبل كما يسترسل الستر بالإسبال ، وقيل معناه : صار فيه

(١) تفسير ابن القيم ، ١ / ١٤٩ .

(٢) تفسير الخازن ٣ / ٦٠ .

(٣) انظر الكشف ١ / ٣٩٣ .

حب مستور كما يستتر الشيء ، بإسبال الستر عليه . (١)

و (أَنْبِئْتُ سَبْعَ سَبَائِلٍ) أى تشعب منها سبع شعب في كل
شعبة سنبلة وهو من السنبيل ، وهو مجتمع الحب في أكمامه كأنه آية
استحقاق اجتماع أهل ذلك الرزق في تعاونهم في أمرهم وتعريف بأن
الحب بجمعه لا بوحده . (٢)

وإذا ما استقصيت التأمل وراجعت هذا المعنى الذى ذكره
الامام البقاعي رأيت فيه أن هوء لاء الذين ألف بين قلوبهم الإيمان وجمعتهم
النخلة في سبيل الرحمة ،
لنا تشابهت قلوبهم وأعمالهم ونفقاتهم وخلصت
الله جاء التعبير عنهم في صورة تجلت على مرآتها قلوبهم المجتمعة
على محبته وطاعته فكان الحب في أكمامه صورة لتلك القلوب المتحابية والمتضاربة
والتي صارت تمثل كياناً واحداً تغذى بماء واحد وتعيش حياة واحدة ،
وهذا لب ما يهدف إليه التشريع الحكيم من الأمر بالإتفاق المؤدى إلى
ضرب من التكافل والتعاون ، والتضام والتحاب .

(١) تفسير القرطبي ٣ / ٣٠٤ .

(٢) نظم الدرر ٤ / ٧٥ .

وفي ذكر (السَّبْع) لما يوحى به من التمام وما يقله من التكرير لأن العرب تكرر به ما هو أقل منه أو أكثر^(١) ولأن عدد السبعة ومضاعفاتها حظيت في القرآن الكريم بعناية خاصة وأنها استخدمت للدلالة على الكثرة الكثيرة والتعبير عن أقصى ما تستشعره النفوس من الأضعاف المضاعفة^(٢).

فتأمل كيف جعل سبحانه أدنى النفقة في سبيله سبعمائة ضعف ثم فتح باب التضعيف إلى ما لا يصل إلى عدد واحد . وهذا الذى ذكره سبحانه من التشثيل للإنفاق في سبيله إنما هو لا أول الإنفاق .
وجملة التذييل هذه : **وَاللَّهُ يَضَعُ لِمَن يَشَاءُ** / إعلام من الله سبحانه وتعالى بأنه
” يضاعف لمن يشاء ” فوق ذلك بحسب حال المتفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه ونفع نفقته وقدرها ووقوعها وموقعها^(٣) .
^(٤)

قاله الذى له الكمال في كل صفة ، والله بما له من السعة يضاعف ولم يقل (يزيد) إذ المضاعفة أن يضم إليه مثله فصاعدا ، وذلك منتهى

(١) انظر نظم الدر ٠٧٥ / ٤

(٢) انظر الأمثال في القرآن الكريم ، د / محمد جابر الفياض ص :

٣٦٨ - ٣٦٩

(٣) انظر نظم الدر ٠٧٥ / ٤

(٤) أعلام الموقعين ٠١٨٤ / ١

العطاء والفضل والسعة ، ولأنه (عليم) بنية المنفق وسائر أحواله ، فهو يضاعف لمن يشاء بحسب علمه ، فسبحان من لا يحصر فضله ولا يحسد عطاؤه ، وهكذا تتناسب الفاصلة (عليم) مع السياق السابق . وهذا التذييل البديع يتم المعنى ليستأنف بعد ذلك معنى آخر مرتبط بما قبله من حيث أنه بيان لكيفية الإنفاق الذي بين فضله ، أى الإنفاق الذى ينمو ويربو ويتضاعف إلى ما شاء الله ، ومن جهة المشبه به فهو بيان للحارث كيف يحرق حرثه ويحفظه ما يستأمله أو يفسده فيتعاهده بالسقي ونفي الآفات المهلكة عنه .

ويقابله في المشبه ألا يتبع المنفق إنفاقه بما يبطله من المن والاذى أى يذهب ثوابه بقوله تعالى :

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

نص على هذه الصلة بموصولها فقال :

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وأعادها هنا مرة ثانية وأظهرها حفاوة بها واهتماما لأنها رأس المعنى وأصله ، ثم عطف عليها قوله :

ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى

فهذه الجملة معطوفة على حيز الصلة وهي قوله :

يُفْقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

فهو الإنفاق النائي عن المن والاذى .

والمن : أن يعتد على من أحسن إليه باحسانه ويريه أنه

اصطنعه وأوجب عليه حقاً . (١)

وكانوا يقولون إذا صدعتم صنيعاً فانسوها ، وفي نوابغ الكلم :

” طعمُ الآلاءِ أحلى من المنِ وهو أمرٌ من الآلاءِ مع المن ” (٢) وفي هذا

من مرارة المن وشدة وطأته على النفوس الكريمة ما فيه .

والاذى : أن يتناول عليه بسبب إنعامه عليه فيتعالي .

ويتفاخر أو يذكره لغيره ، فالاذى أشمل وأعم ، فهو من قبيل عطف العام

على الخاص ، وإنما قدم المن لكثرة وقوعه . (٣)

ثم تأمل ما وراء لفظ (ثم) من دقائق .

و ” ثم ” في الأصل لتباعد الأزمنة وتراخيها ، فقالوا إنها

استعيرت من معناها الأصلي لتدل على التفاوت بين الإنفاق وترك

(١) الكشف ٣٩٣/١ .

(٢) الآلاء الأولى : النعم ، الآلاء الثانية : شجر مر الهرق .
المن الأول : يشبه العسل ، المن الثاني : تذكير المنعم عليه
بالنعمه .

(٣) انظر أبو السموء ٢٥٨/١ .

المن والاذى في الرتبة والبعد بينهما في الدرجة . (١)

يقول الزمخشري : * و معنى (ثم) إظهار التفاوت بين

الإنفاق وترك المن والاذى وأن تركهما خير من نفس الإنفاق * . (٢)

وفي الشريعة درء المفسد مقدم على جلب المصالح .

ومنهم من أبقى (ثم) على معناها الأصلي وهي الإشعار ببعد

الزمن فأفادت دوام وجود الفعل وتراخي زمن بقائه أى أنهم "يدومون

على تناسي الإحسان وترك الاعتداد والامتنان ليسولبتاركيه * . (٣)

وهكذا تخلص العبودية لله عندما تخلص هذه القلوب وتطهر

من حب الدنيا وتستعلي بإيمانها ونفقتها عن الرغبة في نيل الجزاء

من الناس ، والذي هو المحرض الأول للمن والاذى .

ولما كانت الحكمة من الإنفاق تطهير النفس وتزكيتها من البخل

والشح ، كان لا بد من مجاهدة النفس في ذلك ، فجاء التعبير القرآني :

ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا شَرًّا وَلَا آذًى

وتربيتها على دوام الإنفاق واستمرار العطاء مع تناسي الإحسان وترك الامتنان ،

(١) انظر روح المعاني ٣/ ٣٣٠ .

(٢) الكشف ١/ ٣٩٤ .

(٣) المصدر السابق .

لأن المال مال الله وهم مستخلفون فيه ، وما جرى على أيديهم من فضل
 فله الفضل والمنه جميعا ، وبذلك توفى النفقة ثمارها حين تسمو بنفس
 صاحبها ، فتنمو وتقوى روابط المحبة والتكافل والتعاون وتزكسو النفوس
 بالمشاعر ، ويطهر المجتمع من الفقر والحرمان والشر والطغيان وهكذا
 ينأى المسلم بنفسه عن أن يكون عبدا للمال أو عبدا لإحسانه أو مستعبداً
 لأخيه الإنسان .

ثم تأمل ما وراء تعريف (الصدقة) وتنكير (المن والأذى) في
 قوله تعالى :

لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا شَيْئًا وَلَا أَدَىٰ
 المراد منا ، أى من ، ولا أذى ، أى أذى ، أى أنه للتقليل وإذا نهوا عن
 القليل من المن والأذى فهم عن الكثير أشد نهياً .

والنفس الموءنة تعرف المعروف وتكر المنكر مهما عظم وطغى

أو قل وخفي ، قال تعالى :

لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

لما كان الإنسان قد يزرع ما يكون لغيره بين أن هذا لهم (١)

لِحَسْمِ أَجْرِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۖ وَفِي تَكْرِيرِ الْإِسْدَادِ وَتَقْيِيدِ الْأَمْرِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى
(لَهُمْ) (عِنْدَ رَبِّهِمْ) من التأكيد وتشريف ما لا يخفى . (١)

ثم تذوق كيف أثرى هذا القيد (عند ربهم) المعنى وضاعفه
إلى حد يفوق الوصف وأشار إلى التربية ومزيد الفضل والعناية بها . فهو
ر بهم المحسن إليهم بتربيتهم القائم على ما يقبل من النفقات بالحفظ
والتنمية حتى تصير في المعظم إلى ما لا حد له أوعد . (٢)
فلهذا هذا الفضل العظيم والخير الخصيب وهو ينمو ويربـو
عند العربي الكريم الذي يأخذ الصدقة بيمينه فيربّيها كما يربي أحدكم
فأوه أو فضيله .

يُؤَلِّفُ خَوْفَهُ عَلَيْهِمْ وَلَا يُخِزُّهُمْ

» أي لا خوف عليهم في الدارين من لحوق مكروه من المكاره ولا
هم يحزنون لغوت مطلوب من المطالب قل أو جل أي لا يعتريهم ما يوجب . (٣)
وفي تنكير (خوف) ما يوحي بأنه لا يعتريهم أدنى خوف .

(١) روح المعاني ٣٣/٣ وانظر (أبو السعود) ٢٥٨/١ .

(٢) نظم الدرر ٧٧/٤ .

(٣) أبو السعود ٢٥٨/١ .

ثم تأمل كيف يجازيهم^{ربهم} من جنس عملهم جزاء نفسيا معنويا
بالإضافة إلى الجزاء الحسي الذي يرونه ، فمن كان ريدنه وشأنه تفریح
الكروب ببذل ماله وتطبيب النفوس ، وتنديتها بطيب نفسه وقوله وسموه
عما يقطع صلته ويورث الآلام النفسية ، ويجرح المشاعر والكرامات الإنسانية
من المن والاذى ، كان جزاؤه ، أن ينفي عنه ما نفاه عن أخيه فلا يكرهه ولا
يحزنه هم ولا غم فدوام انتفائهما " أى الخوف والحزن " جزاء يجانس
عمله مع انتفاء ما يشوبه ويكدره ويقطعه فله هذه الطمانينة التي لا تشوبها
شائبة من خوف .

وهذا الا^{من} الذى لا يعتريه شيء من كرب يوم القيامة . يوم يود

الَّذِينَ لَا يَشْعُرُونَ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَا قُدْرَةَ لَهُ (١)

* قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ

أى كلام جميل تقبله القلوب ولا تنكره كالدهاء والتأنيس والترجيه

بما عند الله يرد به السائل من غير إعطاء شيء. (١)

وفي تنكير (قول) : ما يشير إلى أن قليله خير.

(ومغفرة) : أى ستر للخلوة وسوء حالة المحتاج وتجاوز لما

وقع منه من الإلحاف في المسألة وصفح عنه. (٢)

خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى

(٣)

* لكونها مشوبة بضرر ما يتبعها وخلوص الأولين من الضرر.

وهكذا توء كد هذه الجملة المستأنفة النهي عن المن والأذى وتقرر

الحكمة من الإنفاق وهو تهذيب النفوس وترضية القلوب وربطها برباط المحبة

في الله .

فإذا لم تحقق الصدقة هذا المعنى ، بل شابتها شائبة المن والأذى

(١) انظر البحر المحيط ٣٠٧/٢ ، وأبو السعود ٢٥٨/١ ، والطبري

٤٣/٣ المحرر الوجيز ٠٣/٢

(٢) انظر المصادر السابقة.

(٣) أبو السعود ٢٥٨/١

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي
يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

الآية .

تأمل هذا الالتفات البديع الذي يقبل فيه الله سبحانه وتعالى

على عباده المؤمنين بالخطاب ، بعد أن ^{ما بين} بين/ بطريق الغيبة فيما مضى

من الآيات ليبالغ ويؤكد النهي عن إلتناع النفقة بالمن والأذى .

وفيه تنصيص على أن المن والأذى يحق النفقة ويحطلها ، لذلك

ضرب مثلاً لهما ، وضرب للمثل مثلاً مبالغة في الزجر عن ذلك . (١)

ووراء النداء في القرآن الكريم أسرار تدق وتلطف ، إذ لا يستدعي

بهذا النداء : " يا أيها الذين آمنوا " إلا المعاني الهامة الجليلة .

ثم تأمل كيف عظم الله قبح المن والأذى في معارض الكلام بثلاث

طرق بيانية تدرجت بالنفس وارتقت بها عن أن يكون من هذا شأنه .

(١) انظر تفسير روح المعاني ٣ / ٣٤ ، انظر نظم الدرر ٤ / ٧٩ ،

أبو السعود ١ / ٣٥٩ . انظر البحر المحيط ٢ / ٣٠٨ .

بدأ ذلك بالثناء على تاركه :

لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مِنَّا وَلَا أَدَىٰ

ثم بين أنها مشوبة بضرر ، لذلك فضل عليها :

* قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ

لأنهما خالصتان من الضرر .

ثم صرح بالنهي عنها لأنها تبطل العمل ، أى تذهب بشوابه

وتمحقه (١) فقال :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ

(٢) " الإبطال جعل الشيء باطلا أى زائلا غير نافع لما أريد منه . "

أى لا تحبطوا أجرها بواحد منهما .

(١) انظر البحر المحيط ٢/٣٠٨ .

(٢) التحرير والتنوير ٣/٤٧ .

يقول أبو حيان : " ولما جرى ذكر (المن والاذى) مرتين

أعادهما هنا بالألف واللام " (١)

وفيه إشارة إلى أنها لم يعودا ملتبسين منكبين على أهل

الإيمان ووراء قوله عز وجل (صدقاتكم) أى التي كان بها صدق إيمانكم

بالغيب لأن الرزق غيب والواثق بذلك الغيب منفق ماله تصديقا بأن الله

سيخافه .

كَالَّذِي يَنْفَقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

أى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى كإبطال المنافق الذى

ينفق ماله (رياء الناس) لا يريد رضا الله ولا ثواب الآخرة . (٢)

ويجوز أن تكون الكاف في محل النصب على الحال : أى لا تبطلوا

صدقاتكم مماثلين الذى ينفق " (٣) والتشبيه هنا تشبيه أسلوب أو منفي .

والمعنى تشبيه الذين يتصدقون بأموالهم ثم يتبعون صدقاتهم

بالمن والاذى بالمنفقين رياء الناس، ثم مثل لحال الذى ينفق ماله رياء الناس

(١) البحر المحيط ٢/٣٠٨ .

(٢) الكشاف ١/٣٩٤ .

(٣) المصدر السابق .

والمراد بالمراي هنا على الوجه الراجح : المنافق والكافر معا .
لانهما شريكان في عدم الإيمان بالله واليوم الآخر وإن أخفاه الأول وأظهره
الثاني فالرياء يمكن أن يصدر عنهما وذلك أن المنافق مرء إذا أنفق ماله
مدعيا أنه لوجه الله وهو في قرارة نفسه لا يؤمن بالله واليوم الآخر ،
والكافر مرء إذا أنفق ليقال عنه سخن كريم خير رحيم فهو يتظاهرها
بالرحمة والشفقة ^(١) كما يحدث اليوم مع جماعات التبشير التي تستميل
القلوب بمساعدتها للشعوب الفقيرة والمنكوبة وهي لا تؤمن بالله واليوم
الآخر .

(١) انظر المحرر الوجيز لابن عطية ٢ / ٣١٤ .

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ
صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

هذا تشيل لحالة المرائي فيه تفصيل لما أجمله.

يقول أبوحيان : " ضرب الله لهذا المنافق أو الكافر الباغي

المثل بصفوان عليه تراب يظنه الظان أرضاً منبتة فإذا أصابه

وابل من المطر أذهب عنه التراب فبقي صلداً متكشفاً وأخلف ما ظنه

الظان وكذلك هذا المنافق يُرى الناس أعمالاً كما يُرى التراب على

هذا الصفوان فإذا كان يوم القيامة أذهب الوابل ما كان على الصفوان

من تراب " (١)

والصفوان : " صيغة مهالفة من الصفا وهي الحجارة الطمس

الصلية التي لا تقبل انصداعها بالنبات " (٢)

عليه تراب : قال الألويسي : " أى عليه شيء يسير منه " (٣)

(١) البحر المحيط ٣٠٩/٢

(٢) نظم الدرر ٨٠/٤ وانظر الكشف ٣٩٤/١

(٣) روح المعاني ٣٥/٣

والذى يظهر لي - والله أعلم - أن عليه تراباً كثيراً لأن التراب
يمثل أعماله التي رأى بها وكان يرجو منها النفع بالإنبات والآن جسر
وهي أعمال كثيرة فضلا عن أن عناصر الجحلة مبنية على المبالغة .
ففي كلمة صفوان : مبالغة في شدة ملاسته ونعموته .
وفي تنكير وابل : مبالغة في شدة وقوته فهو وابل شديد
الوقع عظيم القطر .

لذلك كان المناسب أن يكون التراب عظيماً وفيراً ولو كان تراباً
يسيراً لكفاه اليسير من المطر لإزالته .

وَأَصَابَ : تَأْتِي فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالْعَرَادُ بِهَا هُنَا الشَّرُّ تَلَاوُ مَا
مع المعنى الذى سَيَقَتْ لَهُ . (١)

فتركه صلداً : أجرد نقياً من التراب الذى كان عليه ومنه صلداً
الجبين الأصلع : إذا برق . (٢)

(١) انظر المفردات في غريب القرآن للراغب مادة (صوب) .

(٢) الكشاف ١ / ٣٩٤ .

ثم تأمل كيف تلاحت الفئات (فمثلة - فأصابه - فتركه) من
غير مهلة لتتعاقب من وراءها المعاني والأحداث الشديدة الوقع،
ويا لهذه الطبيعة الغضبي كيف يتحول وابلها الذي هو مظنة النفع
والحياة إلى بلاءٍ وفتنة تصيب هذا الصفوان فتجرده مما كان يقيمه
ويستره عن الناس وما كانوا يتوهمون فيه النفع والنماء والزكاة فتركه
صدلاً لا حياة فيه نقياً لا شيء يواريه * لا يقدر على شيء * ما
كسبوا * .

وعبر من النفقة بالكسب لأنهم قصدوا بها الكسب . (١)

والمعنى : أن المرائي والمان والمؤذى لا يقدر على
الانتفاع بثواب شيء من إنفاقهم الذي هو كسبهم عند حاجتهم إليه . (٢)

وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

تذييل فيه تعريض بأن كلا من الممن والأذى من صفات
الكافرين وأحوالهم فليحذر المؤمن من تسرب ذلك إليهم وليجتنبوه .

(١) القرطبي ٣/٣١٣ .

(٢) البحر المحيط ٢/٣١٠ .

(٣) روح المعاني ٣/٣٥ والتحرير والتنوير ٣/٥٥٠ .

وهكذا ترى السياق القرآني الجليل يعرض مقابل تلك الحبة التي

أُنبتت سبع سنابل وأُخصبت أيما إخصاب .

ووسط تلك الطبيعة المترعة السخية صورة صفوان عليه تراب

فإذا هو في الظاهر جزء منها يتناسب شكلاً مع جوها إذ يحسبه الناظر

أرضاً منبتة ويتوهمه الجاهل تربة صالحة ، فهو معها ظاهراً

مخالفاً لها باطناً ، فقلبه الصلد لا ينمو ينموها ، ولا يؤثر فيه خيرها ،

بل يضره ويكشف عنه سره ، فإذا التراب الذي يحجب حقيقته ينقشع عنه

ويتركه صليداً ساعة إقبال الخير ، وعند ترقب العطاء والإنبات فتراه وقد

فاض خير الطبيعة السخية الجوادة ، عار عن كل خير ، وتراه وقد شطت

الرحمة من حوله وحده ، لا يقدر على شيء فيا لخسارته وضياعه ، ويا

لهوانه وذاتته وانكساره ..

فكذلك المرآي والمان والمؤذى يوم القيامة ، وعند لقاء

الكرامات :

لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

وبهذا الأسلوب البياني في المقابلة بين المعاني وأضدادها

تتعمق صور المعاني ويزداد رسوخها في النفس المؤمنة ، فتتفرأشد النفرة

عن مقاربة ذلك فضلاً عن الوقوع فيه .

قال تعالى :

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءً
مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا
وَإِبِلٌ فَفَاتَتْ أَكْطُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾

يقول ابن القيم: (١)

"وتحت هذا المثل من الفقه، أنه سبحانه شبه الإنفاق بالبذر، فالمنفق ماله الطيب لله لا لغيره، باذره ماله في أرض زكية، فمغلة بحسب بذر، وطيب أرضه، وتعاهد البذر بالسقي، ونفي الدغل والنبيسات الغريب عنه، فإذا اجتمعت هذه الأمور ولم تحرق الزرع نار ولا لحقت جائحة، جاء أمثال الجبال، وكان مثله كمثل جنة بريرة، وهي المكان المرتفع الذي تكون الجنة فيه تُصب الشمس والرياح، فتشرب الأشجار هناك أتم تربية، فنزل عليها من السماء مطر عظيم القطر، متتابع، فرواها ونماها، فأثرت أكلها ضعفي ما يؤتيه غيرها بسبب ذلك الوابل، فإن لم يصبها وابل فطل؟ مطر صغير القطر، يكفيها لكرم منبتها، تزكو على الطل وتنمو عليه". (١)

تأمل كيف تترايط المعاني، وتتناسب، وتتناسق، وكيف تبرز صور التمثيل تركيباً، وخصوصية، وشرافاً تتناسب مع خصوصية المعاني، ووفرته، وغزارتها، فضلاً عن التناسق والتقابل البديع بين أجزاء التمثيل.

ومن هذا التاسب ما أشار اليه أبوحيان حيث يقول :

" لما ضرب مثل من أنفق ماله رثاء الناس وهو غير موء من ذكر

ضده بتمثيل محسوس للذهن حتى يتصور السامع تفاوت ما بين

الضدين وهذا من بديع أساليب فصاحة القرآن * (١)

ويقول ابن عاشور (٢) وقوله :

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ

معطوفة على قوله

تعالى :

كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ

لزيادة بيان ما بين المنزلتين من البدون الشاسع وتأكيذا للشاء على المنفقين

باخلاص * .

(٣)

والمثل أوالمشبه هنا هم المنفقون ، ونفقاتهم على أرجح الأقوال

لأن العمل لا ينفصل عن صاحبه فهو صورة صادقة لهذه النفس وما

يعتمل فيها .

(١) البحر المحيط ٣١٠/٣ وانظر المحرر الوجيز ٣١٦/٢ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ٥٥٠/٣ .

(٣) انظر البحر المحيط ٣١٠/٢ .

يقول تعالى: وَمِثْلَ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَيَتَّبِعُونَ آفُسَهُمْ

”البغى : يقالُ بَغَيْتَ الشَّيْءَ إذا طَلَبْتَ أَكْثَرَ مَا يَجِبُ وَابْتَغَيْتَ

كَذَلِكَ وَهُوَ عَلَى حَزْبَيْنِ أَحَدُهُمَا مَحْمُودٌ وَهُوَ تَجَاوَزُ الْعَدْلِ إِلَى الْإِحْسَانِ وَالْفَرَضِ إِلَى التَّطَوُّعِ .

وَأَمَّا الْابْتِغَاءُ فَقَدْ خُصَّ بِالِاجْتِهَادِ فِي الطَّلَبِ فَتَمَّ كَانَ الطَّلَبُ

لِشَيْءٍ مَحْمُودٍ فَالِابْتِغَاءُ فِيهِ مَحْمُودٌ ” (١)

مرضاة الله :

” المرضاة مفعلة لتكرار الرضى ودوامه ” (٢)

و (ابتغاء) منصوبة على تأويل المصدر في موضع الحال

أى مبتغين مرضاة الله ومبتئين من أنفسهم ” (٣)

والتبئيت من ثبت : كلمة واحدة وهي دَوَامُ الشَّيْءِ يُقَالُ :

ثَبَتَ ثَبَاتًا وَثَبُوتًا ” (٤)

(١) الراغب مادة (بغى) .

(٢) نظم الدرر ٨٢/٤ .

(٣) انظر المحرر الوجيز ٣١٦/٢ والتحرير والتنوير ٥١/٣ .

(٤) المقاييس مادة (ثبت) .

ويقول الراغب : وقوله تعالى :

وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا

أى أَشَدَّ لِتَحْصِيلِ عِلْمِهِمْ وَقِيلَ أَثْبَتَ لَأَعْمَالِهِمْ وَاجْتِنَاءِ ثَمَرَةِ

أَعْمَالِهِمْ بِخِلَافِ مَنْ قَالَ فِيهِمْ :

وَقَدْ مُسِّنَّا إِلَى مَا أَعْمَلُوا مِنْ عَمَلٍ فَعَلْتُمْ بِهِمَا مَنُشُورًا (١)

وقد ذكر العلماء في معنى ذلك وجوها منها :

أن قوله (وتثبيتا) معناه (وتيقنا أى أن نفوسهم لها بصائر

متأكدة فهي تثبتهم على الإنفاق في طاعة الله تثبिता * (٢)

يؤيد هذا الوجه أبوحيان حيث يقول :

* إن نفس المؤمن من هي التي تثبت وتحملة على الإنفاق في سبيل

الله ليس لها محرك إلا هي لما اعتقدته من الإيمان وجزيل الثواب فهسي

الباعة له على ذلك والمثبتة له بحسن إيمانها وجليل اعتقادها * (٣)

(١) الراغب مادة (ثبت) .

(٢) المحرر الوجيز ٢ / ٣١٦ .

(٣) البحر المحيط ٢ / ٣١١ وانظر الكشاف ١ / ٣٩٥ .

وهذا الوجه الذى ذكره أبوحيان وغيره يأتي بعد المرحلة التي

أشار إليها غيره من المفسرين وهو قولهم :

أَن قَوْلَهُ (تَشَبَّهَتْ بِأَنْفُسِهِمْ) معناه (لِيُشَبِّهَتْ بِأَنْفُسِهَا بِذَلِّ الْمَالِ

الَّذِي هُوَ شَقِيقُ الرُّوحِ وَذَلِكَ أَشَقُّ عَلَى النَّفْسِ مِنْ سَائِرِ الْعِبَادَاتِ الشَّاقَّةِ وَعَلَى

الْإِيمَانِ لِأَنَّ النَّفْسَ إِذَا رِيضَتْ بِالتَّحَامُلِ عَلَيْهَا وَتَكْلِيفِهَا مَا يَصْعَبُ عَلَيْهَا

ذَلَّتْ خَاضِعَةً لِمَا حُبَّهَا وَقَلَّ مَطْمَعُهَا فِي اتِّبَاعِهِ لَشَهَوَاتِهَا وَبِالْعَكْسِ

فَكَانَ إِنْغَاقُ الْمَالِ تَشَبُّهًا لَهَا عَلَى الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ (١) .

ووراء ذلك كبح هذه النفس عن التشكك والتردد بحيث لا يتركون

لها مجالاً لخواطر الشح (فإن في إرضاء النفس على فعل ما يشق عليها

أثر في رسوخ الأعمال حتى تعتاد الفضائل وتصبح ريدنها والمقصود

الترغيب والتحريض في تحصيل الفعل أى تكرير الإنفاق (٢) . وقد أشار الفخر الرازي
أخلاقه جليل

إلى معنى / وهو ما تقر في الحكمة * الخلقية من أن تكرير الأفعال هو سبب

حصول العادة الفاضلة في النفس إذ يقول :

أَن مِنْ يُوَاطَّبُ عَلَى الْإِنْفَاقِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى لِيَبْتَغَاءَ مَرْضَاةَ اللَّهِ حَصَلَ

لَهُ مِنْ تَرْكِ الْمَوَاطِبَةِ هَذَا الْإِطْمِئْنَانُ الْقَلْبِيُّ وَلَمْ يَحْصَلْ لِنَفْسِهِ مَنَازَعَةٌ مَعَ

.....

(١) الكشاف ١/٣٩٥ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ٣/٥١ .

قلبه كما قال تعالى :

إِنَّمَا نَطْمِئُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نَزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا نُكَوِّرُ

وقوله تعالى :

وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا أَتْبَغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى
وَلَسَوْفَ يَرْضَى

ثم إن هذا الابتغاء والطلب يُصِحُّ ملكة قائمة في النفس وتصبح هذه
العبادة كالعادة . (١)

فالمشبه هنا إذاً هو لا المنفقون الذين ينفقون أموالهم ابتغاء
مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم أي هو لا المجتهدون في الطلب الذين
تجاوزوا العدل إلى الإحسان والغرض الذي أمرهم به ربهم إلى التطوع
عشاقاً وحباً لهذه الطاعة وبلوغاً لهذه المنزلة العالية التي باتت فيها
حالهم الدائمة وديدتهم ابتغاء مرضاة الله وبقينا جازماً لا يخالطه
شك بشوَاب الله وفضله الذي لا يحد .

فهي نفس تعالت وتسامت وريت وزكت ورسخت فيها هذه
الملكة الفاضلة ملكة حب الإنفاق حتى طبعت عليها فصار لا يصدر عنها
إلا كل خير لأن معدنها خير، فحالها إذاً ومثلها مع نفقتها :

كَمَثَلِ جَنَّةٍ رِيحُهُ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَكَانَتْ أَكْطَاهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ
فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

(١) انظر الفخر الرازي ٦٠/٧

(٢) انظر التحرير والتنوير ٥٢/٣ انظر روح المعاني ٣٦/٣

الجنة : أكثر ما تطلق في كلامهم على ذات الشجر العشر

(١)

المختلف الأصناف (والجنة كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض) .

الربوة : (سميت الربوة رابية لأنها ربت بنفسها في مكان ،

ومنه ربا : إذا زاد وعلا قال تعالى :

فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ

أى زادت زيادة المتربي . (٢)

ومشير الرازي هنا إلى دققة في معنى كلمة (ربوة)

يخالف فيها بعض من سبقه من ذكروا أن المراد بالربوة

المكان المرتفع من الأرض فيقول : (ليس المراد من هذه الربوة ما ذكروه ،

بل المراد منه كون الأرض طينا حرا ، بحيث إذا نزل المطر عليه انتفخ وريا

(٣)

فإن الأرض متى كانت على هذه الصفة يكثر ريعها وتكمل الأشجار فيها) .

ثم يحتج لرأيه هذا بدليلين الأول : قوله تعالى :

وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ

والثاني : أن هذا المثل في مقابلة المثل الأول وهو الصفوان الذي لا

يؤثر فيه المطر فلا يربو ولا ينمو فالمراد إذا كون الأرض بحيث

(٤)

تربو وتنمو ثم يقول وهذا ما خطر ببالي والله أعلم بمراده .

والذى عليه غيره وهو الأرجح أن الربوة هي المكان المرتفع وخصها بذلك لأن الشجر فيها أزكى وأحسن ثمرا . (٥)

(١) الراغب مادة (جن) .

(٢) الراغب مادة (ربو) .

(٣) الفخر الرازي ٦١ / ٧ .

(٤) المرجع السابق ٦١ / ٧ .

(٥) الكشف ٣٩٥ / ١ .

ثم تأمل كيف أن الذي يربو وينمو في القرآن بالإضافة إلى النفقة هي نفس منفعتها فهي تزكو وتنمو بحيث لا يكون لها طلب ولا مطمع إلا ابتغاء مرضاة الله .

وقوله : أصابها : توحى بالخير العميم لأن الإصابة فسي الخير اعتباراً بالصَّوْب أي المَطَر . (١)

"والوابل المطر الثقيل القطار" . (٢)

وفيه إشارة إلى سخاوة نفسه وعظم جوده .
وقوله (آت) " آتيت فلاناً على أمره مؤاتاةً وهو حَسَنُ المطاوعة والإيتاء الإعطاء" . (٣)

تأمل هذا المعنى وهذا العطاء السخي وكيف لانت هذه الجنة واستجابت لهذا الوابل السخي فما أسرع ما آتت أكلها وأثمرت خيراتها ونضر نعيمها وأوفت ظلالها .

بينما نجد أن العرائي لم يوء ثرفيه خير هذا الوابل فلم يثمر ولم تؤت أعماله أكلها ولم يجن ثمرتها .

وقوله : (ضعفين) - التثنية لمجرد التكرير والتكثير أي آتت أكلها مضاعفاً على تفاوتها أي ضعفاً بعد ضعف . (٤)

ويرجح هذا الوجه أبوحيان إذ يقول : (ويحتمل عندي أن يكون

قوله (ضعفين) ما لا يزداد به شفع الواحد بل يكون من التشبيه الذي يقصد به التكثير، وكأنه قيل فأتت أكلها ضعفين ضعفاً بعد ضعف أي أضعافاً كثيرة وهذا أبلغ في التشبيه للنفقة بالجنة ، لأن الحسنة لا يكون لها ثواب حسنتين، بل جاء تضاعفها أضعافاً كثيرة وعشر أمثالها وسبع مائة وأزيد . (٥)

(١) انظر الراغب مادة (صوب) .

(٢) الراغب مادة (وبل) .

(٣) المقاييس مادة (آتى) .

(٤) انظر روح المعاني ٣/٣٠٦ .

(٥) البحر المحيط ٢/٣١٢ .

تأمل جنة أعمالهم كيف فاض خيرها وعطاؤها على نفس صاحبها وعلى كسل الناس فإليها المأوى والملجأ من الخوف والفزع والجوع والظما والحر والقر فهي ظل ظليل وثمر وفير وستر لصاحبها في الدنيا والآخرة ثم تأمل تكرار التضعيف وتكرار الرضى من الله غاية ما بعدها غاية .

فَإِنْ لَمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ

والطل الرذاذ من المطر وهو اللين منه . (١) إشارة الى أن أضعف المطر يكفيها لبقاء خصوبتها ، أى فطل يكفيها لجودتها وكرم منبتها .

والمراد أن خيرها لا يخلف على كل حال لجودتها وكرم منبتها ولطافة هوائها ، وحاصل التشبيه أن نفقات هواء زكية عند الله تعالى لا تضيع بحال ، وإن كانت تتفاوت بحسب تفاوت ما يقارنها من الإخلاص في الابتغاء والتشيت ، كما تتفاوت أحوال الجنات الزكية في مقدار زكاتها ولكنها لا تخيب صاحبها فهي جنة أكلها دائم وظلها ؛ (٢)

وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

(٣) "البَصْرُ يُقَالُ لِلجَارِحَةِ النَّاطِرَةِ - والبَصِيرَةُ لِقُوَّةِ الْقَلْبِ الْمُدْرِكَةِ" .

وفي هذا التذييل البندى ما فيمنه من الوعيد والترهيب للمرائي الساذى يقصد بعمله روية من لا تغنى رؤيته شيئا ويغفل عن وجه البصير الحقيقي الذى تغنى رؤيته وتفقر . (٤)

كما أن فيه من الترغيب للمؤمن المخلص ما فيه (٥) وحسبه أن يستشعر معية الله ونظر الله إلى قلبه ليكون قلبه كله لله .

وفي هذا من التوكيد والتقدير ما فيه .

-
- | | |
|-----|---|
| (١) | روح المعاني ٢٦/٣ . |
| (٢) | انظر روح المعاني ٣٦/٣ وانظر التحرير والتنوير ٥٣/٣ . |
| (٣) | المفردات للراغب مادة (بصر) . |
| (٤) | انظر روح المعاني ٣٦/٣ - ٣٧ . وانظر أبو السعود ٢٦٠/١ . |
| (٥) | انظر المصدر السابق . |

وبعد هذه الرحلة الشاقة المجهدة التي تجاوزت فيها النفس
المؤمننة الصادقة ، تلك العوائق ، وبعد أن انطلقت في سيرها بإيقاعها
متجهة إلى الله مخلصه في السير إليه آن لها أن تحظى بهـ هذه
الرفائق والمنح الربانية .

وذلك منتهى ما تطمح إليه النفس التواقية إلى مرضاة الله سبحانه
وتعالى .

أرأيت كيف ارتقت هذه النفس من طلب المضاعفة في الأجر إلى
ابتغاء مرضاة الله ، أي من الجزاء الحسي إلى هذا الجزاء والنعيم
الروحي والبلوغ بالنفس إلى هذه المنزلة ليس أمرا هينا ، لأن النفس
قد يعتربها من الشك والتردد والاهواء والمطامع ما يصرفها عن الثبات
على هذه الطاعة ، لأن الإيمان يزداد وينقص فتأمل كيف يتدرج
القرآن الكريم في تربية النفوس وترويضها على ما يشق عليها حتى
تصبح هذه الطاعة سجية من سجاياها .

فيكون حالها كهذه الجنة بربوة لا تخيب صاحبها ، ولا يخلف خيرها
بحال .

فهي جنة بربوة متفردة عن الجنان ، ما يزيد لها حسن منظر وزكا
شمر ، فيضاعف هذا الموقع من عطاياها وإغداقها فتوتها أكلها ضعفين

وهي نفقة عن نفس تبتغي مرضاة الله زاكية عند ربها أيما زكاء ،
بمعنى أن هذه النفس قد بلغت من التثبيت والثبات على الطاعة حدا
لا يتجاوز الإخلاص في طلب مرضاة الله ، فهو إما وابل وإما طل ، بحيث
لا يخلف خيرها بحال .

قال تعالى :

أَيُّدٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ
جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ
كُلِّ الشَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا
إِغْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ^قكَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

ثم تأمل هذا الاستئناف البياني البديع الذى أثاره ضرب المثل
العجيب للمنفق في سبيل الله من حبة أنبتت سبع سنابل إلى جنة بربوة
آتت أكلها ضعفين . وذلك الجزاء والبركة والخير الخصيب للمنفقين
في سبيله الذين لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى ثم لما نهوا عن المن
والأذى استشرقت نفس السامع لتلقي مثل لهم يوضح حالتهم الذميمة
التي هي ضد تلك الحالة المحمودة . (١)

وهكذا تجدنا أمام مشهدين كبيرين ، المشهد الأول : يمثل
هؤلاء المنفقين في سبيل الله ابتغاء مرضاته وتثبيتاً من أنفسهم وكيف
تعهدوا حرثهم فآتت جنتهم أكلها ضعفين بعد أن أصبح الإنفاق
طبيعة فيهم وسجية من سجايهم الكريمة لا ينقطع وابلها ولا يجف نداها .
والمشهد الثاني : يصور حال المنفقين في سبيل الله الذين
أبطلوا إنفاقهم بالمن والأذى أى أضاعوا حرثهم وجنة أعمالهم فلم يحفظوها
بل أتبعوها بالمعاصي التي أحرقتها وهم في أشد الحاجة إليها .

(١) انظر التحرير والتنوير ٥٣/٣

وقوله **أَيُّودُ أَصْدَكُ** الود حب الشيء مع تمنيه والهمزة للإنكار

والتحذير ومناط الإنكار هو إصابة الإعصار وما يتبعها من الاحتراق. (١)

تأمل هذا الأسلوب الاستفهامي والابتداء الرائع الذي يجعل النفس تحذر الوقوع في ذلك.

"وهيئة المشبه محذوفة وهي : هيئة المنفق نفقة متبعة بالمن والأذى". (٢)

وقوله **أَنْ تَكُونَ لَوَجَنَةً مِّنْ تَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ** أى الأصل والركن

فيها هذين الجنسيتين الشريفين الجامعين لفنون المنافع والباقي من المستتبعات". (٣)

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إشارة إلى دوامها وخلودها.

وَلَوْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ المراد التكثير كقوله تعالى :

(وَأُوتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) .

وَأَصْحَابُ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ "هذه الحال التي هي مظنة شدة الحاجة

إلى منافع تلك الجنة ومنتهى العجز عن تدارك أسباب المعاش". (٤)

(١) انظر روح المعاني ٣/٣٧ وانظر (أبو السعود) ١/٢٦٠.

(٢) التحرير والتنوير ٣/٥٤.

(٣) أبو السعود ١/٢٦٠.

(٤) روح المعاني ٣/٣٧.

وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ ۚ حال من الضمير في أصابه . تأمل تداخل

الأحوال وزيادة القيود التي تقوى وتتكاثر بها عناصر الضعف والعجز حتى

تبلغ الحاجة أشدها ثم يعظم الخطب عند شدة الحاجة فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ

(١)

الغبار الذي يَسْطَعُ مستديراً والجمع أعاصير .

فِيهِ نَارٌ ۚ أي نار شديدة فالتنكير فيها للتعظيم .

فَأَحْرَقَتْ ۚ عطف على (فأصابها) .

يقول ابن القيم : * فهذا مثل ضربه الله سبحانه للحسرة

بسلب النعمة عند شدة الحاجة إليها مع عظيم قدرها ومنفعتها ، والذي

ذهبت عنه وقد أصابه الكبر والضعف فهو أحوج ما كان إلى نعمته . .
الذي

وقال ابن عباس : (هذا مثل/يختم له بالفساد في آخر

عمره) . (٣)

وعن عمر رضي الله عنه أنه سأل عنها الصحابة فقالوا : الله أعلم ،

فغضب عمر وقال : قولوا نعلم أولاً نعلم ، فقال ابن عباس : في نفسي منها

شيء يا أمير المؤمنين . قال : قل يا ابن أخي ولا تحقر نفسك ، قال :

ضربت مثلاً لعمل ، قال لا في عمل ؟ قال لرجل غني يعمل بالحسنات

ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله كلها . (٤)

(١) المقاييس مادة (عصر) .

(٢) ابن القيم ، تفسير القيم ١/ ١٥١ . (٣) المصدر السابق .

(٤) الكشاف ١/ ٣٩٥ .

تأمل قوله (فعمل بالمعاصي) والمعاصي أن يعصى العبد ربه
فيخرج عن طاعته ، وقد خرجوا هنا عن طاعته بإتباعهم نفقاتهم بالمن
والأذى فاحترقت أعمالهم أي أنهم بنوها على خير ثم أتبعوها بما أفسدها
وأحبطها .

وفي هذا المثل قوله تعالى :

أَيُّودُ أَحَدَكُمُ أَنْ زَكَوٰنَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ

لون من ألوان البديع أطلق عليه ابن أبي الأصبع (الاستقصاء)

وهو أن يتناول المعنى فيستقصيه إلى أن لا يترك فيه شيئا يقول :

" وقد جاء في الكتاب العزيز من ذلك ما لا يلحق به سبقا " .

فانظر إلى استقصاء هذا المعنى حين لم يبق فيه بقية لأحد

ذلك أنه بعد قوله جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ قال تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

وكل الوصف بقوله لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ فأنى بكل

ما في الجنان ليشتمد الأسف على إفسادها ثم قال وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ

ثم استقصى المعنى الذي يوجب تعظيم المصاب بقوله بعد وصفه (بالكبر) :

وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى كَوْنِهِ لَهُ ذُرِّيَّةٌ حَتَّى قَالَ ضَعْفَاءٌ ، ثُمَّ

ذكر استئصالها بالهلاك في أسرع وقت حيث قال : فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ

فِيهِ نَارٌ ، فلو اقتصر على ذكر الإعصار لكان كافياً ولكن لما علم الله

سبحانه أن مجرد الإعصار لا تحصل به سرعة الهلاك كما يحصل إذا كان فيه نار ، فقال سبحانه : (فيه نار) ثم أخبرنا باحتراقها لاحتمال أن تكون النار ضعيفة لا يقوم إحراقها باطفاء أنهارها وتجفيف أوراقها وثمارها فاخبر بإحراقها احتراساً من ذلك ، وهذا أحسن استقصاء وأنه بحيث لم يبق في المعنى موضع استدراك .^(١)

ولهذا المثل من الفضل والمزية ما جعل المفسرون يشيرون إلى أهميته فترى الرازي يقول فيه :

” هذا المثل في غاية الحسن ونهاية الكمال ” .^(٢)

ويقول النيسابوري :

” ولا يخفى أن هذا المثل - في المقصود - أبلغ الأمثال فإن الإنسان إذا كان له جنة في غاية الكمال وكان هوفي نهاية الاحتياج إلى المال وذلك أو ان الكبر مع وجود الأولاد والأطفال فإذا أصبح وشاهد تلك الجنة محترقة فكيف يكون قلبه من حسرة ؟ ” .^(٣)

(١) التحرير والتحرير ص ٥٤٢ - ٥٤٣

(٢) الفخر الرازي ٥٥٠٨ / ٢

(٣) غرائب القرآن ٥٣ / ٣ - ٥٤

وبهذا الأسلوب الرائع والعرض الأ^سخاف والترغيب والترهيب
يحذر المؤمن من أن يتبعوا إغواءهم بالمن والاذى ويرغبهم في أن
يدخروا ذلك لينتفعوا به في وقت أحوج ما يكونون إليه .

قال تعالى :

مَثَلُ

مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ
أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمْ
اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

من أسرار المناسبة :

تتحدث الآيات السابقة للمثل عن أهل الكتاب من نصارى ويهود

ومحاجتهم والرد عليهم ومعاتبهم على صدهم عن سبيل الله :

* قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تُصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ آمَنَ تَبَغُّونَهَا

عِوَجًا * (*)

ومن كفرهم بالله :

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ①

ويرغب المؤمنون في الاعتصام بحبله سبحانه والحذر من كيد

اليهود ومحاولتهم إيقاع الفرقة بين صفوف المؤمنون وتشكيكهم فسي

عقيدتهم . وهكذا يظل الحديث متواصلا عن اليهود والنصارى

وكيدهم للإسلام والمسلمين وإعدادهم العدة لمحاربة الله ورسوله . ولكن

الله يبشر عباده بالنصر وأن كيد أولئك لن يضرهم :

وَأَنْ يَقُولُوا لَوْ أَنَّا دُبَّرْنَا لَسَرِينَا ②

ثم تعقد الآيات موازنة بين طائفتين من أهل الكتاب ، طائفة مخبتة

إلى ربها :

يَسْتَلُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنْاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ③

----- (*) آل عمران / ٩٩

(١) آل عمران / ٧٠ .

(٢) آل عمران / ١١١ .

(٣) آل عمران / ١١٣ .

وأخرى تحارب الله ورسوله بإقامة الحصون وتجهيز الجنود ولكن أموالهم

وأولادهم إن تغني عنهم من عذاب الله شيئا :

وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

وهكذا ينهض التمثيل القرآني البديع ليؤكد أن ما أنفقه الكافرون في

هذه الحياة الدنيا وفي عداوة الرسول عليه الصلاة والسلام هالك لا محالة

ولن يقدرُوا على الانتفاع به ولذلك نرجح ما رواه ابن عباس رضي الله عنه ،

حين خص بني قريظة والنضير بالمثل والآية السابقة له -

* قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم بنو قريظة والنضير فإن معاندتهم

كانت لا^١ جل المال * . (١)

وتخصيص الحديث عن الكافرين من أهل الكتاب لا يمنع من عموم

حكمه لكل من ماثلهم من الكافرين في عداوته لهذا الدين . (٢)

وقد ذكر المفسرون في أسرار مناسبتها ووجوه شبهها وجوهاً فقالوا:

* شبه ما كانوا ينفقون من أموالهم في المكارم والمفاخر وكسب الثناء وحسن

الذكر بين الناس لا يبتغون به وجه الله بالزرع الذي حسه البرد فذهب

خطأ ما .

(١) أبو السعود ٢/٢٥٠ .

(٢) انظر الأ^١ مثال في القرآن الكريم ، د/ محمد جابر الفياض ص: ٣٩٠ .

وقيل هو ما كانوا يتقربون به إلى الله مع كفرهم .

وقيل ما أنفقوا في عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم فضاع عنهم

لأنهم لم يبالغوا بإنفاقه ما أنفقوه لأجله . (١)

والذي يظهر أن الوجه الأخير هو الذي يقتضيه سياق

الآيات .

(١) الكشاف ١/٤٥٧ .

من أسرار اللغة والنظم :

* مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا *

يصفـور القرآن الكريم المعنى العقلي المجرد في صورة
محسوسة بهذا التشبيه التشليلي الذي يمثل صدقات الكافرين ونفقاتهم
في بطلانها وذهابها وعدم منفعتها بمثل زرع أصابته ريح باردة
فاهلكته ولم ينتفع أصحابه بشيء منه بعدما كانوا قد علقوا الأمل به. (١)
ووجه الشبه : الهيئة الحاصلة من خيبة الأمل والحسرة على
ما بذلوه من جهد ومشقة كان يظن أنه ينتفع بشرتها .
والمشبه ما ينفقون من أموال في هذه الحياة الدنيا لمحاربة
دين الله .

والمشبه به هو الزرع الذي أهلكته الرياح الباردة وهذا
الزرع لقوم ظلموا أنفسهم فعاقبهم الله بإهلاك زرعهم .

ثم تأمل ما وراء قوله تعالى :

* هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا *

من التحقير لها والازدراء إذ أن إنفاقهم لم يتجاوز هذه

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢/ ٤٢٠ . القرطبي

الظرفية الفانية الزانية لأنها هي التي في حسمهم وتصورهم .
أموالهم
وازن هذا بأولئك الذين ينفقون في سبيل الله .

كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ

وقد اختلف العلماء هنا في المراد بالريح التي فيها صر .

هل هي الكفر الذي أهلك ما أنفقه الكافر ؟

أم هي النفقات التي أنفقوها في عداوة الرسول صلى الله عليه

وسلم فأهلك ما كان لهم من أعمال الخير ؟

وسياق الآيات يفصح عن ذلك .

فالأيات السابقة تتحدث عن أن النبي صلى الله عليه وسلم كان

قد نهى اليهود عن معاداته وأصحابه والكيد للمؤمنين ولكنهم فتنوا بما
لهم من حصون وأموال وأولاد . ومعرفة بفتنهم الحرب فأوقع الله بهم وعيده
فَقَلَبُوا وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ .

ولم تغن عنهم حصونهم شيئاً . وهذا النصر إنما أجراه الله على

أيدي المؤمنين فهم الذين تولوا إهلاكهم وتحطيم حصونهم فما أشبههم
بهذه الريح التي فيها صر أصابت زرع قوم ظلموا أنفسهم فلم يفتنهم
ما زرعوه شيئاً . (١)

(١) انظر الأمثال في القرآن ، محمد جابر الفياض ص : ٣٩٦

والصر : الإضرارُ التَّعَدُّدُ في الذَّنْبِ والتَّشَدُّدُ فيه والامتناعُ عن
الإقلاعِ عنه وأصله من الصَّرَّ أى الشَّدَّ (وَرِيحًا صَرَصَرًا) لفظه من الصَّرَّ
وذلك يرجع إلى الشَّدَّ لما في البرودة من التعَدُّدِ . (١)

فالصر : البرد الشديد .

وفي تنكير (ريح) ما يوحي بشدتها وقوتها . ولقد وصف سبحانه

المؤمنين بقوله :

أَشَدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ

والريح أهلكت الحرث بما فيها من صر أى برد بارد بالسف

البرودة .

قال تعالى :

وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدَّ بَدَثُ الْبَغَضَاءِ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخَفَى
صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ . (٢)

أرأيت إلى هذه الصدور التي تتقد غضبا وغيظا وهذه الأموال

التي تبذل لمحاربة الله ورسوله واشغال نار الفتنة والعداوة وبث الفرقة

(١) الراغب مادة (صر) .

(٢) آل عمران / آية ١١٨ .

بين المسلمين فناسب أن يكون إخمادها وإبطالها بهذه الريح الباردة
غاية البرودة لتقابل مع هذه النار المتأججة المستمرة في قلوب القوم
وفي أموالهم التي بذلوها حربا وعداوة وفتنة ولو كانت إعصارا فيه نثار
لزادت الموقف تأججا واشتعالا .

ثم تأمل كيف بدأ المشبه به بلفظ الريح لما لها من العناية
والاهتمام لأنها تمثل العذاب والتهديد والوعيد لقوم ظلموا أنفسهم
فتعدى ظلمهم إلى حرثهم هذا ما يمكن أن نستشفه من هذا القيد
وهو قوله تعالى :

حَرَّثَ قَوْمٌ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ

وما فيه من الإشارة إلى أنهم حادوا به عن غايته ووضعوه في غير محله
فوجب استئصاله وإتلافه : وهكذا يأتي أسلوب القصر في قوله تعالى :

وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ لِيُؤْكَدَ أَنْ اللَّهَ

سبحانه ما ظلمهم بإهلاك حرثهم ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا
به العقوبة . (١)

وفي تقديم (أنفسهم) أى أنهم ما يظلمون إلا أنفسهم ، وجاء
الفعل (يظلمون) بصيغة المضارع ليدل على دوام ذلك العمل منهم
وتجدده واستمراره .

وفي الآية الكريمة لطيفة بلاغية وهي (رد العجز على الصدر)

في قوله :

وَمَا أَظْلَمُ لَكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ تَظْلِمُونَ

تأمل ذلك بين (ظلم) وبين (يظلمون) .

وهذا العذاب الذى أصاب القوم (إنما هو عن ظلمهم لأنفسهم
لأن الإهلاك من سخط أشد وأبلغ) . (١)

والغاء في (فأهلكته) لبيان النتيجة المترتبة على ما تقدم

من إصابة الحرث .

وإذا ما عدنا إلى المواد اللغوية التي بني عليها التمثيل .

نجد : الريح والصر والإصابة والحرث والظلم والإهلاك ،

معاني توحى بهذا الجوال الشديد العصف والشديد الهول .

وتلك الأصوات المتتابعة في الآية كصوت هذه الريح

التي فيها صر وكيف تعبر الكلمة بمخارج حروفها عن ذلك.

ثم كيف ينتهي 'المشهد عند قوله (فأهلكته) .

وما وراء هذه الجملة من الهلاك والفناء وعدم الإنتفاع .

من أسرار التنوع في التشبيهات التي تمثل الإنفاق :

١- تدور المادة اللغوية التي بينت منها تشبيهات الإنفاق في
سبيل الله .

حول : الحبة - السنابل - المضاعفة - الجنة - الربوة - الوابل -
الطل .

ونلاحظ أن المثل الأول وهو قوله تعالى :

كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ

وإن شارك الثاني وهو قوله تعالى :

كَمَثَلِ جَنَّةٍ يَرْبُوها ثَوَابٌ

في معنى عام وهو العطاء والخصوبة والمضاعفة ، والأجسر
العظيم الذي يعود على صاحبه المنفق في سبيل الله إلا أن المثل
الأول يهتم ببيان مضاعفة الثواب ، هذه المضاعفة الحسابية التي تتمثل
في حبة أنبتت سبع سنابل . . الخ »

فهو تصوير للأضعاف وكأنها ماثلة بين يدي الناظر .

بينما نجد أن التشثيل الثاني يبرز أثراً آخر للإنفاق في سبيل

الله وهو ما يعود به هذا الإنفاق على قلب صاحبه المؤمن بحيث يعتاد
الخير حتى يطيب هذا القلب وتزكو هذه النفس وتخلص من الأكدار وتصبح

كالأرض الحرة الخصبة في الربوة العالية السماء وهي ممرعة بالخير
زاكية على كل حال إن أصابها وابل أشمرت وأمرعت وإن أمسك الوابل فهي
ممرعة مشمرة لأن معدنها كله خير فلا يصدر عنها إلا الخير.

٢ - من أسرار التنوع/التشبيه الأول بسيط التركيب لتحصل السرعة بتخييل
هذه المضاعفة الحسابية . ويحصل التحريض والترغيب وإثارة محور الطمع
في الإنسان فمن ذا الذي لا يحب الريح خاصة إن كان هذا الريح بهذه
المضاعفة التي هي أقصى ما تستشعره النفس الإنسانية .

بينما جاء التشبيه الثاني معقد التركيب لأن الأحوال هنسا
تكاثفت وتداخلت وتراكبت فالنفوس زاخرة مفعمة بمعاني الخير والطاعة
مبتغية مرضاة الله والنفقة فيه وارفة الظلال دائمة الأثمار فهي ظل
ظليل وثمر وفير وستر لصاحبها وحجاب من النار .

٣ - من أسرار/ لما كان لكل مثل بناؤه ونظمه كان لكل واحد أيضا تذييله
وفاصلته التي تلائمه وتنظم معه ومع السياق الذي وردت فيه فذيلت

آيات التمثيل الأول بقوله تعالى :

وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ

ليتناسب مع المضاعفة التي وعد الله سبحانه أنه يضاعفها لمن يشاء
من عباده .

بينما اختتمت آيات التمثيل الثاني بقوله تعالى :

* والله بما تعملون بصير *

ليتناسب مع تلك القلوب المتفاوتة في زكائها وإخلاصها فيجازى كلاً بعمله .

٤ - قد يكون من أسرار التنوع أيضاً الانتقال من الحسنى إلى المعنى وذلك تدرجاً في تربية النفس المؤمنة لأن الأمور المحسوسة أول ما تدركها النفس ثم ترتقي بعد ذلك .

٥ - وقد يكون من أسرار التنوع ما ذكره بعض المفسرين ومنهم الطبري والبقاعي^(١) إذ يقول :

" إن المراد بالتمثيل الأول نفقة الجهاد في سبيل الله لأن الجهاد واقع عند الحاجة والمنفق ابتغاء مرضاة الله ينفق في كل وجه دائم الإنفاق فكان مثله كالجزء الدائمة ليتطابق المشان بالمشولين فعمت هذه النفقة جهات الإنفاق كلها في جميع سبل الخير ."

(١) نظم الدرر ٧٧/٤ وانظر جامع البيان ٤١/٣ .

وتدور المادة اللغوية التي بنيت منها تشبيهات الإنفاق رثاء الناس،

والإنفاق المصحوب بالمن والاذى، وإنفاق الكافرين حول :

الصفوان - التراب - الوابل - الصلد .

ثم جنة من نخيل وأعناب - إعصار فيه نار - الكبر - الذريسة

الضعاف - ريح فيها صر - حرث قوم ظلموا أنفسهم .

وهذه التشبيهات وإن كانت تجتمع في معنى عام وهو بيان

احباط العمل وإبطاله وضياعه بعدما كان يأمل نفعه . إلا أن كل تشبيه

ينفرد بمعرض ومعنى يتناسب مع السياق الذي ورد فيه :

١ - المان والموءذى والمراي وإن كانا يشتركان في احباط

العمل إلا أن المراي ينفرد في التمثيل الأول وهو قوله تعالى :

كَمْ شَلَّ صَقْوَانٍ عَلَيْهِ رَبِّ فَأَصَابَهُ وَايْلٌ فَتَرَكَهُ وَصَلًا *

بيان أن نفقته لم تشرأصلاً لأن قلبه خال من الإيمان بالله .

واليوم الآخر وإن كانت تيدو كأنها صالحة للنفع والانبات بينما يصور لنا

التمثيل الأخير وهو قوله تعالى :

أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ

نفقة المان والموءذى وقد بلغت غاية الوفرة والفكرة والشراف ونهاية

ما تطمح إليه نفس ثم طرأ عليها ما أحبطها وأحرقها .

٢ - الذى أبطل نفقة / المرائي أضاع ثوابها وأزالها

وهي لم تشر بعد رباؤه الذى يمثله الوابل وهي علة داخلية تنس جوهر العقيدة .

بينما الذى أحبط نفقة المان والمؤمن ذى مَنه وأذاه والمؤمن

(يمثله إعصار فيه نار) وهما علتان خارجتان طرأتا عليه .

فالفسار الخارجى لم يمين الإنفاق أصلاً عليه وإنما خالطه

بعد اكتماله فأفسده وهو أحوج ما يكون إليه . لذلك يقول أبوحيان :

" إن الصدقة وقعت صحيحة ثم بطلت باليمن واللاذى " . (١)

بينما المرائي بالإجماع لم يأت بالعمل مقبولا صحيحاً وإنما أتى

به باطلاً مردوداً . (٢)

٣ - الرياء خير في ظاهره وسبب لنيل المدحة والثناء

من الناس وإن كان ضاراً وشفراً في باطنه وآثاره فهو أشبه بالوابل الذى

كان مظنة النفع فأصبح وبالاً عليهم .

(١) البحر المحيط ٣/٣٠٩ .

(٢) روح المعاني ٣/٣٥٠ .

بينما المن والاذى شرفي ظاهره نار في باطنه ، وأثره على النفس
إذ أنه يحرق الإنفاق ويمزق المجتمع ويشير الأحقاد وقديماً أناس
الشعراء والبلغاء في وصف حرارته وحرقته وشدة وطأته على النفوس ونفروا
منه لذلك هو أشبه بالإعصار الذي فيه نار.

٤ - من أسرار التنوع أيضاً أن يكون الجزء من جنس العمل .
فالمرائي عاد عليه رياؤه الذي هو مظنة النفع فأبطل عمله وأذهبه والمان
والموءذى عاد عليه منه وأذاه إعصاراً فيه نار جزاءً يجانس أعماله . . .

لتحرقهم أن استوفت غاية الحسنيين
والطيب والكمال وعند بلوغه غاية العجز والضعف والهوان فأى حسرة أعظم
من حسرته .

٥ - ومن أسرار التنوع بين الجنة التي احترقت بإعصار فيه نار
وبين الحرث الذي أهلك بالريح الباردة .

أن الإعصار الذي فيه نار يمثل المن والاذى وهو في حرقتهم
وتمزيقه لا واصر المحبة وتفتيت المجتمع كهذا .

بينما الريح التي فيها صر تشل الموءنين وقوتهم وأسهم
وشدتهم ثم ما هم فيه من برودة اليقين التي تخمد نار الحقد والشرك والكفر .

٦ - نفقة المان والموء ذى بنيت في أجواء رطبة ندية فأثمرت وأينعت

ثم طرأت عليها آفة أحرقتها فناسب أن تكون هذه الآفة إعصار فيه نار لإحراق

الجنة، بينما حرث هوء لاء الكافرين الذين ظلموا أنفسهم زرع في أجواء حارة

متأججة حقدا وبغضا وحربا لله ورسوله فاحتاج إلى ريح شديدة البرودة لإطفاء

جذوته وإهلاك ثمرته.

٧ - من أسرار التنوع هذا التقابل البديع بين المعاني ليزداد

رسوخها في النفس بين حبه أثمرت أيما إثمار وصفوان لم يثمر شيئاً

ثم بين هذا الصفوان الذى لم يتصدع لوابل السماء

وبين تلك الجنة بريرة التي آتت أكلها ضعيفين

بين جنة ثابتة ناسبة زاكية وبين جنة أصابها إعصار فيه نار فاحترقت،

بين هذا الإعصار الذى فيه نار وتلك الريح التي فيها صر،

بين تلك الآفة الباطنية من الرياء وتلك الآفة الخارجية من المن واللاذى،

بين ذلك التركيب البسيط في حية أنبتت سبع سنابل ، وذلك التركيب

المضاعف في جنة بريرة آتت أكلها ضعفين، وهكذا تجد التقابل في

القرآن الكريم بين معانيه عنصراً من عناصر بلاغته وإعجازه ومبانه .

الفصل الثالث :

التشبيه الذي يمثل الحق والباطل
وأسرار تنوعه .

المدخل :

ورد ذكر الحق والباطل في القرآن الكريم في مواضع كثيرة وعلى
صور بلاغية مختلفة جاء بعضها عن طريق الحقيقة والبعض الآخر عن طريق
التشبيه والمجاز بين فيها سبحانه أنه الحق وأن كتابه الحق وأن له دعوة الحق .

فقال تعالى :

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ (١)

وقال :

وَلَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ (٢)

وقال :

وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ (٣)

فهو سبحانه الحق ودعوته دعوة التوحيد هي الحق ومنهجهم

وقرآنه هو الحق .

يقابل ذلك أن ما يعبد من دون الله هو الباطل وأن كل مذاهب
وعقائد وتشريعات غير ما سندها وأنزلها هي الباطل وأن دعوة الشرك والإلحاد

(١) الحج / ٦٢ .

(٢) الرعد / ١٤ .

(٣) الرعد / ١ .

والكفر هي الباطل ، فالباطل معبود ومنهج ودعوة كما أن الحق إله
ومنهج ودعوة.

كما بين سبحانه أن الباطل لا محالة زائل وأن الحق

باق في الأرض فقال :

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ (١)

وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَّقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٢)

وقد مثل سبحانه للحق الذي هو كتابه وكيف تلتقه قلوب عباده واستجابات

له وموقفه مع الباطل وصراعه معه فقال :

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ

مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ

عَلَيْهِ فِي النَّارِ أَبْنَاءَ حُلِيَةٍ أَوْ مِتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ

اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ

فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ (٣)

كما مثل سبحانه للحق الذي هو كلمته ودعوته وهي أساس الدين وشعار

الإسلام ومفتاح دار السلام وهي كلمة التقوى والعروة الوثقى التي من

أجلها قامت السموات والأرض وفطر الله عليها جميع المخلوقات .

(١) الأنبياء / ١٨ .

(٢) الإسراء / ٨١ .

(٣) الرعد / ١٧ .

ومثل فيما يقابلها لكلمة الكفر والشرك فقال تعالى :

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ
تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ۝ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ
فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ①

والعناصر التي كونت أساليب التشبيه هنا هي الماء النازل من السماء

والسيل والزيد والمعادن التي يوقد عليها والحلوة والمتاع .

ثم الشجرة الطيبة وما جرى عليها من أحوال وصفات .

والشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض .

وسوف أجتهد بإذن الله في بيان أسرار التنوع وراء

تشبيه الحق بالماء والمعدن والشجرة الطيبة ،

وتشبيه الباطل بالزيد والشجرة الخبيثة .

قال تعالى :

أَنْزَلَ مِنْ

السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا
رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ
مِثْلُهُ ۚ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ
فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ
كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

من أسرار المناسبة :

تمتد أسرار المناسبة بين تشبيه الحق والباطل وبين بداية
السورة الكريمة التي من مقاصدها تقرير هذا الحق المتمثل في إنزال الكتاب
الذي يثبت وحدانية الله وتفرده عز وجل بالخلق والإيجاد والإحياء
والإماتة والنفع والضرر.

وتفرده سبحانه بالألوهية والربوبية وإحاطة علمه بكل شئسي
ودفع الباطل المتمثل في تلك الشبه التي يثيرها المشركون بالله يقول تعالى :

* الْمُرْتَلِكُ آيَاتُ الْمَكْتَبِ وَالَّذِي نَزَّلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ (١)

ثم تأتي الآيات لتقرر دلائل هذا الحق وآياته في الوجود
وأنها ظاهرة ظهوراً لا خفاء فيه ولا التباس في السموات والأرض والشمس
والقمر والليل والنهار، والزرع والشمار، في البرق الذي يخيف ويطمع، والرعد
الذي يسبح بحمده، والملائكة^{التي} تخاف وتخضع، والصواعق التي يصيب بها
من يشاء، والسحاب الثقال والمطر في الوديان، والزبد الذي يذهب جفاء

ليبقى ما ينفع الناس ومع ذلك تجد وسط هذا الكون المسيح الضارع

قوما :

يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١)

ثم تأمل وانظر إلى هذا الظامي * وحده وسط هذا الكون السخي

الذى لا زالت سماؤه تمطر ورقه يخيف ويطمع .

يقول عز وجل :

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ
لَهُمْ شَيْئًا إِلَّا كِبَاسٌ مَّاءٍ لَّيْسَ لَهُم شَيْءٌ عِندَهُ
وَمَا هُمْ بِبَالِغِيهِ
وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢)

ما أقرب الحق إليه وما أدناه من بين يديه وقد تلبس به الكون

كله فهذه أدلته باهرة ناطقة يردد صوتها ويبرق ضوءها يبشـر

وينذر ولكن :

هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ
شُرَكَاءَ خَلَقُوا الْخَلْقَ فَشَبَّهَ الْخَلْقَ عَلَيْهِمْ (٣)

ثم قارن هذا الظامي * وحده وسط طبيعة ريا تتدفق بالحياة

والخصوبة، بأولئك المخبئة قلوبهم الرطبة الندية يسيل فيها ماء الهدى

والحق والنور . يقول تعالى :

(١) الرعد / ١٣ .

(٢) الرعد / ١٤ .

(٣) الرعد / ١٦ .

قال تعالى:
 أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ
 مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ
 عَلَيْهِ فِي النَّارِ أَبْغَاءَ حُلِيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بُوَيْجٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ
 اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ (١)

وهكذا تمطر سماء الحق فيحتمل السيل زبدا رابيا ، ويصهر

المعدن فيطفو زبد مثله :

فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ

بهذا التمثيل الرائع البديع الذي مثل بين أيديهم في الأجواء البارقة
 الراعدة ، والسماء تمطر والماء يتدفق بين الجبال وعلى التلال ، يهبط
 سريعا من كل مرتفع ، حتى يملأ الأودية ، فإذا بها تسيل في منظر
 بديع ، يملأ النفس رغبة ورهبة وهي ترى وتسمع هدير السيل ودويسه
 وقوة إندفاعه وجيشانه يشنف الأذان الواعية ويملأ القلوب الخالية
 فتخبت له وتتقار إليه وتحسبها لشدة تأثيرها به وإقبالها عليه كأنها
 تسيل ، أفمن يعي من هذا الحق الذي أهاج الكون كله هل يستوى

هو ومن يجصر ، أم هل تستوى ظلمات الكفر والشك والنفاق مع نور
الحق والإيمان واليقين ؟

بهذا التشيل البديع ينتصب الحق مرثيا مشاهداً في أعظم
آية من آيات الله في الكون في هذا الماء الذي جعل الله منه كل شيء
حيا لميشل الحق ، بل هو عين الحق لشدة المماثلة .
يقول الزمخشري : " هذا مثل ضرب الله للحق وأهله والباطل
وحزبه ، كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلاً لهما ، قَمَّلَ الحق
وأهله بالماء الذي يُنْزِلُهُ مِنَ السَّمَاءِ ، فَيَسِيلُ بِهِ أَوْدِيَةَ النَّاسِ فَيَحْيِيهِمْ
بِهِ وَيَنْفَعُهُمْ أَنْوَاعَ الْمَخَافِعِ ، وَبِالْقَلْزِ (١) الذي ينتفعون به في صوغ الحل
منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفة ولولم يكن الحديد الذي فيه
البأس الشديد لكفى به ، وإِنَّ ذَلِكَ مَا كَثَرَ فِي الْأَرْضِ بَاقٍ بَقَاءً ظَاهِراً يَثْبُتُ
الْمَاءُ فِي مَنَافِعِهِ ، وَتَبْقَى آثَارُهُ فِي الْعَيُونِ وَالْآبَارِ وَالْحُبُوبِ وَالشَّارِ التِّي
تَنْبِتُ بِهِ مَا يَدْخُرُ وَيَكْنُزُ ، وَكَذَلِكَ الْجَوَاهِرُ تَبْقَى أَزْمَنَةً مُتَطَاوِلَةً ، وَشِبْهُ الْبَاطِلِ
فِي سُرْعَةِ اضْطِحَالِهِ وَوَشْكَ زَوَالِهِ وَانْسِلَاخِهِ عَنِ الْمَنْفَعَةِ بِزَيْدِ السَّيْلِ الَّذِي
يَرْمِي بِهِ وَبِزَيْدِ الْغَلْزِ الَّذِي يَطْفُو فَوْقَهُ إِذَا أُذِيبَ " . (٢)

(١) المعادن الموجودة في الأرض .

(٢) الكشاف ٣٥٦/٢ .

وقال أبوحيان :

قال ابن عطية : " صدر هذه الآية تنبيه على قدرة الله تعالى

وإقامة الحجة على الكفرة ، فلما فرغ ذكر ذلك جعله مثلاً للحق والباطل

والإيمان والكفر والشك في الشرع واليقين به . (١)

" وقيل هذا مثل ضرب به الله تعالى للقرآن والقلوب/الحق والباطل

فالماء مثل القرآن لما فيه من حياة القلوب ، ومقاء الشرع والدين والأودية
مثل للقلوب .

ومعنى (بقدرها) أى على سعة القلوب وضيقها ، فمنها ما

انتفع به فحفظه ووعاه وتدبر فيه فظهرت ثمرته وأدرك تأويله ومعناه ،

ومنهم من ذلك بطبقة ، ومنها دونه بطبقات ، والزيد مثل الشكوك والشبه ،

وإنكار المنكرين أنه كلام الله ودفعهم إياه بالباطل ، والماء الصافي المنتفع
به مثل الحق . (٢)

ويقول صاحب التحرير والتنوير (٣) :

" شبهت هيئة نزول الآيات وما تحتوى عليه من إيقاظ النظر

فيها فينتفع من دخل الإيمان قلوبهم على مقادير قوة إيمانهم وعلمهم .

(١) البحر المحيط ٣٨٧/٥

(٢) المصدر السابق ٣٨١/٥

(٣) التحرير والتنوير ١١٢/١٣

ويعر على قلوب لا يشعرون به وهم المنكرون المعرضون .

ويخالط قلوب قوم في تأملونه فيأخذون منه ما يشير لهم شبهات وإلحاداً .
كقولهم " هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم أنكم لفي خلق جديد " ومنه
الأخذ بالمشابهة . . . شبه ذلك كله بهيئة نزول الماء فانحداره على الجبال
والتلال وسيلانه في الأودية على اختلاف مقاديرها . ثم ما يدفع من نفسه زبداً
لا ينتفع به ثم لم يلبث الزبد أن ذهب وفنى والماء بقي في الأرض للنفع^(١) .
وقد جاء في الحديث النبوي ما يماثل هذا المعنى " عن أبي موسى
رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : مثل ما بعثني الله به من
الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت
الكلاً والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فتبع الله بها الناس
فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء
ولا تنبت كلاً فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله تعالى به
فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به^(٢) .
وسنقف عند التحليل والمداولة لآيات التمثيل على ذلك إن شاء الله
ونرى كيف توءم كد سياق الآيات هذه المعاني وتشير إليها في تناسق بديع
وإحكام جليل وسبك دقيق وهذا الذي نصفه لغة القرآن لا يتجاوز لغتنا
التي تقصر عن وصف بلاغته وتعجز عن الإحاطة بمعانيه وإلا فإن القرآن يعلو
ولا يعلو عليه . وهو في إعجازه في نظمه وتراكيبه وصوره ومعانيه خارج عن
حدود طاقة البشر .

(١) التحرير والتنوير ١٣/١١٧ .

(٢) مختصر صحيح البخاري المسمى (التجريد الصريح) كتاب العلم ص ٤٠ .

من أسرار اللغة والنظم :

قال تعالى :

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا

(أنزل من السماء) : أى من جهة السماء ، والمطر لا ينزل إلا

من السماء، ولكنه على طريقة :

(١)

خَرَجَ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ كَالسَّيْلِ فَسَالَتْ مِنْ تَحْتِهَا مَاءً

للتأكيد المعنى ، والإيحاء إلى سمو هذا الماء ، وعلو قدره ، وصفائه ، وطهارته ، وأنه

ليس من مصدر آخر إلا السماء ، ويقابل هذا المعنى في المثل لـ

أن " الحق والقرآن " لا ينزل إلا من السماء ، وفي ذلك إثبات لوحدانية

الله ، وأن الخير لا يكون لهذه الأرض إلا منه ، وتشريعها .

وفي تنكير (ماء) ما يوحي بهذا الفيض السخي ، الذي نزل من

السماء ، أو المراد به نوع منه وهو ماء المطر الذي لا يحمل إلا الخير . (٢)

(١) النحل / ٢٦ .

(٢) انظر (أبو السعود) ٥ / ٦٤ .

وهكذا يأتي الإنزال لهذا الماء دليلاً مشاهداً على قهره عزَّ وجلَّ لكل شيء لأن حمل الماء في العلولا يمكن إلا عن قهره، كما أن رفع السماء بغير عمد لا يكون إلا عن قدرة وقهره، وكذلك إنزال الماء في وقت دون غيره دليل على ذلك. (١)

(فسالت أودية بقدرها) :

مادة (السين والياء واللام) أصل واحد يدلُّ على جريانٍ وامتدادٍ . (٢)

(أودية) : أصل الوادى الموضع الذى يسيل فيه الماء ومنه يسكن المفرج بين الجبائين وادياً وجمعه أودية . (٣)

وهو اسم فاعلٍ من ودى إذا سال .. ويسمى الماء وادياً إذا سال . (٤)

(١) نظم الدرر ١٠ / ٣١٤ .

(٢) مقاييس اللغة مادة (سيل) .

(٣) الراغب مادة (وادى) .

(٤) انظر الفخر الرازى ١٩ / ٣٧ .

ثم تأمل هذا التوافق العجيب، والتقدير الديدع، لهذه القلوب
التي سالت بالحق، وقد هيئت بأصل فطرتها وطبيعتها، لتكون الموضع
الذي يسيل أو يتدفق فيه نور الحق، وهدي القرآن، لذلك كانت استجابتها
للحق سريعة حين أسالها فسالت، وأجراها فجرت، وامتدت، وأمدت
بالحياة، فكان في سيلانها امتداداً لحركة الحق في الوجود، وشاتاً له، ومقاءً
لنفعه في الأرض .

وقد جاءت (أودية) على صيغة النكرة، لأنها تلك الواقعة
مواقع المطر، المتعرضة لفيوضاته ونفحاته، فليس المراد جميع الأودية
بل نوع خاص منها، لأن الأمطار لا تستوعب الأقطار، وإنما تنزل على
طريق المناومة، فتسيل بعض الأودية دون بعض . (١)

وفي هذا دليل على أن من أقبل على الحق وعرض نفسه عليه
لم تجد نفسه بدا من الإيمان به، لأن الفطرة مهيأة لقبول ذلك، وأن من
أعرض، وأنكر، كان كمن يغطي فطرته، ويحجب بصره، ويفل عقله، وينأى
بنفسه عن هذا الخير والنور .

(١) انظر (أبو السعوي) ١٤ / ٥ ، روح المعاني ١٣ / ١٣٩ .

كما يوحي التكرار أن هذه الأودية على قلتها أودية عجيبة
 الصفة، عظيمة القدر، تخرج عن المعتاد والمألوف من أودية الناس، كيف
 لا وهي أودية في صدور الذين آمنوا، واستجابوا لربهم، يسيل فيها
 ماء الحق، فيخصب جديدها، ويروى ظمأها، ويبعث فيها الحياة الدائمة
 الباقية التي لا ينتهي عطاؤها، ما دامت تستمد من هدى القرآن .
 وسواء كان المعنى المراد بقوله (فسالت أودية) معنى (الأودية)
 الحقيقي التي فيها الإسناد مجازي كما في (جرى النهر) أي ماؤه ، أو
 أريد بها معناها المجازي والإسناد فيها حقيقي ، من باب إطلاق اسم
 المحل على الحال فيه .

فكلا المعنيين لا تضيق عنه لغة القرآن ، فهذا الحق يمتد في
 العروق ، ويجرى في القلوب ، وهي لشدة تأثرها به ، واستجابتها له ، وإقبالها
 عليه ، كأنها تسيل .

وقوله (بِقَدَرِهَا) في موضع الحال من أودية ، والقدر بمعنى
 المقدار ، واللفظ له وجهان :

الأول : أي سالت بمقدارها الذي عينه الله تعالى من
 الماء ، واقتضته حكمته . في نفع الناس ، لأن المطر مثل للحق ، وهو نافع
 خال من الضرر . (١)

(١) انظر (أبو السعود) ١٤ / ٥ ، والبحر المحيط ٥ / ٣٨١ .

الثاني : أويقدر صغرا لا ودية وكبرها، لأن النافع ذلك، (١)

بحيث لا يفيض الماء فيضر، لأن من السيول جواحف، وزواحف، تجرف
الزراع والبيوت والأشجار. (٢)

وإزاء تفاوت الأودية في المقادير اختلاف الناس، وتفاوتهم، في
قابلية الانتفاع بما نزل من الحق، وهذا يتناسق ويتلاءم مع اختلاف
الشرايط التي تسقى بما واحد . يقول تعالى :

وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ
وَجَنَّتْ مِنْ أَعْنَبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ
وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِبَعْضِهَا عَلَى الْبَعْضِ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)

وكانها باختلافها تحدث التكافل ، والتكامل ، إذ أن كل شجرة
تختص بمنفعة أو تمنح الجسم فائدة يحتاجها ، كما أن كل قلب
يحمل بالقدر الذي يطيقه فهمه ووعيه ، ولو كانوا جميعا سواء لما احتاج
قلب إلى قلب، ولا عقل إلى عقل، ولما حدث التآلف، والتعاون، ولا استغنى كل

(١) حاشية الشهاب ٥ / ٣٢٢

(٢) التحرير والتنوير ١٣ / ١١٨

(٣) الرد / ٤

عن الآخر وهكذا تمنحك لغة القرآن معنيين لا تضاد بينهما فهو بالقدر
الذى ينفعهم ، فقيه حياة القلوب وصلاح المعاش وزاد المصداق وهم يحملون
منه بالقدر الذى تطيقه جبلتهم وطبيعتهم .

* فاحتمل السيل زيدا رابيا *

ذهب أكثر المفسرين الى أن (اَحْتَمَلَ) بمعنى (حمل) جاء فيه

(اِفْتَعَلَ) بمعنى المجرد .

والذى يظهر لي - والله أعلم - أن إيثار اَحْتَمَلَ على حَمَلَ لزيادة

في معناه وقوة في مبناه ، لأن الاحْتِمَالَ : رَفَعَ الشَّيْءَ عَلَى الظَّهْرِ بِقُوَّةٍ
الْحَامِلِ لَهُ . (١)

" وَتَحَامَلْتُ إِذَا تَكَلَّفْتُ الشَّيْءَ عَلَى مَشَقَّةٍ وَالْإِحْتِمَالُ الْغَضَبُ . .

لأنهم يقولون احتمله الغضب وذلك إذا أزعجه " . (٢)

ووراء ذلك جهد أهمل الحق واصطبارهم على احتمال هذا الغشاة

المجتمع من الأوساخ والأكدار التي تقذف بها نفوس الكافرين والمشركين

من الشكوك والشبه والإنكار والتكذيب .

(١) نظم الدرر ١٠ / ٣١٥ .

(٢) المقاييس مادة (حمل) .

وجاء " السيل " معرفاً لأنه معهود مذكور بقوله تعالى :

(سالت أودية) وإن لم يجمع، لأنه مصدر بحسب الأصل . (١)

ثم تأمل هذا المعنى، واستقص النظر إليه، بتفريغ لب وجمع

قلب، وسكون طائر، حتى كأنك لا تسمع في هذا الكون إلا صوت هذا

السيل، الذي أهاج بمسيرته الوجود، وملاً القلوب رغبةً ورهبةً .

ثم قارنه بتلك الطائفة المؤمنة، أو الجيل القرآني الفريسي،

الذي تلقى الحق والوحي مباشرة من فم السداء، ولم يحل بينه وبين

سرعة الاستجابة لهذا الحق حائل . ثم انظر أنتجد في تاريخ البشرية

كلها سيلاً كسيله، أو حركة في الوجود تضاهي حركته في قوتها،

وما أضغته على البشرية من عظيم نفعها، وجليل فضلها ؟

إنه السيل الذي لا زال دويه في أذن الزمان، ولا زالت آثاره

في الأرض قدوة لمن أراد أن يحتذى ويفي بعهد الله ولا ينقض الميثاق (٢)

لتكون حركته في الوجود امتداداً لذلك السيل الفريد .

(١) انظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٢٣٣/٥ .

البحر المحيط ٣٨٠/٥ .

(٢) انظر آية ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢ من سورة الرعد .

ثم تأمل كيف جاء التعبير عن هذا السيل بالافراد ، ولم يجمعه ، فلم يقل (فاحتلت السيول زبدا رابيا) وإنما أفردته وجعله سيلاً واحداً ، ومصدراً لكل سيل بعده ، لأنهم في جهادهم وحركتهم في الوجود ضد الباطل ، أمة واحدة ، وقلبا واحداً ، وجسداً واحداً ، ^{وهم} ^{بنين} ^{معرضون} ^{واحد} كما التقت تلك الثمرات بنفعها في جسد واحد ، لتعده بطاقة واحدة ، وان اختلفت منافعها ، وتنوعت طعموها ، فهي طاقة واحدة ، ولغاية واحدة هي حفظ هذا الجسد من التلف والفساد ، الذي يؤدى الى الفناء .

والفاء " في قوله تعالى :

فَسَأَلَتْ أَوْدِيَةَ بِقَدْرِهَا فَاَحتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا

لها موقع دقيق ، رتبت فيه المعاني بعضها فوق بعض ، فاحتكت سببها وهي في تسلسلها وتتابعها تحكي قصة واحدة ، قصة الحق في فيضانه من جناب المقدس (١)

على قلوب خالية عنه ، متفاوتة في الاستعداد ، ظامئة إليه أشد ما يكون الظم ، وما أن يبلغ هذه الأجواف الظمئة حتى تبعث فيها الحياة ، وتسيل متدفقة بالخصب والرواء ، ولكن يأبى الباطل بشبهه ، وشكوكه ، وإنكار منكره ، إلا أن يقف في طريق الحق ، وما هو إلا تراب الأرض

الذي تطوءه الأقدام ، يرفعه السيل عند اشتداد جريانه ، فيظهر زيدا
رابياً ويحاول باعتلائه ، وانتفاخه ، أن يحجب وجه الحق ، ويعكر صفو جوهره
ونقاء معدنه ، وما فيه من حياة القلوب ، ونفع الناس ، ولكنه لا يلبث أن يضمحل
ويزول أمام اندفاع الحق ، وقوة جيشانه ، فكان حركة الحق في الوجود
هي التي أظهرت الباطل ، وهي التي دفعته ومزقته فذهب جفاً .

(١)
وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ

أى : ومن الذي يوقد عليه الناس من المعادن كالذهب والفضة والنحاس
ما يسبك في النار لطلب الزينة ، أو الأشياء التي ينتفع بها ، كالإواني / مثل
زيد السيل ، لا ينتفع به كما لا ينتفع بزبد السيل .

وهذه الجملة معطوفة على الجملة الأولى لضرب مثل آخر .

وهذه الواو التي تقتضي المغايرة توحى بأن للحق مع الباطل

موقفاً آخر ، أو توحى بأن هناك باطلاً آخر ، يماثل الباطل الأول في صراعه

مع الحق .

قوله تعالى :

وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ

" ما " لها وجهان عند المفسرين فهي إما أن تكون تبعيضية،

وإما أن تكون ابتدائية دالة على مجرد كون الزبد مبتدئا وناشئا من

المعدن لا تبعيضية ، ويعللون ذلك بأن فيه إخلالا بالتمثيل لأن

المقصود من التمثيل بيان عدم استواء الحق والباطل وأنها أمران

مختلفان اختلاف الأعمى والبصير والظلمات والنور ، فكيف يكون الباطل

بعض الحق وإنما يخالطه من غير مداخله فيه تفسد جوهره وإنما

توجب صفاءه وجلاله . (١)

وكان هناك نوعين من الزبد زبد راب فوق الماء من غير

مداخله فيه وزبد مختلط بالمعدن لا يظهر إلا عند الإيقاد عليه فسي

النار فيظهر ويعلو ظهر المعدن لخفته وانعدام وزنه ، ولكنه ظهور

وشيك بزواله وذهابه وفناءه .

(١) انظر أبو السعود ١٤/٥ روح المعاني ١٣٠/١٣

ووجه المسألة بين هذين الزيديين في كونهما يتوالدان من
الأساخ والأكدار . تأمل هذا وقارنه بما يقابله من المثل له ، فهسل
تجد أساخا واقذاراً تمكر صفو الحق كهذه الشبه والشكوك والتكذيب
والإنكار الذي يخالط النفوس، ويطمس بصيرة القلوب ٢ .

وهذا الزيد الطافي الرابي الظاهر إنما هو - والله أعلم -
ما واجهته دعوة الحق ، من تكذيب وإنكار من غير لبس ولا خفاء . فقد كانت
الحرب بين الحق والباطل واضحة المعالم ، بارزة السمات ، ولا يحمل هذه
الامة الكافرة على هذه المواجهة إلا ثققتها بقوتها المادية ، على بساطة
عقليتهم وجمودها في الكيد والدس ، وكلما أوغل الإنسان في الحضارة ،
والتقدم العلمي ، زاده ذلك دهاً ومكراً ، وتلبساً ، لذلك كان ما يلاقيه
الإسلام من أهل الكتاب، واليهود خاصة - وهم أهل علم - أشد وأنكى
لأن حريهم للحق وغزوهم لآله بطرق أخفى، وأشد دهاً ومكراً وفتكاً
بالنفوس .

ولكن هذا الزيد الخفى لا تلبث أن تظهره الشدائد ، والمحن
التي تعربها الأمم . فَأَمَّا الزَّيْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً من دعوات هادئة
واعتقادات فاسدة ، وأعمال وأقوال ، وشعارات ، وأحزاب .

وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَمَا كُنْتُ فِي الْأَرْضَ (٢٠)

وهذه الابتلايات والمحن التي تتلقا بها الأمة، إنما هي بما كسبت أيديهم . تأمل قوله تعالى (يوقدون) وكيف أضمر فاعله مع عدم السبق لظهوره إيجاباً بأن الذين يوقدون قوم مندسون في هذه الأمة يسمون بإيقاد الفتن، والمحن، ابتغاء متاع قليل، وحلية بالية فانية .

والإيقاد على الشيء على قسمين : أحدهما : ألا يكون ذلك

في النار كقوله تعالى فَأَوْقِدْ لِي يَٰكُهْنُ ، والثاني :

أن يوقد على الشيء ويكون في النار . (١) رغبة في إزابتها كالمعادن .

ثم تأمل كيف يفيض هذا القيد (في النار) معنى التوكيد ،

والتأسيس، والمبالغة . فالتوكيد حاصل من أنه يوقد عليها، وأنها في النار (٢)

وأن الإيقاد يتجدد، ويتكرر حدوثه، وهذا ما يفيد الفعل (يوقدون) .

ثم انظر إلى موضع العناية والاهتمام، والإعتراف في الآية الكريمة ،

تجدد في هذه الجملة المفعولة صلة ، إذ الغرض كامن فيها لذلك

(*) الرعد / ١٧ .

(١) الفخر الرازي ٣٨ / ١٩ .

(٢) انظر حاشية الشهاب ٢٣٣ / ٥ .

قدست هنا وما وراء تقديمها من تشويق للسامع لترقب المسند إليه .

يقول ابن عاشور : * وفي ذلك من بديع صنع الله إذ جعل

(١)

الزبد يطفو على أرق الأجسام وهو الماء ، وعلى أغلظها وهو المعدن *
ووراء ذلك أن الجيل الأول بلغ في الرقة والشفافية وصدق الإيمان وليونته ،
واخبات النفس ، ووجل القلب لله ليونة هذا الماء الذي خالط قلبه
وعذوبته ، ثم إنه لطول الأمد ، وتراخي العمر ، والغفلة عن المنهج ،
ومخالطة غيره له قسا وصلب ، ولم تعد حالة الليونة تظهر إلا عند الابتلاء
والفتنة ، حين يصفو معدنه ، ويطرد عنه الزبد .

فالغرض إذاً كامن في هذه الجملة وهي قوله تعالى :

وَمَا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ (٢)

لأنه تمثيل وتصوير حالة الافتتان والاختبار والابتلاء ، ومعالجة الأشياء
بالشدة لتبين معادنها ، وتصفيه جواهرها ، فينتفع بالخالص المصفى
(ابتغاء حلية أو متاع) .

ولأن ذكر الإيقاد عليها سبب حصول الزبد وطرده .

(١) انظر التحرير والتنوير ١١٩/١٣ .

(٢) الرد / ١٧٠ .

ولما كان الإيقاد على هذه المعادن فيه إشارة إلى التهاون

بها، بوضعها في النار، وإذلالها بالإيقاد عليها إيقاداً مستعلياً، (١)

يتناسب مع مقام الكبرياء، والقهر، ولأن الواحد القهار هو القادر

على تسخير هذه النار لإذابة هذه المعادن، أتبع ذلك ببيان منفعتها،

وأن الغاية من الإيقاد عليها شدة رغبة الناس في الانتفاع بها من حلية

أو متاع أي أن هذا تكريم لها، وتشريفه بإعدادها للنفع والبقاء. (٢)

إِبْتِغَاءُ حَلِيَّةٍ أَوْ مَتَاعٍ

تأمل كيف تتحول وتخلص هذه المعادن من تلك الحالة

الشديدة، والمكابدة والعناء، إلى هذا الجمال والبهاء، إلى حلية تخطف

ببريقها الأبصار، وتشنف بوسوستها الآذان و تشنف بمحبتها القلوب .

يقول أهل العلم (٣) :

(٤)

" وفي ذكر متعلق ابتغاء تنبيه على منفعة (ما يوقدون) "

ولعل وراء حرصهم على صوغ الحلى التي يتزين بها الناس تعبيراً عن

رغبتهم في التمتع بمن يتحلّى بهذه الحلية، أو بمتاع الحياة الدنيا، فإن الزينة

(١) انظر نظم الدرر ٣١٥/١٠ .

(٢) انظر حاشية الشهاب ٢٣٣/٥ .

(٣) نظم الدرر ٣١٦/١٠ .

(٤) البحر المحيط ٣٨٢/٥ .

والحلية والبهاء والجمال ، كان ولا يزال عند الناس من مباحج الحياة

ومقاصدها . يقول عز وجل :

(*)

وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ

والمتاع : * ما يتخذ من الحديد والنحاس وما أشبهها من

الآلات، التي هي قوام العيش، كالأواني والمساحي، والآت الحرب، وقطاعات
الأشجار والسكك وغير ذلك * . (١)

والمتاع من التمتع الإمتداد والإرتفاع وكل ما يُنتفع به على
وجه ما فهو متاع ومُتعة * . (٢)

وفي تنكير (حلية) و (متاع) ما يشير إلى مدى حرص
الناس وشدة رغبتهم في التمتع بهما، ولو كانت حلية فانية، ولو كان متاعاً إلى
حين . كما يوحي التنكير بأنها حلية بالفة رائعة، ومتاع عظيم، يمتد
بهم ويرتفع وإن هذا حاصل ما دام الإيقاد على هذه المعادن مستمراً
متجدداً، فالنفع من وراءها يعظم، ويكبر، حتى يصل إلى أوج فتنته وبهائه،

(*) الرعد / ٢٦ .

(١) البحر المحیط ٥ / ٣٨٠ .

(٢) الراغب مادة (متع) .

وهذا ما آل إليه حال البشرية اليوم من شدة الافتتان بهذه المعادن
وتسخيرها لمتعة الإنسان وراحته.

ولعل وراء ذلك - والله أعلم - أن الله ^{لإنما} يجتلي عباده بما
يصفهم، ويجلي جوهرهم، ويطرد الزبد والباطل عنهم، إنما يفعل ذلك
ابتغاءً لتحليتهم، بالأحوال السنية، والأخلاق الزكية، التي بها جمال الرجال
وقوام صالح الأعمال. (١)

إِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيََتْ

فَإِنْ هُمْ نَهَبَتْ أَخْلَاقَهُمْ نَهَبُوا

فهو متاع خالد، دائم، باق، خال من المضرة، وما يكدر صفو العيش، وهناءته
لذلك يأتي التعقيب :

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى

قال أهل المعاني: الحسنى هي المنفعة العظمى في الحسن،

وهي المنفعة الخالصة عن شوائب المضرة، الدائمة الخالية عن الانقطاع،
المقرونة بالتعظيم والإجلال. (٢)

(١) انظر القرطبي ٣٠٦/٩

(٢) الفخر الرازي ٣٩/١٩

تأمل ذلك الذي أعد للمحسنين، وقارنه بهذه المنفعة العاجلة،

والحلية الحالية إلى حين .

وقوله تعالى ، **زَيْدٌ مِّثْلُ** لا اشتراكهما في الزبديّة .

وفي تنكير (زيد) ما يوحي بضآلته، وحقارته، والازدراء به وإن

أعجب الناس كثرته، وظهوره، وعلوه، في بادىء الأمر إلا أنه مضمحل، وشيك

الزوال، منسلخ عن المنفعة والبقاء .

(*)

كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ

جاءت هذه الجملة المعترضة لتفصل مآلهما، بعد أن تحدثت

عن حالهما .

" وَالضَّرْبُ : إيقاعُ شيءٍ على شيءٍ، ومنه ضَرْبُ الْأَرْضِ بِالْمَطَرِ،

وَضَرْبُ الدَّرَاهِمِ اعْتِبَارًا بِضَرْبِ الْمِطْرَقَةِ .. وَضَرْبُ الشَّلِّ هُوْمِنْ ضَرْبِ

الدَّرَاهِمِ، وهو ذِكْرُ شيءٍ أَثَرُهُ يَظْهَرُ فِي غَيْرِهِ " . (١)

(*) الرد / ١٧ .

(١) الراغب مادة (ضرب) .

ويقول الشريف الرضي : " والمراد بضرب المثل (والله أعلم) معنيان، أحدهما: أن يكون تعالى أراد بضربها تسييرها في البسملاد وإدارتها على ألسنة الناس من قولهم ضرب فلان في الأرض إذا توغل فيها، وأبعد في إقاصيها، والمعنى الآخر في ضرب المثل أن يكون المراد نصبه للناس بالشهرة تستدل عليه خواطرهم، كما تستدل على الشيء المنصوب نواظرهم، وذلك مأخوذ من ضربت الخباء إذا فضيت. " (١)

وقوله " كذلك " فيه إشارة إلى أن ما ذكر في الآيات السابقة قد بلغ من الكمال مبلغاً عظيماً بحيث صار نموذجاً كاملاً ومثالاً للحق (٢) والباطل، وكأنه لكامل التماثل بينه وبين ما مثل به عين الحق والباطل، وقولنا: إن هذا المثل يشبه الحق والباطل فيه إغفال لهذا المعنى الدقيق، فجاءت هذه الكاف لتفيد بلوغ المعنى تمامه، وتحقيق التشيل وتثبيته وتوكيده .

(١) تلخيص البيان في مجازات القرآن ص ١٢٣ للشريف الرضي .

(٢) انظر بلاغة القرآن، أحمد بدوي ص : ٢١٥ .

تأمل كيف كان من علمائنا من يتذوق ويدرك أن وجوه الشبه لا
تنحصر في وجه واحد بل قد تمتد وتتسع وذلك منهج عبد القاهر الذي
أغفلناه في دراستنا بعد ذلك .

وهذا الوجه الذي صرح به في (التمثيل) إنما صرح به
لما فيه من البشارة والندارة لأهل الحق والباطل ، وأما أهل الباطل فهم
الزائلون البائدون ، وأما أهل الحق فهم الباقيون الدائمون .^(١) وهكذا
يبدأ في التفصيل بما هو أهم في الذكر .

وعطفت جملة (فأما الزيد) على قوله (فاحتمل
السيل زيدا رابيا) بعد أن تفرعت على التمثيل وجي " بأما " للتوكيد .
لأن النفوس لا ترى إلا الظاهر العالي الرابي فتظن أنه لن يزول فجاء
التوكيد لهذا الخبر ليصرف أذهانهم إلى هذا الكلام الذي فيه ما فيه من
خفي البشارة والندارة .^(٢)

(١) انظر التحرير والتنوير ١٣ / ١٢١ .

(٢) المرجع السابق ١٣ / ١٢١ .

"وأفرد (الزبد) ولم يشن وإن تقدم (زبدان) لاشتراكهما في مطلق
الزبدية، فهما واحد باعتبار القدر المشترك". (١)

وفي هذا إشارة إلى أن الباطل وحزبه ملة واحدة، وإن كثرت
أحزابهم، واختلفت أساليبهم، وطرقهم في الكيد والطمع، وإثارة الشبه
والفتن . وسواء أكانوا ظاهرين مجاهرين بالكفر، أو متلبسين مندسين
عاملين في الخفاء، فكلهم تجمعهم صفة الزبدية، والغشائية، التي لا خير
فيها ولا منفعة ومن ثم فهي غير باقية .

فَأَمَّا الزَّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً

والجفاء : " وهو ما يرمى به الوادي ، أو القدر من الغشاء
إلى جوانبه ". (٢)

يقال : أَجْفَأَتِ الْقُدْرُ زَبْدَهَا أَلْقَتْهُ إِجْفَاءً وَأَجْفَأَتِ الْأَرْضُ
صَارَتْ كَالْجَفَاءِ فِي ذَهَابِ خَيْرِهَا ". (٣)

(١) البحر المحيط ٣٨٢/٥

(٢) الراغب مادة (جفا) .

(٣) المرجع السابق وانظر المقاييس مادة (جفو) .

" وفي هذا وعيد للمشركين بأنهم سيبادون بالقتل ويبقى
المؤمنون " .

وإرا استعمال " يذهب " بدلا من " يمضي " أن عين الباطل
ومعناه ذاهبان، أي أهله وما خلفوه من مناهج، وعقائد، ودعوات وشبه، ومنكرات،
لأن الباطل قد يهلك أتباعه ويبقى منهجه .

ولكن كيف يذهب هذا الباطل أيذهب عالما رابيا ظاهراً كما كان،
وكما غلب على قلوب البشر واستعبدها وأذلها له .. أم يذهب منبذاً
مستهجننا حقيراً ذليلاً مبرحاً مطروحاً كما تطرح الفضلات والزوائد التي لا
خير فيها ؟

يذهب الباطل " جفاء " ويذهب معه كل باطل يتجدد
حدوثه وقيامه إلى أن يورث الله الأرض الصالحين .

وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَمَا بَالُ الْمُرْسَلِينَ (١)

وجاء التعبير عن " الماء " الذي يشمل الحق بالاسم الموصول
وصلته (بما ينفع الناس) إيماء إلى وجه بناء الخبر وهو البقاء في الأرض ،
وفيه من التعريض بالمشركين ما فيه لأنهم لا نفع فيهم للناس .. وهذا المعنى
يتطابق مع قوله تعالى :

* أَنْ الْأَرْضُ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * (١)

و (النفع) كلمة تدل على خلاف الضرر : (٢)

ويرى صاحب روح المعاني أن قوله تعالى :

”وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ“

يعني من الماء الصافي الخالص من الغشاء والجوهر المعدني الخالص من الخبث . (٣)

وفي بناء الجملة على هذه الصورة (مَا يَنْفَعُ النَّاسَ) إشارة إلى

تعدد وجوه النفع واستمراره استمراراً تجديداً تظهر به وجوه أخرى ، كبيرة وعظيمة من المنافع ، والعالم / كله يشهد ^{اليوم} بعظم نفع الماء والمعدن في إقامة هذه الحضارة العلمية الباهرة التي بهرت الألباب واختلبت النفوس ، والله هذا القرآن !! .

فَيُكَتُّ فِي الْأَرْضِ

* الْكُتُّ : كلمة تدل على تَوَقُّفٍ وَانْتِظَارٍ * . (٤)

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٥ .

(٢) المقاييس ٥/٤٦٣ .

(٣) روح المعاني ١٣/١٣٢ .

(٤) المقاييس ٥/٣٤٥ مادة (مكث) .

وعدم استعجال ، فالحق باق في الأرض ببقاء منهجه الذي

تكفل الله بحفظه :

(١)

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ

واق ببقاء أهله :

(٢)

الَّذِينَ إِنَّمَا كُنَّا هُمْ فِي الْأَرْضِ قَامُوا الصَّلَاةَ

وفي قوله تعالى :

(٣)

كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ

جمع ثم تقسيم ، فيبدأ بذكر الزيد أولاً ، لأن ذكره أهم فهو الظاهر
المنظور الذي أغروخدع ، وملك واستعبد ، فالنفس في توق لمعرفة مآله
وقدرة الله على الذهاب به ، ولأن الحق هو المتأخر في الوجود
لاستمراره .

والرأى الراجح : إن ذلك الترتيب من قبيل اللف والنشر غير المرتب ، وهو

مراعاة للملاءمة بين حالتي الذهاب والبقاء ، وبين ذكرهما ، فان المعتبر

إنما هو بقاء الباقي بعد ذهاب الذهاب ، لا قبله ، لأنه ما دام الباطل مستمرا

في الوجود فسيحول بين الحق وبين الانتفاع به على الوجه الذي يسر له ،

ولكن ذهاب الباطل خلوص للحق للانتفاع به على أكمل وجه وأعظمه .

(١) الحجر / ٩٠

(٢) الحج / ٤١

(٣) الرعد / ١٧

وبعد ذلك فسيظل الحق وأهله في انتظار ولهفة وشوق وتوق
للمنفعة الكبرى التي دونها كل منفعة ، وللنعيم الأبدى الذي ليس فوقه
نعيم ، وفي ضرب هذا المثل تأكيد للإيمان باليوم الآخر ، وبالبعث والجزاء
الذي جاء الحق لتشبيته وتقريره في النفوس .

لذلك تأتي البشارة بقوله تعالى :

لِّلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ

* والحسنى هي المنفعة العظمى في الحسن وهي المنفعة الخالصة
(١)
عن شوائب المضرة الدائمة الخالية عن الانقطاع المقرونة بالتعظيم والإجلال *

كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١)

* كذلك * لتحقيق والتوكيد أى مثل ذلك الضرب العجيب :

(يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) في كل باب إظهارا لكمال اللطف والعناية في الإرشاد
، وفيه تفخيم لشأن هذا التمثيل وتأکید لقوله سبحانه :

يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ (٢)

وهكذا يبين الله الحق والباطل حالا ومآلا .

(١) الفخر الرازي ٣٩/١٩ .

(٢) الرعد / ١٨ .

(٣) الرعد / ١٧ .

قال تعالى :

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً
كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُوْنِي
أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ
اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يثبتُ
اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي
الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾

من أسرار المناسية :

وحدة الرسالة والرسول هما الحقيقتان اللتان تدور حولهما
سورة إبراهيم عليه السلام ، فدعوتهم واحدة ، وغايتهم واحدة ، وتلك هي
الكلمة الطيبة التي ضرب الله لها مثلا :

كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (١)

فهي الكلمة التي دعا إليها كل رسول ، كلمة التوحيد ، وعليها يقوم الدين
كله ، يقابلها في الجانب الآخر كلمة خبيثة ، هي كلمة الكفر والشرك التي
حطت أتباعها على التكذيب بالرسول ، ومجادلتهم بالباطل ، وكان بينهم
ذلك الحوار الطويل ، الذي انتهى بتكبيس الكفار في نار جهنم ، وإحراق
أعمالهم ونسفها :

كَرَّمَادٍ أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ (٢)

ولما وعد الله عباده ورسله بأنه سيمكن لهم في الأرض ، ويهلك الكافرين ،
ناسب أن يمثل لهذا التمكين والتثبيت ، ويمثل لما يقابله من اجتثاث أهل
الباطل وهلاكهم .

(١) إبراهيم / ٢٤ .

(٢) إبراهيم / ١٨ .

من أسرار اللغة والنظم :

(أَلَمَّا تَرَ) الخطاب هنا لكل من تصح منه الرؤية فعليـه
أن يرى، لا نه مثل تناهي قدره، وعظم شأنه، فعلى كل راء تتأتى منه
الرؤية أن يراه، ولا يغفل عنه، وفي ذلك أيضاً إيهام بالرغبة في تعميق
صورة هذا المثل في وجدان كل راء، لتكون له حافز على السعي لتحصيله
والفوز به، وهذا ما نستوحيه من قول الفخر الرازي :

" إِنْ الشَّجَرَةَ الْمُوصُوفَةَ بِالصِّفَاتِ الْأَرْبَعِ الْمَذْكُورَةِ شَجَرَةٌ شَرِيفَةٌ
يَنْبَغِي لِكُلِّ عَاقِلٍ أَنْ يَسْمَى فِي تَحْصِيلِهَا وَتَمَلُّكِهَا لِنَفْسِهِ لِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ
أَمْرٌ مَطْلُوبٌ التَّحْصِيلُ ". (١)

وفي إشار التعبير (بكيف) دلالة على أن حالة ضرب المثل ذات
كيفية عجيبة من بلاغته وانطباقه . (٢)

وعندما استقصيت هذه الصيغة في القرآن الكريم أجدها ترد إلا مع
هذا المثل من الأمثال القرآنية، وفي ذلك ما يؤيد كد تفرد هذا المثل بهذه
الكيفية العجيبة، وذلك حفاوة بالمعنى وإيقاظاً للذهن لترقب ما يرد بعد
هذا الكلام.

(١) الفخر الرازي ١٩/١٢٣ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٣/٢٢٣ .

وفي ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير، وتصوير للمعاني .
ثم تأمل ما تشيره صيغة هذا الفعل الماضي (ضرب) من زيادة التشويق لمعرفة هذا المثل وما مثل به، وهذا الاسم الجليل من قوله (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا) يوحى بآدى ذى بدء بما تنطوى عليه الكلمة الطيبة من معاني الألوهية الخالصة لله .

والكلمة الطيبة هي كلمة التوحيد .

وعن ابن عباس: شهادة أن لا إله إلا الله .

وفي تنكيرها ما يوحى بأنها كلمة لا يكتنه قدر جلالها فهى

كلمة عظيمة القدر، كاملة في الصفة الموصوفة لها (طَيِّبَةٍ) .

وفي ذكر أداة التشبيه في قوله (كَثِيرٌ طَيِّبٌ) ما يشير إلى أن

هذه الشجرة الطيبة الموصوفة بها الكلمة الطيبة ليست هي عينها، بل

دونها منزلة ورتبة فالأمثال التي يضربها الحق جل جلاله لتقريب هذه

المعاني ، مستقاة من أنفسنا، ومن هذا الكون المحيط بنا، فالكلمة كلمته، والشجرة

مخلوقته، فلا عجب أن يضرب بها مثلاً لكلمة تنهى قدرها وفضلها، ليكون ذلك

من العظة والعبرة ما فيه .

وحسبك ما يوحىه تجردها من التعريف لتكون بصفتها هذه وحدها

لا تضاهيها أشجار الدنيا وقد اجتمع لها طيب النظر والرائحة والثمرة وعظم

الانتفاع بها فحصل لها بذلك كمال الطيب . (١)

ويشير الرازي إلى أن الآية مقصودا شريفا لا ينكشف بالنظر

في المفردات وحدها وإنما بالنظر في تتابع الكلمات وما بينها من علاقات

وينوه بهذه الصفات اللاحقة للشجرة وهي صفات أربع :

١ - طَيِّبَةٌ

٢ - أَصْلُهَا ثَابِتٌ

٣ - وَقَرَّعُهَا فِي السَّمَاءِ

٤ - تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا .

ويعقب على هذه الصفات الأربع بأنها صارت بها هذه الشجرة شجرة

شريفة ينبغي لكل عاقل أن يسعى في تحصيلها وتلكها لنفسه سواء أكان

لها وجود في الدنيا أو لم يكن . (٢)

قال تعالى :

أَصْلُهَا ثَابِتٌ * وَقَرَّعُهَا فِي السَّمَاءِ

ثبت كلمة واحدة وهي دَوَامُ الشَّيْءِ . (٣)

(١) الفخر الرازي ١١٩/١٩ .

(٢) انظر الفخر الرازي ١١٩/١٩ .

(٣) المقاييس (ثبت) .

ثم تأمل هذا التركيب تجد تقديم كلمة (أصلها /) وهذا دال

ثابت

على كمال العناية والاهتمام . وهو تقديم رتبة .

يقول الألوسي (تقديم الأصل للعناية به ويان أنه ضا رب بعروقه

في الأرض) (١)

متمكن فيها آمن ما يعترى الأصول من الاقتلاع والانقطاع وفي

مجيء الصفة على صيغة اسم الفاعل ما يؤيد كد ثبات هذه الصفة ودوامها

وهذا لب ما يرمى إليه التشبيه كما أن فيه إحياء بما يداخل النفس من

البشاشة والأنس حين تعلم أن هذا الشيء الطيب باق دائم لا يزول ولا

ينقضي فيكمل فرحها ويتم سرورها .

(وَفَرَّغَتْهَا فِي السَّمَاءِ) :

أى أعلاها في جهة العلو والصعود .

وفي هذا تأكيد لصفة ثباتها وكمال طيبها ، إذ أن ارتفاع

الأغصان وقوتها في التصاعد يدل على ثبات الأصل ورسوخ العروق كما

يدل ارتفاعها على نقاء ثمرتها وطيبها وطهارتها عما يشوبها من

شوائب الأرض فيما لو كانت قريبة رانية . (٢)

(١) روح المعاني ١٣/٢١٣ .

(٢) المصدر السابق بتصريف ١٣/٢١٣ .

تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا :

أى تعطي ثمرها كل وقت وقته الله لإثمارها : (١)

فثمرتها حاضرة في كل الأوقات والانتفاع بها غير منقطع ثم يزيد

هذه الشجرة تشريفا وتكريما وفضل عناية قوله عز وجل : (بإذن ربها)

وما دامت الشجرة تؤتي أكلها بإذن ربها فيا طيب ثمرها وركته وبإدام

عطائها والأمن من زواله أو انقطاعه ، لأنه المربي الذي تربوا الأشياء

بين يديه وتنمو إلى ما لا حد .

ثم في هذا إشارة إلى أن شجرة الكلمة الطيبة أعني شجرة الإيمان

هي أيضا مرهونة بإذن الله فالطاعة والذكر والاستمساك بشرع الله كل ذلك

بفضل هدايته وتوفيقه وتشبيته لعبده لأن المربي الذي يربي خلقه ويتعهد

نفوسهم بالتزكية والتقية .

ثم في هذا العطاء المضمون كل حين دليل من أعظم الأدلة

وأكدتها على أن جذور هذه الشجرة وأصولها ضاربة في أعماق الأرض

متكئة منها تمدّها بالحياة والرواء والعطاء وفيه إشارة إلى أن شجرة

الإيمان إنما تكون أيضا حين يتغلغل في أعماق النفس وتخالط بشاشته

القلوب .

وجه تطبيق المثل :

وقد ذهب المفسرون إلى أن وجه تشبيه الكلمة الطيبة بمعنى شهادة أن لا إله إلا الله بهذه الشجرة المنعوت بها ذكر هو أن أصل تلك الكلمة ومنشأها هو الإيمان ثابت في قلوب المؤمنين فمتى اعتقد المؤمن هذه الكلمة واطمأنت إليها نفسه منحت ثباتها وطيبها وتفرغت عنها وونيت عليها الأعمال الصالحة والأفعال الزكية التي تصعد إلى السماء فينال ببركتها ثوابها فهو الشجرة التي تؤتيها كل حين . (١)

وللفخر الرازي لطائف ودقائق في تفسير هذه الآية نقف على

بعض منها فمن ذلك قوله :

"إن المراد بالكلمة: معرفة الله والاستغراق في محبته وطاعته لأنه لا لذيق ولا طيب في الحقيقة إلا هذه المعرفة وثبوت الأصل في شجرة المعرفة الإلهية أقوى وأكمل لأنها ثابتة في جوهر النفس يدها الذي لا يجرى عليه تغير ولا تبدل ولا فناء وأن هذه الشرات التي تؤتي كل حين أثر لرسوخ شجرة المعرفة في أرض القلب فيكون نظره بالمعبرة

(١) روح المعاني ٢١٣/١٣ يتصرف .

وسمائه بالحكمة ونطقه بالصدق والصواب وكلما كان رسوخ شجرة المعرفة
في أرض قلبه أقوى وأكمل كان ظهور هذه الآثار عنده أكثر ثم لا يزال يصعد
منها كل حين ولحظه ولمحه كلام طيب وعمل صالح وخضوع وخشوع —
وكاء وتذلل كثر هذه الشجرة* (١)

وتفسير الثمرات بأنها الصالحات عينها لا يخالف ما ذهب إليه من
قال بأنها الثواب المترتب على العمل الصالح لأن هذا يكون في حالة
رقى المؤمن من الذي يصبح العمل الصالح نفسه قرّة عينه وثمرته إيمانه ويدعم
ذلك قوله عليه السلام :

(وجعلت قرّة عيني في الصلاة) (٢)

وذلك يترجح لدينا ما سبق أن أشرنا إليه من أن المراد إثبات وتأكيّد
صفة الثبات والرسوخ لهذه الشجرة الإيمانية وأن تصاعد فروعها ووفرة قُطوفها
وعدم انقطاعها أعظم دليل على امتداد جذورها في تربة القلب وتمكنها
تمكناً لا ينقطع ولا ينقلع .

-
- (١) تفسير الفخر الرازي ١٢٠/١٩
(٢) رواه النسائي وأحمد في الزهد وابن أبي شيبة والحاكم في المستدرک
وابن سعد والبخاري وأبو يعلى وابن عدى قال الحافظ ابن حجر في
(تلخيص التحبير) إن أسناده حسن .
نيل الأوطار للشوكاني ١٥٧/١

وصفة الثبات هذه ذكرت في مواطن عديدة من القرآن الكريم

منها تثبيت قلبه (عليه السلام) بنزول القرآن منجما وتثبيتته للمؤمنين:

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُّسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا (١)

ومنما تثبيت المؤمن لا نفسهم باتباع ما يوعظون به والإيفاق

في سبيله :

وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا (٢)

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ
(٣) وَتَثْبِيَتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ

ومن مجموعها نخلص إلى أن القرآن والقول الثابت والعمل الصالح والجهاد

والإيفاق في سبيل الله أي فعل الطاعات من أعظم العوامل التي تثبت

المؤمنين في الدنيا والآخرة وكلها تنفرع عن الكلمة الطيبة .

(١) النحل / ١٠٢ .

(٢) النساء / ٦٦ .

(٣) البقرة / ٢٦٥ .

بالتمثل
ويقول صاحب عمدة القارى : (نما الحكمة بالشجرة ؟

قلت : لأن الشجرة لا تكون إلا بثلاثة أشياء : عرق راسخ وأصل قائم وفرع
عال ، فكذلك الإيمان لا يقوم ولا يثمر إلا بثلاثة أشياء : تصديق بالقلوب
وقول باللسان وعمل بالأيدان . (١)

ثم يأتي في مقابل تلك الصورة الخصبة الموهبة في الثبات والبقاء
المغذية بالحياة والعطاء صورة على النقيض تماما من ذلك لم يضرب الله لها
مثلا تنبيهها إلى وجوب روءيتها لأن تناهي خبيثها وعدم نفعها ^{بلغ} بلغها
لا يخفى على أحد . وإنما وضعها في هذه الصورة المحسوسة :

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ

ليكون أدعى لفكرة النفوس منها والوقوف على ضلالها وطلانها واضمحلالها .
وفي تغيير الأسلوب فلم يقل : (ألم تركب الله مثلا كلمة
خبيثة) وإنما قال (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ) إيدان بأن ذلك غير مقصود
بالضرب والبيان لأنه أمر ظاهر يعرفه كل أحد وربما كان ذلك لكثرة
وشيوعه وغلبيته على أكثر أهل الأرض :

قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ (٢)

(١) عمدة القارى ٥ / ١٩

(٢) المائدة / ١٠٠

وَمَثَلُ كَلِمَةِ خَبِيثَةٍ . الكلمة الخبيثة هي كلمة الكفر أو الدعاء
إليه أو الكذب * أو كل كلمة لا يرضاها الله تعالى . (١)

وفي تنكيرها ما يوحي بأنها كلمة تناهى خبثها وعظم قبحها .
(كشجرة خبيثة) : أى كشجرة منكرة خبيثة تتميز عن الشجر
في أنها لا نفع فيها ولا خير يرجى منها فهي بالغة الخبث ، وأداة التشبيه
توحي بأن الكلمة الخبيثة أكثر خسة وأعظم خبثا من هذه الشجرة فينبهنا
فضل بين وفي ذلك من الارزاء بها والإهانة والتحقير لشأنها ما فيه .
يقول ابن فارس (خَبَثَ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الطَّيِّبِ يُقَالُ خَبِثَ أَيْ
لَيْسَ بِطَيِّبٍ وَالْخَبِيثُ فِي نَفْسِهِ) . (٢)

أَجْنُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ

أى اقتلعت من أصلها وحقيقة الاجتثاث أخذ الجثة وهي شخص
الشيء كلها . (٣)

(١) روح المعاني ٢١٤ / ١٣ وأبو السعود ٥ / ١٤٤ .

(٢) المقاييس (خبث) .

(٣) روح المعاني ٢١٤ / ١٣ .

يقول ابن فارس " ولا يكون مجشواً إلا وقد قُلع بجميع أصوله
وعُروقه حتى لا يُترك منه شيء " (١).

ثم تأمل كيف عبرت هذه الكلمة بصورتها وجرسها وخصائصها

الصوتية عن معنى الاجتثاث أبلغ تصوير وأعظمه .

إن أن كلمة (اجتثت) ، يشير بنائها الصوتي إلى معنى الاقتلاع

والقطع وذلك أن الحرف الأول فيها وهو همزة الوصل : ومخرجه مسن

أقصى الحلق وكأنه يشير إلى امتداد الجذور ثم أنه امتداد واه ضعيف

لأن (همزة الوصل) همزة ساقطة في أكثر أحوال نطق الكلمة ثم هي

ليست أصيلة في بنية الكلمة وإنما اجتثبت تسهيلاً للنطق بها وربما كان في

هذا (والله أعلم) أن امتداد هذه الجذور امتداد ضعيف وكأنه ممتد بمقدار

ما تكون به الشجرة شجرة يعني يلامس التربة ملاسدة، ثم في حرف الجيم

الخارج من وسط اللسان انتقال إلى ما يقارب السطح، ثم في هذه القلقة

حركة النزاع، ثم في هذه الشاء إشارة إلى نهاية هذا النزاع والشاء مخرجها

من طرف اللسان، ثم في هذا النفس والانتشار من صوت الشاء إشارة

(١) المقاييس مادة (جث) .

إلى ما يكون في التربة من بعثرة وانتشار من أثر هذا النزع .

مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ : أى استقرار .

(١) (يقال : قر الشيء قرارا كقولك ثبت ثباتا)

وهذه الجملة كالتممة للصفة الثانية فقول :

أَجْنُتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ

فيه إيحاء بأنها قد تستقر في موضع آخر فأكد عدم استقرارها (مالهـ

من قرار) .

وفي حرف (من) ما يوئد نفي القرار مطلقا فليس

لها ولا أقله .

من أسرار التنوع في التشبيهات التي تمثل الحق والباطل :

وهكذا نجد أن المثلين وإن كانا يجبدوان أنهما صنوان متشابهان في الشكل والنتيجة إلا أن هناك أسراراً لتنوعهما لا يظهرها إلا التحليل الواعي المتأنى الدقيق ومدارسة الآيات كلمة كلمة ، وحسن الإصغاء إلى خفي وحيها ودقيق نبيضاها . (١)

ولم أقف في أقوال المفسرين على أسرار هذا التنوع إلا ما ذكره ابن عاشور حيث يقول :

" وهذا تمثيل آخر ورد استطراداً عقب ذكر نظيره يفيد تقريب التمثيل لقوم لم يشاهدوا سيول الأودية من سكان القرى مثل أهل مكة وهم المقصودون ، فقد كان لهم في مكة صواغون فقرب إليهم تمثيل عدم انتفاعهم بمثل ما يصهر من الذهب والفضة* .

١ - والذي يظهر لي - والله أعلم - أن هذه الآية في أول أمرها هم أهل البادية في قوة بيانهم وقوة أبدانهم وصحة طباعهم وسلامة أذواقهم وهم الذين شهدوا نزول الوحي من السماء ، تسيل به هذه القلوب المؤمنة ،

(١) التحرير والتنوير ١٣/١٠٢ .

فلا غرابة أن يفجر لهم ينوع الحق ماثلا في هذه الصورة التي ألفوها
وخالطت نفوسهم وملأت قلوبهم إعجابا وافتتانا وهكذا تجد التشييل
في القرآن الكريم ، يخاطبهم بعناصر مستوحاة من بيئتهم ومحيطهم حتى
تأنس نفوسهم بما يرون ويقر في قلوبهم ويثبت ثبات هذا الحق ومقاؤه .
وحتى تستكمل الصورة البيانية جمالها وقوتها ، جاء التعبير عن
هذه المعاني بهذه الألفاظ الصاخبة الجرس القوية الأداة ، والتي تلائم
هذه الجبلة البدوية الدشة الخلق المتينة الطباع فكان قوة التعبير
هنا تتبع قوة المعنى . (١)

بينما تجد التشييل في المثال الثاني الذي يعبر عن صورة مستوحاة
من بيئة حضرية ، جاء بالألفاظ لينة رقيقة تناسب طبيعة الحضرة وما هم فيه من
حلية ومناخ ، فقال تعالى :

(٢)

وَمَا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ

وتدور المادة اللغوية التي كونت أساليب التشبيه وعناصره حول الماء النازل
من السماء - الأودية المختلفة المقدار التي سالت به والزيد الرابي الذي
احتلمه السيل عند جريانه وجيشانه .

(١) انظر النظم القرآني ، محمد الدبل ص ١٣٣ .

(٢) انظر المصدر السابق .

وتدور مادة التشبيه الثاني عن نشوء زيد يماثل الزيد الأول
المعادن التي يوقد عليها في النار ابتغاء الانتفاع بها لحليمة أو
متاع .

وهذا التشبيه للحق والباطل وان كان يشترك في معنى عام
هو بقاء الحق وثباته وزوال الباطل واضمحلاله إلا أن كل صورة منه
تتميز بتناول جانب من جوانب هذا المعنى لم يتناوله الآخر :

١ - التشبيه الأول : يمثل الحق الذي نزل من السماء فتلقته
هذه الطائفة المؤمنة واستجابت له فتصدى لها أهل الباطل
بالتكذيب والإنكار وقد جاء التعبير عنه بالفعل الماضي في -
(أنزل) و (سمات) و (احتمل) والذي يفيد تحقق ذلك
ووقوعه فهو تمثيل لصورة قامت وكملت وتمت .

بينما نجد التمثيل الثاني جاء التعبير عنه بلفظ المضارع
(يوقدون) الذي يصف الحق أو أهله وهم في هذه الحالة
التي يوقد فيها عليهم في صورة متجددة مستمرة كلما خبت
نارهم زادوها استعاراً . وما وراء ذلك من الجهد والمعاناة
والمكابدة والصراع المتجدد المستمر فهو يصف صورته متكرره في كل
زمان ومكان .

٢ - من أسرار التنوع أن الزيت الأول أظهرته حركة السيل فسي
اندفاعه وقوة جيشانه .

والثاني أظهرته حركة الإيقاد على هذه المعادن
في النار والخليان والانصهار فكان قوة الماء في اندفاعها
تمثل قوة النار في إظهار الزيت وطرده .

٣ - من أسرار التنوع أن الشلين وان كانا يشتركان في

المعاقبة والنتيجة وهي زهاب الباطل وبقاء الحق

فَأَمَّا الزَّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ

لكنهما يختلفان فذلك الماء يستقر في منابعه وعيونه لينتفع

الناس به حياة لكل شيء وهذا المعدن تتخذ منه الحليّة

أو المتاع فكان نفع ذلك للروح إذ به حياة كل شيء

ونفع هذا للمعاش وما به قوام الحياة من حلية ومتاع .

هذا

٤ - من أسرار التنوع/التقابل في المعاني : ففي المثال الأول " أجواء هائلة

ندية تتناسب مع ظمأ القوم وخلق تلك الأودية التي تشمل

القلوب من الماء والحياة ليحبسها وجفافها .

وفي المثل الثاني : أجواء حارة شديدة الحرارة تتناسب

مع صلابة هذه المعادن وقسوتها و مع شدة رغبة الناس في

الانتفاع بها ما به قوام معاشهم وحياتهم الدنيا ، فتناسب

أن يكون هذا الجو الشديد الحرارة لتتصهر فيه هذه المعادن

وتتخلص ما شابها وينتفع بها .

٥ - من أسرار التنوع أن : المثل الأول يصف حالة قوم استجابوا لله وقوم لم يستجيبوا ،

لذلك أعقب التمثيل بقوله عز وجل :

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا
لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا
وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ
وَبِئْسَ الْمِهَادُ ①

بينما المثل الثاني يصف الحق وهو يوقد عليه وما وراء ذلك من

المعاناة والجهد والمكابدة والصبر على هذا الإيقار ثم خلوصه

منه نافعاً أعظم ما يكون النفع وأكمله وأتمه .

ولذلك ناسب ولاء م أن تأتي الآيات بعد ذلك تصف حالة

هؤلاء الذين صبروا ابتغاء مرضاة ربهم ولم ينقضوا الميثاق وما أعد لهم

يقول سبحانه :

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ۖ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ
بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (١)

إلى قوله تعالى :

وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرُسُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ
جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ
وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢)

تأمل قوله (يدخلون عليهم من كل باب) وكيف أحاط بهم

النعيم وأصبحت وفوده تغدو عليهم من كل باب ، ومقابل ما كان يحاط بهم

(١) الرعد / ٢٠ .

(٢) الرعد / ٢٢-٢٣ .

ويدخل عليهم من كل باب من كيد وفتن ومحن .

ثم تأمل قول الملائكة لهم والذي يتلاءم مع ما كانوا يعانونه

وصبروا عليه :

(١) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ

والذين جانبوا الحق في التشيل الثاني ومن عناهم القرآن الكريم بقوله :

وَمَا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلِهِ

والذين تصفهم الآيات بشدة فسرهم بالحياة الدنيا واقبالهم على متعتها .

يصرح السياق القرآني بصفاتهم وما أعد لهم مقابل ما أعد للمتقين

يقول تعالى : وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ

(٢) مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ

أُولَئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ

(١) الرعد / ٢٤ .

(٢) الرعد / ٢٥ .

تأمل اللبنة والطرء التي تتلاءم مع قوله تعالى :

فَأَمَّا الزُّبُرُ فَيَزْدُ هَبٌ جُفَاءً

وأما المثان الآخران اللذان يصوران كلمة التوحيد وكلمة

الكفر فتدور مادتهما وعناصرهما اللغوية المكونة لاسلوبيهما حول

الشجرة الطيبة الموصوفة بالأصل الثابت والفرع العالي والاشمار

الدائم.

والشجرة الخبيثة وما يتعلق بها من أحوال ومواصفات كاجتثاثها

من فوق الأرض وعدم قرارها .

وهذان المثان يشتركان مع المثان السابقان في معنى عام

هو بقاء الحق وثباته وذهاب الباطل واضمحلاله إلا أنهما يأتيان كنتيجة

مرتبة على ما سبق .

١ - فمن أسرار التنوع / يأتي تمثيل الإيمان والتوحيد بالشجرة الطيبة متناسقا

ومتناسبا مع تمثيل الحق بالماء الذي أنزل من السماء لأن الشجرة الطيبة

هي ثمرة ذلك الماء السام الطاهر النقي الذي استقر في الأرض فأثمر

وأينع فكانت ثمرته هذه الشجرة الطيبة في قلب المؤمن والتعبير

بشجرة واحدة طيبة يمثل وحدة الرسالة ووحدة الغاية التي دعا إليها

الرسول جميعا وهي المقصد الرئيسي الذي تدور عليه هذه السورة سورة

إبراهيم .

فذلك الماء المبارك إنما عم الوجود ليرسخ جذور هذه الشجرة
الطيبة ويثبت أصولها فتورق فروعها وتوثر أكلها بإذن ربها كل
حين كما أن هذه الشجرة تعبير حي رائع للتمكين الذي وعد الله به
عباده المؤمنين :

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ (١)

وإذا كان الحق نزل ليثبت دعائم هذه الشجرة الإيمانية
الطيبة فإنه ولا شك يقطع جذور الشجرة الخبيثة شجرة الكفر والشرك
كما ذهب بذلك الزيد الطافي الرابي .

وبعد* أن ذهب بزيد الباطل من الشبه والشكوك التي طافت
فوقه في بداية دعوته أو خالطت معدنه ، ولكنه بعد رسوخه وثباته وتمكنه
في الأرض فإنه يجتث الباطل بجميع أصوله وعروقه ، وهكذا :

وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ

فلا ثبات لهم ولا استقرار .

الفصل الرابع :

التشبهات التي تمثل أعمال الكافرين
وأسرار تنوعها .

المدخل :

تناول القرآن الكريم أعمال الكافرين في مواضع كثيرة منه يبين فيها أنها باطلة لاغية لا منفعة ترجى منها ولا خير فيها فهي حابطة مهما عظمت وكثرت .

وقد جاء هذا البيان على طريق الحقيقة دون تشبيه كما جاء عن طريق التشبيه .

ومما جاء عن غير طريق التشبيه قوله تعالى :

فَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلُّهُ كَانُوا يَعْمَلُونَ ①

وبين سبحانه سبب احباطها وبطلانها - وهو أنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر :

وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حِطَّ عَمَلُهُ ②

سواء أكانوا مجاهرين بالكفر أو مبطنين ذلك كالمنافقين .

ومع ذلك فقد زينت لهم أعمالهم وحسنت في أعينهم حتى

تعادوا في ضلالهم وترددوا في غيهم . يعمهون .

(١) هود / ١٦ .

(٢) المائدة / ٥٠ .

قال تعالى :

(١) أَفَمَنْ ذُرِّيَّتِهِ لَبَسُوا رِيشَ الْغَنَىٰ ذَٰلِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَنُسُلِهِمْ غَافِلِينَ

وقال :

هَلْ تُنتَظَرُونَ إِلَّا الْآخِرِينَ ۚ أَعْمَلُوا ۖ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

(٢)

وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا

كما بين القرآن الكريم أثر أعمالهم تلك على قلوبهم وكيف حجب

عنهم نور الهدى والحق والإيمان .

خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ

أَبْصَارِهِمْ غَشَاةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣)

كما جاء الحديث النبوي الشريف : يؤكّد ذلك ويقرره وكيف

تنطبق الأعمال على القلوب فتحول بينها وبين التمييز بين الخير والشر

وتطمس فيها نور الفطرة .

(١) فاطر / ٨ .

(٢) الكهف / ١٠٤

(٣) البقرة / ٧ .

قال عليه الصلاة والسلام :

(تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا فأى قلب
أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى
يصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات
والأرض والآخر أسود مرابدا كالكوزمجسيا لا يعرف معروفا ولا ينكر
منكرا إلا ما أشرب هواه) (١)

وأما ما جاء في القرآن الكريم عن طريق التشبيه فقد ورد في
مواضع عديدة وسور مختلفة .

جاء في سورة إبراهيم :

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ
اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَيْهِ شَيْئًا
ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ⑤

كما جاء في سورة النور :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ
الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ

(١) مختصر صحيح مسلم تحقيق ناصر الدين الألباني ص ٥٢٨ .

(٢) إبراهيم / ١٨ .

حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ أَوْ ظَلَمْتَ فِي مَجْرٍ لِّجِي يَغْشَاهُ مَوْجٌ
مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمْتَ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ
يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ①

كما جاء وصف ذلك في سورة الفرقان :

وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ أَخْرَجَهُمْ مِنَ ظُلُمَاتٍ إِلَى نُورٍ ۖ وَكَفَى بِعَذَابِهِمْ عَذَابًا ۖ ②

ولاحظ أن عناصر التشبيه التي كونت أساليبه هي :

الرماد - الريح - اليوم العاصف - / سرباب - بقية - الظلمات -

البحر اللجي - وأحواله من ترادف أمواجه وكثافتها - السحاب

الهباء المنشور .

ولكنها يجمعها معنى عام هو فناء هذه الأعمال وطلانها وأنها لا حقيقة

لها ولا منفعة فيها فهي لاغية مضطربة متلاشية ومع ذلك فإن لكل صورة

من صور التشبيه معرضا ومعنى تتميز بها تتناسب وتتلاءم مع السياق

الذي وردت فيه لأن لكل تشبيه في القرآن سياقاً جاء مطابقاً له وهذا

لا يحتاج إلى إثبات لأنه ثابت ببلاغة القرآن فضلا عن إعجازه .

(١) النور / ٣٩ - ٤٠ .

(٢) الفرقان / ٢٣ .

وسنبدأ بسورة إبراهيم نقف على بعض أغراضها ومقاصدها
لأن مقصود كل سورة هاد إلى تناسبها كما ذكر الإمام البقاعي وهو المنهج
الذي ارتضيناه في دراساتنا هذه وسرنا عليه من بداية البحث .

قال تعالى :

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ^ط أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ^ج
فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ^ط لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ
هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

من أسرار المناسبة :

من مقاصد سورة إبراهيم - عليه السلام - تثبيت العقيدة في أصولها
الكبيرة الإيمان بالله ، الإيمان بالرسالة ، الإيمان بالبعث والجزاء ويكاد
يكون هدفها وفرضها الأساسي " الرسالة والرسول " ، فقد تناولت دعوة
الرسول وبينت وظيفتهم ووحدة رسالتهم .

وهاتان الحقيقتان اللتان تدور حولهما السورة الكريمة ، وهما
وحدة الرسالة والرسول تتناسقان مع اسم السورة وعنوانها الدال على مقصودها ،
فإبراهيم عليه السلام أب الأنبياء وإمام الحنفاء الذي حطم الأصنام
وحمل راية التوحيد وجاء بالحنيفية السمحة ودين الإسلام الذي بعث
به خاتم الأنبياء . (١)

وتتميز سورة إبراهيم عن غيرها من السور التي ذكر فيها الأنبياء
أنها معركة قائمة بين الرسل جميعا وبين الكفار ، قهؤلاء تجمعهم
رسالتهم ووحدة دعوتهم ، وهؤلاء لا تجمعهم باطلهم وجاهليتهم ، فكلاهما
على صعيد واحد على تباعد الزمان والمكان . (٢)

(١) انظر الظلال ٢٠٧٩/٤ وصفوة التفاسير ٨٩/٢ .

(٢) انظر في ظلال القرآن . ص ٢٠٧٩ هـ ع

وإذا ما اقتربت من سياق الآيات الكريمات ، وأصفيت إلى ما يدور
بينهما من حوار ، راعتك حالتهم التي انتهوا إليها من الطفيان والعناد
والفساد وجراتهم على رسل الله واعتدادهم بقوتهم المادية .
يقول سبحانه :

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلرُّسُلِ إِنَّا لَنَنُخْرِجُكُمْ
مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُحْلِلَنَّ
الظَّالِمِينَ ۝ وَلَنُكِنِّيَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَن خَافَ
مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ①

قال أبو حيان في البحر :

” ولما أقسموا على إخراج الرسل أو العودة في ملتهم ، أقسم
تعالى على إهلاكهم ، وأى إخراج أعظم من الإهلاك ، بحيث لا يكون
لهم عودة إليها أبداً . (٢)

تأمل كيف يأتي الوحي من السماء حين تطفئ الأمم على
رسلها ليهدم طواغيت الكفر ، ويقطعها من جذورها ، ويثبت الذين
آمنوا ويمكن لهم في الأرض .

(١) الآية ١٣ - ١٤ من سورة إبراهيم .

(٢) البحر المحيط ٥ / ٤١١ .

قال تعالى :

وَأَسْنَفَتُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝
مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ
يُسَيِّغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ
عَذَابٌ غَلِيظٌ ①

ثم تأمل كيف يتناسب هذا العذاب الشديد الذي يسقى فيه

الكافر من ماء صديد ، يبتلعه مرة بعد مرة ، فلا يكاد يستسيغه لقبحه

ومراته ، مع عظمتهم وشدتهم على رسل الله الأكرمين ، وما يلاقونه من

أنواع الأذى والأقوال والأفعال ، ومحاولتهم إرجاع رسل الله فسي

ملتهم ، فإذا قهرهم الله طعم الكفر ، الذي استساغوه في الدنيا وحاولوا إكراه

رسل الله على العودة فيه ، فليستسيغوه اليوم ، إن كانوا قادرين أو طعمهم

أقوالهم وأفعالهم التي آذت رسل الله فما أشبهها بماء صديد .

(١) الايات ١٥ ، ١٦ ، ١٧ من سورة إبراهيم .

ولكن العذاب ليس قاصرا على هذا فحسب ، بل إنه يتسع
ليشمل المكان والزمان ، فهذا الموت يأتيه من كل مكان ، ليستكمل عذابه
وما هو بهدئ مستريح ، ثم من بين يديه على امتداد الزمان عذاب أشد
ما قبله ، وأغلظ يستقبله كل وقت . (١)

وهكذا ينهض التمثيل القرآني البديع في هذا الوقت العصيب
ليؤد كد شدة هذا العذاب الغليظ ، بأن لا يدع لمؤمن أملا لأنه قد
يخطر ببال من يسمع عن شدة عذاب الكافرين أن لهم أعمالا تنفع وقربات
تشفع في تخفيف هذه الشدة عنهم . (٢) ولكن هيهات هيهات فأعمالهم التي
كانوا يأملون نفعها وشفاعتها أصبحت :

كَرَّمَا أَشْتَدَّ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ
... ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبُعِيدُ

يقول الزمخشري * شبهها في حيوطها وذهابها هباء منثورا
لبنائها على غير أساس من معرفة الله والإيمان به وكونها لوجه برماد طيرته
الريح العاصف * . (٣)

(١) أبو السعود ٥/٤٠ . يتصرف

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٣/٢١٢ .

(٣) الكشاف ٢/٣٧٢ .

من أسرار اللغة والنظم :

قال تعالى :

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ
اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ
ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ①

ركزت صورة التمثيل هنا على بيان عدم النفع
لأعمال الكافرين وأنها تذهب يوم القيامة بدها بحيث لا يمكن
استدراكها وأنى يستدرك الرماذ الذى يمثل الفناء والعدم، وإعادته
من جديد إلى ما كان عليه بعث الحياة بعد موت وهذا ما لا يقدر عليه
إلا الله سبحانه وتعالى لذلك تكون حسرتهم أشد ولأولهم أنكى
والمثل يستعار للصفة التي فيها غرابة. ②

(١) إبراهيم / ١٨٠

(٢) الكشاف ٢ / ٣٧٢

أى صفتهم وحالهم العجيبة الشأن أن أعمالهم كرماد اشتدت به الريح . (١)
ثم تأمل كيف جمع بين الذين كفروا وأعمالهم حيث شلمهم هذا
الوصف :

كِرْمَادٍ أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ

ولعل السر البلاغي وراء ذلك أن الانسان وعمله متحدان لا ينفصلان فإن
كان عمله رمادا فهو أيضا كالرماد لا وزن له وإن كان عمله سرايا فكذلك
هو لا ذكر له يخلد به :

* ولا نقيم لهم يوم القيامة وزنا *

ولو قيل مثل أعمال الذين كفروا كرماد اشتدت به الريح لانطفأ

هذا المعنى .

كما أن وراء هذا الجمع :

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ

إشارة إلى أن كفرهم بربهم هو الذى تسبب في محق أعمالهم والعمى

بها .

(١) انظر أبو السعود ٥ / ٤٠ .

ثم وازن بين قوله تعالى في سورة النور * والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة *
وقوله في سورة إبراهيم * ومثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد * وكيف قيد فـي
سورة إبراهيم كفروهم (بربهم) والذي تتجلى ربوبيته فـي
سياق السورة الكريمة ، وتتألق شمسها ساطعة مشرقة ، يقول تعالى :

الرَّكَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ
رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ①

ويقول : فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ②

ثم يعظم تجليها في دعوة إبراهيم عليه السلام التي ترتفع لتقر الربوبية
وتحطم الأصنام .

رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ③

رَبِّ إِنِّي أَخْلَلْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ④

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ⑤

(١) إبراهيم / ٠١

(٢) إبراهيم / ٠١٣

(٣) إبراهيم / ٠٣٥

(٤) إبراهيم / ٠٣٦

(٥) إبراهيم / ٠٣٧

(١) رَبَّنَا لِيُفِيُوا الصَّلَاةَ

(٢) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا خَفِيَ وَمَا نَعْلَمُ

وكانها إيقاعات متواليات تقررهم بتحقيق الربوبية التي جحدوا

بها وكفروها . قال تعالى :

(٣) أَعْمَلَهُمْ كَمَا دِ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ

كرماد - تأمل كيف أوبأ بالرماد إلى عملية الاحتراق لأن

الرماد ما يبقى بعد احتراق الشيء . (٤)

ثم تأمل ما وراء ذلك من السحق والإهانة والذلة لهم — ولا

الكافرين .

وفي تنكيه ما يوحى بكبرته وأنه رماد عظيم مقدس مما يدل

على كثرة ما حرق ووراء ذلك كثرة أعمالهم الخبيثة الفاسدة المبنية على غير

أساس من إيمان بالله وابتغاء وجهه .

ثم تأمل تلك الحسرة البالغة حين يصبح ما كان يعجب به

الكافرو يباهي في أحلك ساعاته وأعسرهما رماداً . و (شد) الشين والبدال

(١) إبراهيم / ٣٧ .

(٢) إبراهيم / ٣٨ .

(٣) إبراهيم / ١٨ .

(٤) القرطبي ٩ / ٣٥٣ .

أصل واحد يدل على قوة في الشيء وفروعه ترجع إليه من ذلك شددت
العقد شداً شدة . (١)

”شَدَّ فلانٌ واشتَدَّ إذا أسرع .“ (٢)

لذلك جوز العلماء هذين المعنيين فقالوا أن الباء هنا للتعديّة
أو للملابسة فهي إما بمعنى حملته وأسّرت به أو بمعنى قويت بملابسته
حملة . (٣)

تأمل هذا وكيف تقوى الريح بحمل هذا الواهي المهيّن الذي
لا وزن له وما وراء ذلك من شدة العصف وما وراء شدة العصف من غضب
وشدة عذاب .

ثم تأمل الفرق بين قولنا اشتدّت به واشتدت عليه فقد تشتد
عليه وهو ثابت لا يتبدّل .

(١) المقاييس من (شد) .

(٢) الراغب من (شد) .

(٣) انظر أبو السعود ٤٦/٥ ، وروح المعاني ١٣ / ٢٠٤ .

ثم تأمل كيف تتسع دائرة هذا العصف لتشمل اليوم كله
وذلك حينما أوقع التعبير القرآني الجليل العصف صفة لليوم فقال
أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ والعصف وصف للريح ولكن انتقال
هذه الصفة إلى اليوم في تراق بديع وإسناد مجازي يجعل الزمن كله
و كأنه عاصف. (١)

ثم تأمل كيف بين عزوجل الغرض من التشبيه وهو أنهم لا يقدر
على شيء مما كسبوا، وكيف يؤكّد عدم قدرتهم على الانتفاع بما كسبوا كما لا
يقدر أحد على الإمساك بهذا الرماد والذي اشتدت به الريح في يوم
عاصف.

فضلا عن إعادته إلى ماهيته قبل الاحتراق أي خلقه من جديد
فأي ضلال أبعد من ذلك .

وهكذا تأتي جملة :

ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ

تذييلا جامعاً لخلاصة حالهم. (٢)

(١) انظر الكشف ٣٧٢/٢ البحر المحيط ٤١٥/٥، الرازي ١٠٧/١٩.

(٢) التحرير والتنوير ٢١٧/١٣.

" والمراد بالبعد ضد القرب (الضَّلَالُ البَعِيدُ) أى

الضلال الذى يَصْعَبُ الرَّجُوعُ منه إلى الهدى تشبيهاً بَعْنُ ضَلَّ عَنْ مَحَجَّةِ الطَّرِيقِ بَعْدًا مَتَّاهِيًا فَلَا يَكَادُ يَرْجُو لَهُ الْعُودَ إِلَيْهَا " (١)

ثم تأمل التناسب البديع بين الضلال البعيد والرماد الذى طيرته

الرياح العاصف يعيداً ، والمراد : هو تشبيه أعمال الكافرين/حبوطها

ونهبها هباءً منثوراً لأنها غير مبنية على أساس صحيح من الإيمان

بالله والعمل مخلصاً لوجه الكريم برمان طيرته الرياح العاصف فذهب
بددا ولم يبق له أثر. (٢)

ثم تأمل العناصر التي كونت أسلوب التشبيه من الرماد والرياح

الشديدة واليوم العاصف وكيف تنافرت تنافراً شديداً وتضادت لتعبر

بتنافرها وتضادها عن تكرر تلك الأعمال هباءً منثوراً وكيف بنيت

عناصر التشبيه ومواده على المبالغة والجزالة والقوة التي تتناسب مع
شدة الموقف وهوله .

فقوله (اشتدت) فيها من الجزالة والقوة ما يتلاءم مع قوة

العصف وقوة الرياح .

(١) الراغب مادة (بعد) .

(٢) انظر الكشف ٢ / ٣٧٢ .

وفي تنكير(رماد) ما يوحى بالكثرة الكثرة من الرماد التي تناهت
وعظمت ما يزيد الموقف والمشهد إثارة وحدة ويوحى بالهلاك والفناء والضياع .
وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة .

ثم تأمل هذا التناسق والتناسب المجيب بين هذا المشهد
المكفهر الذى يكاد ينفخ فيه الإنسان فلا يبتلع هواءً ممزوجاً برماد ولا
يطيق فتح عينيه أو التنفس في هذا المحيط الهائج حوله وكيف يتلاءم
هذا مع العذاب الشديد الذى يحاط بالكافر في جهنم يتجرعه ولا يكاد
يستسيغه و تنفخ به حلوقهم والموت محاط بهم من كل جانب .

قال تعالى :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا

كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ

يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ

الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كُظُمْتُ فِي بَحْرٍ لُّجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ

مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ

بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ

لَهُ نُورًا قَالَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

من أسرار المناسبة :

على هذا النور الرباني التجلي في الأحكام والآداب والفضائل
الإنسانية التي تزخر بها سورة النور يقوم المجتمع المؤمن من الطاهرين
الغضفي البصر الحافظ الفرج الصادق اللسان الحسن الظن المحصنات
نساءه المعفيات الطاهرات أزواجه المستضيئون أفرادهم بنور التشريع
الإلهي في كل جانب من جوانب حياتهم الفردية والجماعية فهو نور على نور
نور فطرته ونور منهجه وما بقاء ذلك النور واستمراره وتضاعفه إلا لصلتهم
بمصدر النور وترددهم عليه بالغدو والآصال :

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ

فعلى أى شيء تقوم أعمال الكافرين الذين كهروا هذا النور وحالوا بينه
وبين قلوبهم ، على أى شيء تقوم أعمالهم وإن حسنت ظاهرا وهم لا نور
لهم من منهج يحتكمون إليه أو تشريع يضبطهم أو فضائل تقومهم وتزكيهم ؟
إن القلب الذي لا ينفذ إليه النور الذي ملأ السموات والأرض
قلب قد ران عليه الكفر ومن ثم فأى عمل يصدر عنه فهي أعمال ضالة حابطة
لا نفع لها مهما عظمت وحسنت في أعينهم لأنها لا أساس لها من إيمان
بالله واليوم الآخر.

ثم تأمل كيف وازنت الآيات بين دلائل الوحدةانية والإيمان التي
بلغت الغاية في الظهور ، والبيان مع أديان الكفرة وأعمالهم ، والتي هي
في نهاية الظلمة والخفاء ، وبالمقارنة بين الشلين يتضح الحق لدى عينيين .
ولهذا سأقف أمام هذا المثل بشي* من التحليل والتفصيل حتى يتبين
والتقاييل
لنا التناسب البديع بين تركيب هذا المثل ومثل الذين كفروا و تتضح

المعاني .

قال تعالى : **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْقَا ذَرَّةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ①**

ففي هذا المثل البديع يمثل سبحانه لنوره في قلب عبده المؤمن من
يكوة في الحائط لا منفذ لها ليكون أجمع للضوء وقد وضع فيها سراج ثابت
سماطع وأتى التمثيل على هذه الصورة لقربها وشولها في الحسن والتصور
ولكونها أعظم ما يتصوره البشر من الإضاءة والإنارة وإلا فإن نور الله أعظم.

ثم انه سبحانه لما ضرب مثلاً لقلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم
كالقنديل ، ذكر محلها وهي المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله فـ في
الأرض ، وهي بيوت التي يعبد فيها ويوحده . (١)

فيزيد ذلك من تلاتها وبهاؤها وشدة إنارتها . فله ما
أضوأ هذه القلوب النسيبة في بيوت الله المضيئة لأهل السماء إضاءة
النجوم لأهل الأرض ..

(١) انظر ابن كثير ٢٩٥ / ٣

ثم تأمل وتابع هذا المدد الرباني والزاد الإيماني بالغدو
والآمال لهذه القلوب التي لا تغتر عن تسبيح الله وعن تنزيه الله فأنى
لقلوب كهذه أن تلهيها تجارة مهما عظمت أوبيع عن ذكر الله.

إنه التثبيت الذي يحرص عليه :

رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ
الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَلَا أَبْصَارٌ ①

فيكون خوفهم هذا سببا للجزاء على أعمالهم بأحسن الجزاء

وللزيادة فوق ذلك من واسع فضله بدون حد ولا عد .

يُخَيِّرُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ
بِغَيْرِ حِسَابٍ

وفي مقابل ذلك النور الذي أشرقت له الظلمات وملا الأرض

والسموات ، وغمر قلوب العابدين فأضيئت به بيوت الله تجد سرايا وأهبا

وظمنا حارقا وظلاما داسا ، وخوفا مرعبا وضلالا وغيا وظلمات بعضها فوق

بعض تحول دون أن ينفذ هذا النور إلى قلوب الذين كفروا .

وهذه طريقة القرآن البديعة في المقابلة بين المعاني الغريبة

حتى تأنس بها النفوس وتقر في القلوب .

قال تعالى :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ
الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوقَهُ
حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥٠﴾ أَوْ كَظُلُمٍ فِي بَعْضِ الْأَوْبَانِ
مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمَتْ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ
يَدَهُ لَمْ يَكْدِيرْهَا وَمَن يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَلَا مِن نُّورٍ ﴿٥١﴾

وقد ذكر أهل العلم رضي الله عنهم في أسرار المناسبة وجوها نستضيء بها

في فهم آيات التمثيل ولطائفه .

قال صاحب الكشاف : " شبه أعمالهم أولا في فوات نفعها

وحضور ضررها بسراب لم يجده من خدعه من بغيد شيئا ولم يكفه خيبة

وكندا أن لم يجد شيئا كغيره من السراب حتى وجد عنده الزانية تعتله

إلى النار ولا يقتل ظمأه بالماء، وشبهها ثانيا في ظلمتها وسوادها لكونها

باطله وفي خلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من لجّ البحر والامواج
والسحاب * (١)

وقال الرازي : " لما بين حال المؤمن وأنه في الدنيا يكون في

النور وبسببه يكون متمسكا بالعمل الصالح ثم من أنه في الآخرة يكون
فائزا بالنعيم المقيم والثواب العظيم أتبع ذلك بأن بين أن الكافر يكون
في الآخرة في أشد الخسران وفي الدنيا في أعظم أنواع الظلمات وضرب
لكل واحد منهما مثلاً * (٢)

فقال الطبري : " ظنوا أن أعمالهم صالحة وأنهم سيرجمعون

منها إلى خير فلم يرجعوا منها إلا كما رجع صاحب السراب فهذا مثل
ضربه الله .. ومثل أعمال هؤلاء الكفار في أنها عملت على خطأ وفساد
وضلاله وحيرة من عملها فيها وعلى غير هدى مثل ظلمات في بحر
لجج * (٣)

-
- (١) الكشف: ٣، ٧٠ / .
(٢) الفخر الرازي: ٢٤٠ / ٢ / .
(٣) الطبري: ٨ // ١١٥ - ١١٦ .

وقال صاحب التحرير والتنوير : * لما جرى ذكر أعمال المتقين

من المؤمنين وجزائهم عليها بقوله تعالى :

يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ

إلى قوله :

الْحُجَّارُ بِهِمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ
بِغَيْرِ حِسَابٍ

أعقب ذلك بضده من حال أعمال الكافرين التي يحسبونها قربات عند

الله تعالى وما هي بمغنية عنهم شيئاً على عادة القرآن في إرداف البشارة

بالنذارة فعطف حال أعمال الكافرين عطف القصة من القصة * (١).

من أسرار اللغة والنظم:

قال تعالى :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ
الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ
حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١)

يقول الرماني في تعليقه على هذا التمثيل : " فهذا بيان قد أخرج
ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه وقد اجتمعا في بطلان التوهم مع
شدة الحاجة وعظم الفاقة " . (٢)

تأمل دقة إحاطته بوجه الشبه ، وهي عبارة لوجازتها ودقتها
وسدادها ، غلبت عقول القوم فكرروها في كتبهم . (٣)

ثم تأمل كيف نظر الرماني إلى المعنى وميز جزئيه وبين أن أحده
الجزئين يدرك بالعقل والآخر يدرك بالحس وأن هذا الارتقاء من المعقول
إلى المحسوس فيه توضيح أشد وإظهار أظهر وأمكن ثم استخلص الرماني
من التشبيه قصة ذي وهم دفعت شدة الحاجة وعظم الفاقة إلى أن يوغل في
وهمه حتى تجسم له الباطل وكل ما تراءى له من وهم في صورة سراب ببيعة
يراه حقيقة ويظنه أملاً نافعا متحققا ثم لا يلبث أن يكدر ويلهث ^و هذا الوهم
حتى يسقط في يديه .

(١) النور / آية ٣٩ .

(٢) النكت في إعجاز القرآن للرماني ضمن ثلاث رسائل في إعجاز

القرآن ص ٨٢ .

(٣) انظر الإعجاز البلاغي ، د / محمد محمد أبو موسى ص ٨٦ .

ثم تأمل كيف بدأ التمثيل بقوله : وَالَّذِينَ كَفَرُوا . فجعله مسنداً إليه أولاً ثم بنى عليه مسنداً آخر وهو أَعْمَالُهُمْ . وكلاهما عنصر مقصود في التمثيل .

يقول صاحب التحرير والتنوير : * ولم يجعل المسند إليه أعمال الذين كفروا من أول وهلة لما في الافتتاح بذكر الذين كفروا من التشويق إلى معرفة ما سيذكر من شؤنهم ، ليتقرر في النفس كمال التقرر ، وليظهر أن للذين كفروا حظاً في التمثيل بحيث لا يكون المشبه أعمالهم خاصة * . (١)

تأمل إلى هذه اللوحة الرائعة التي نبه إليها ابن عاشور حين أشار إلى أن للذين كفروا حظاً في التمثيل .

وراء ذلك أن الآية الكريمة لم تفصل بين العمل وصاحبه بل صاغت صياغة واحدة لأن الإنسان هو عمله فيه ينفث طبعه وروحه وكل ما يخلج في نفسه ويعتصر في قلبه فإن كانت أعمالهم سرايا فلا أنهم هم أنفسهم أظلمت لهم هواء خالية من كل حق وإن كانت أعمالهم ظلمات فلا أنهم هم أنفسهم كهف من كهوف هذه الظلمات لا ينفذ إليها نور الحق .

(١) التحرير والتنوير ١٨ / ٢٥١ .

وإن كانت أعمالهم رمادا فلا أنهم هم حياتهم رماد إن تنقطع
عيونهم وتزهق أرواحهم ولا يبقى لهم ذكر طيب طاهر . كل هذه المعاني
وغيرها يمكن أن نستوحىها من قول ابن عاشور (إن للذين كهروا حظا في
التشيل) .

وفي التعبير بالموصلية **وَالَّذِينَ كَفَرُوا** إيماء إلى هذه الحالة
التي حجب عن قلوبهم ذلك النور الذي ملأ السموات والأرض والتي كانت
سببا في نيلهم هذا الجزاء .

أعمالهم : (**الْعَمَلُ يُسْتَغْفَرُ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَالسَّيِّئَةِ**)^(١)
كسراب : (**وَالسَّرَابُ الْإِلَامُ فِي الْغَايَةِ كَالْمَاءِ وَذَلِكَ لَا نِسْرَابَهُ**
فِي مَرَأَى الْعَيْنِ وَكَأَنَّ السَّرَابَ فِيمَا لَا حَقِيقَةَ لَهُ)^(٢)
بقية : **" الْقَيْعُ وَالْقَاعُ الْمُسْتَوِي مِنَ الْأَرْضِ جَمْعُهُ قَيْعَانٌ**
وَتَصْغِيرُهُ قَوْعٌ " .^(٣)

تأمل هذا وكيف مثلت أعمالهم بسراب عظيم شديد اللمعان
سحر أبصارهم وخيل إليهم أنه ماء يجري وينساب .

-
- (١) الراغب مادة (عمل) .
(٢) الراغب مادة (سرب) .
(٣) الراغب مادة (قيع) وانظر الكشاف ٦٩/٣ .

ثم تأمل شدة هذا الوهم الذى غلب عليهم وسحر أبصارهم ،
وما يؤكده أنه وهم لا حقيقة له قوله تعالى : **كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ** ،
والقيعة: الأرض المنبسطة المستوية التي لا يتوهم فيها أن تمسك الماء أو
تثبت الكلاء* .

لقوله عليه الصلاة والسلام : (**إِنَّمَا هِيَ قَيْعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا**
تَثْبُتُ كَلَاءً) (١) الحديث

وفيه إشارة إلى قلوب المبطلين، وهو مثل ضربه عليه الصلاة والسلام
لمن لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسل به .
وما يدل على مبلغ وهمهم أنه سراب في وضوح النهار وعند
اشتداد الضوء أى حين لا تخفى حقيقته ولا يلتبس أمره ولا مجال للوهم
ثم تأمل كيف يتماعد هذا الوهم ويتضاعف ويقوى بترادف هذه الصفات
والقيود التي تزيد من حدته وقوته .

فهو سراب بقيعة (يحسبه الظمان ماء) .

ومن معاني حسب : (العدد ، تقول حسبت الشيء أحسبه
حسباً وحسباناً قال الله تعالى **الْشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ**) (٢) ،

(١) مختصر صحيح البخارى للإمام زين الدين أحمد الزبيدى الحديث رقم ٧٠ ص ٤٠ .

(٢) سورة الرحمن / آية ٥٥ .

ومن قياس الباب الحِسْبَانُ الظَّنُّ ، والمعنى واحد لأنه إذا قال حسِبته
كذا فكأنه قال هو في الذي أُعِدُّهُ من الأمور الكائنة . . ومن الباب الحَسْبُ
الذي يَعُدُّ من الإنسان (٢) .

(وفلان لا حَسَبَ له ولا نَسَبَ وهو ما يحسبه ويعده من مفاخر
آبائه وفلان لا يحسب به أى لا يعتد به) (٢) .

والتأمل لهذه المادة وما تدور حوله ، يدرك قول علمائنا
(رضي الله عنهم) حين قالوا : إن المراد بأعمالهم (التي هي من أبواب
البر كصلة الرحم وفك العنائة ، وسقاية الحاج وعمارة البيت وإغاثة الملهوفين
وقرى الأضياف ، ونحو ذلك ما لو قارنه الإيمان لاستتبع الثواب) (٣) .

فهي أعمالهم (التي كانوا يعتمدون عليها أقوى اعتماد ، ويفتخرون
بها في كل واد وناح) (٤) .

لذلك أبطل سبحانه حسابهم حين قال :

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ (٥)

(١) المقاييس مادة (حسب) .

(٢) الأساس للزمخشري مادة (حسب) .

(٣) أبو السعود ١٨/٦ وانظر روح المعاني ١٨/١٨

وانظر الزمخشري ٣٧٢/٢ .

(٤) روح المعاني ١٨٢/٢٨

(٥) سورة التوبة / آية ١٦ .

وربما يؤكّد هذا الوجه اللامع الحسن الذي يشبه الماء وهو
لا حقيقة له منظر هذه الأعمال الحسنة النافعة للناس، وهي لا أساس
لها من إيمان بالله واليوم الآخر.

ثم تأمل كيف يبلغ الوهم الغاية في الظهور، ويقوى الحساب
وتأكد في عيني ظمآن، بلغ به العطش أشده ومنتهاه +
وهذا ما أحس به الرمانى واتقد في قلبه، فأدركه واستطعمه
حين قال : (ولو قيل: يحسبه الرائي ماء ثم يظهر أنه على خلاف
ما قدر لكان بليغاً، وأبلغ منه لفظ القرآن، لأن الظمآن أشد حرصاً عليه
وتعلق قلبه به) . (١)

تأمل شدة ظمئه، وحرارة جوفه المتقدة، وحرقة نفسه الملتاعة
إلى ما يبرد غليلها، ويطفئ لهيبها، وهو في هذه الصحراء الجرداء القاحلة،
وكيف تنعكس هذه الرغبة الجامحة، والتوق الحارق، على هذا السراب والوهم
فيراه (ماء) عظيماً وفيراً سائغاً للشاربين، وفي ذلك إشارة إلى خداع
النفس بعد خداع البصر .

والنفس لا تخدع إلا عند غياب العقل، والعقل لا يغيب إلا عند
غلبة الشهوة وطغيانها واستبدادها .

(١) النكت في إعجاز القرآن للرمانى ضمن ثلاث رسائل في إعجاز
القرآن ص ٨٢ .

قال تعالى : **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا** (١)

ثم تأمل كيف طوت (حتى) هذه الرحلة الشاقة ، والمعاناة الطويلة التي لجهده فيها الظمأ ، وحفزه اليها الأمل - فأشار إلى نهاية هذه الرحلة وبلوغ الغاية وأى غاية . . . تلك الغاية التي أحالتها " إذا " من الخبر إلى تحقق الوقوع ، حين ربطت العدم بالسعي ، وجعلته جواباً ونهاية له ، فأحكمت من أسر الكلام ، وشدة تلاحمه ، ودقة سبكه وعقدت آخره على أوله ، وجعلت بعضه أخذاً بحجز بعض .

ولوقيل **حَتَّىٰ جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا** ، لانحلت عقدة الكلام ، وانطفأ وهجه ، وفي ذلك إيحاء إلى بلوغه غاية الضعف والعجز ، والتهالك ، وشدة التخاذل ، والإعياء ، حتى لم يبق فيه بقية من قوى ، ثم في تلك اللحظات الحالكه لم يجده شيئاً . (٢)

ثم تأمل كلمة (شيئاً) والتي جعلته عدماً مطلقاً ليزيد من تحرقه ولوعته وهذه الهاء في (يجده) والتي نصت على الأمل المنشود ، وصيرته عدماً لتتهيء الكلام بعد ذلك لظهور الحق الذي لا مزية فيه ، ولا وهم يمتريه وهو قوله **وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ** (٣)

(١) النور / آية ٣٩ .

(٢) الإعجاز البلاغي ص ١٠٣ (بتصرف) .

(٣) المصدر السابق .

والأصل وجد عذاب الله وجزاءه ، ولكن التعبير أفاد أنه وجد
ذا الجلال سبحانه ، وفي ذلك من الرهبة ما فيه ، وخاصة أن هذا الكافر ينكر
وجود الله ، ثم انظر إلى هذه الفاء (فوفاء حسابه) وما تشير إليه من
سرعة الكفج ونزول العذاب ، ثم انظر إلى إسناد التوفية إلى ضمير
ذي الجلال (الله) وهو الذي يتولى تعذيبه بنفسه ، وفيه من الدلالة
على شدة الغضب ما فيه ، ثم تأمل كلمة (حسابه) وفيها من الإنصاف ما
فيها ، وكل ما أشار إليه الكلام من الرهبة وسرعة المكافحة بالعذاب وشدة
الغضب ليس فيه مجاوزة ، وإنما هو بحساب دقيق . (١)

(٢) **عَالَمٌ سَرِيعُ الْحِسَابِ**

وهكذا الكفر يمحى كل عمل وإن كان من باب الخير والإحسان لأن
كل عمل لا يزكيه الإيمان فهو أشبه بالسراب .

(١) الإعجاز البلاغي ص ١٠٣ (يتصرف) .

(٢) النور / آية ٣٩ .

أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَمَّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ
مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ
يَدَهُ لَمْ يَكْدِرْهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَا لَهُ مِنْ نُورٍ ④

وقد ذكر أهل العلم لـ "أو" وجوها فقالوا :

إنها إذا جاءت في عطف التشبيهات تدل على تخيير

السامع أن يشبه بما قبلها وما بعدها . (٢)

فهو كسراب بقيعة في كونها لاغية مضحكة لا منفعة لها ولاشارة

ترجو منها .

أو كظلمات في خلوها من نور الحق وحيلولتها بين القلب وبين ما

يهتدى إليه . (٣)

أوللتنوع ، وذلك بالنظر إلى أعمالهم الحسنة التي يعتمدون عليها

ويعتمدون بها ويفتخرون وما هو إلا حسن ظاهر كسراب أو أعمالهم القبيحة

من الاعتقادات الباطلة والأعمال الفاسدة التي ليس فيها شائبة خيرية يفتر

بها المفترون فهي كالظلمات . (٤) أوللتقسيم فهي كالسراب في الآخرة

لقوله تعالى وَوَجَدَ اللَّهُ

(١) النور / آية ٤٠ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ٢٥٤ / ١٨ .

• وانظر الفخر الرازي ٨ / ٢٤ وحاشية الشهاب ٣٨٩ / ٦ .

(٣) انظر الكشاف ٧٠ / ٣ .

(٤) انظر (أبو السعود) ١٨١ / ٦ .

وكالظلمات في الدنيا لقوله تعالى :

(١)

وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ نُورٌ

والتأمل لهذه الوجوه لا يجد بينها تضارب بل في ذلك إثراء للمعنى وتكثير للفائدة ، ويمكن أن نقول أنه سبحانه لما ذكر حال المؤمن من وماله ، ذكر حال الكافر وخسارته وضرب لذلك مثلين :

الأول : لعمله الظاهر الحسن ، الذي يظن فيه النفع بالسراب الخادع الذي يظن فيه الحياة والبقاء ، ثم ما آل إليه حاله من الخيبة ، واضمحلال العمل عند شدة حاجته ، وعظم فاقتة ، فهو مطلع مطمع يعقبه مقطع مؤيس .

والمثل الثاني : لأعماله الباطلة الفاسدة الخالية من نور الحق ، وكيف تنطبع آثارها على قلبه وتتلبس به .
فهي أعماله التي حجبته في الدنيا عن رؤية طريق الحق ، وذلك لشدة ظلمتها وتغشيتها للقلوب .

ثم تأمل وتابع معاني التشبيل فجلال نظمه ، وبديع معناه في أن ينقلك من هذه الصحراء القاحلة ، والسراب الواهم ، والمظأ الحارق ، والكد والمعاناة ، والهول الرهيب ، وكل ما تشل وترآى من وهم في وضج النهار وشدة الضوء إلى محيط ينطفئ فيه ذلك الوهج المتألق ، ويتلاشى معه ذلك السراب الخادع ، فيبتلع خيالك ظلامه ووحشته ، ويكاد يحاط بأنفاسك ، وأنت تدافع ظلمات عجيبة . الصفة ، شديدة الظلمة ، تخرج عن المعتاد والمألوف من ظلمة الناس ، فجمع الكثرة فيها يوحي بشدة ظلمتها وتراكبها وتراكبها ، فهي ظلمات كثيرة أو عظيمة بعضها فوق بعض . (٢)

(١) انظر الفخر الرازي ٨/٢٤ .

(٢) انظر البحر المحيط ٤٦٢/٦ .

وما يزيد في غرابتها ومعدّها في الصفة أنها ظلمات في بحر
لجي بعيد الغور ، شديد العمق ، أرأيت إلى بعده في الغور ، وما وراءه
من تزايد كثافة هذه الظلمة وتراكبها . كما أن هذا القيد يفيد بيان
أثر أعمال الكافرين على قلوبهم لأن الظلمة لا تظهر إلا بأن تنطبع
في شيء ، لذلك قال (فِي بَحْرِ الْوَعْدِ) (١) .
تأمل هذا وقارنه بقوله عليه الصلاة والسلام :

(تعرض الفتن على القلوب عودا عودا فأيا قلب أشربها ،
نكتت فيه نكتة سوداء ..)

(" ويلج " : من اللجاج التمدد في العناد ، في تعاطي
الفعل المزجور عنه وقد لج في الأمر يلج لجاجا قال تعالى :
* وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجَوَانِ
طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * (٢) .

وقوله :

(٣) بَلْ الْجَوَانِ فِي غُرُورٍ

(ومن الباب لجج البحر وهو قاموسه ، وكذلك لجته لأنه يتردد
بعضه على بعض .. ويقولون في فؤاد فلان لجاجة ، وهو أن يخفق لايسكن
من الجوع وهو من اللجاج والتجاج الظلام اختلاطه وهو مشبه بالتجساج
البحر وكل هذا يدل على أن ترددهم في طغيانهم وإيغالهم فيه حال بين
قلوبهم وبين نور الحق وهدايتها .

(١) انظر التحرير والتنوير ١٨ / ٢٥٥ .

(٢) سورة المؤمن / ٢٥ .

(٣) سورة الملك / ٢١ .

ثم تأمل شدة هذه الظلمات في قلب لا يدرك له قرار، تمور

وتتردد في حركة دائية، لا تعرف السكونية .

ثم تأمل كيف يتضاعف المعنى، ويتكاثف، بترادف هذه الصفات

والقيود ، ولا حول التي تزيد المعنى وفرة، وغزارة وثراء .

فهي ظلمات في بحر لجي ، يفشاه موج من فوقه موج من فوقه

سحاب ، وقوله ^{بإفشاء موج} ~~يفشاه موج~~ أي يغطي ذلك البحر ويستتره بالكلية

موج عظيم، هائل في حركة دائية متجددة لا تنقطع .

تأمل هذا الموج المضطرب ، وكلما عظم عظمت حركته، واضطرابه

وكيف أسدل على هذه الظلمات أغشية ، ضاعفت من شدة ظلمتها .

وكيف تتعاقب هذه الأمواج ، وتتلاطم ، وتتعالى ، ويركب بعضها

بعض ، فتتضاعف شدة الظلمات، وتقوى، وتتحقق في النفس أنها ظلمات لا

بصيص فيها من نور ، إذ يبعد كل البعد أن ينفذ فيها بصير . (١)

(والبحر اللجي يكون قعره مظلماً جداً ، بسبب غمورة الماء ،

فإذا ترادفت عليه الأمواج ، ازدادت الظلمة فإذا كان فوق الأمواج سحاب ،

(٢)

بلغت الظلمة النهاية القصوى ، فالواقع فيه يكون في نهاية شدة الظلمة) .

فقلوه تعالى (من فوقه سحاب) فيه إيحاء إلى غاية تراكم الأمواج وتضاعفها

حتى كأنها بلغت السحاب . (٣)

(١) انظر نظم الدرر ١٣ / ٢٨٠ .

(٢) الفخر الرازي ٨ / ٢٤ .

(٣) انظر روح المعاني ١٨ / ١٨٣ .

تأمل هذه الحركة التخيلية الرائعة، التي يتابع فيها الخيال والفكر تلك الأغشية ، يتجدد حدودها ، ويتوالى أسدالها ، في تتابع بديع ، وتناسق عجيب ، حتى كأنها تبلغ في تراكمها غنان السماء .
ثم تذوق هذا التلاحم ، والتراحم ، والتهاج بين عناصر التشكيل وكيف تتشارب معانيه .

فقله (سحاب) ليس المراد به سحاب مطر ورحمة ، بل هو سحاب مظلم حجب مصدر الضوء الخارجي ، فبلغت الظلمات غايتها في كمال شدة الظلمة . (١)

قال تعالى :

ظَلَمَاتٍ بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ

ولحذف حرف الجر هنا - فلم يقل (ظلمات بعضها من فوق بعض) - موقع دقيق أفاد شدة تراكم الأمواج حتى استغرقت الجهة التي ينفذ منها الضوء ، فحالت كافتها وشدة ظلمتها دون ذلك .
والمراد (بظلمات) هنا غير المراد بها في قوله "أو كظلمات" ،
ها هنا جمع أنواع ، وهنالك جمع أفراد من نوع واحد . (٢)

فهي ظلمات من البحر والأمواج والسحاب .
ووراء ذلك توزع قلبه وملوغة غاية الضعف والحيرة والتخبط والتردد والتمزق والاضطراب .
وهو يصارع هذه الظلمات المتركمة المتنوعة التي تناوشه من كل جانب .

(١) انظر (أبو السعود) ١٨١ / ٦
(٢) التحرير والتنوير ٢٥٦ / ١٨

ثم تأمل كيف يؤكّد شدة هذه الظلمة يقول تعالى :

إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْدِيرْهَا

وكيف حصّ الإخراج باليد لأنّ اليد هي أصل الجوارح التي يتولّى بها الفعل (١).

(وهي أقرب ما يرى إليه) (٢).

(وذلك لمن ابتلى بهذه الظلمات) (٣).

وقوله تعالى * لم يكّد يراها *

لم يكّد (يقتضي بحسب الوضع نفي مدلول كاد ، فإن مدلولها المقاربة ، ونفي مقاربة الفعل يقتضي عدم وقوعه بالأولى) (٤).

أى (فانه لشدة الظلمة لا يمكنه رؤية يده التي كانت نصب عينه) (٥).

ووراء ذلك أن عمله عدم لا وجود له ، لأنّ العدم كله ظلمة وهو لا يرى إلا ظلاما دامسا ، فالعمل الذى يبني على هذه الظلمات ، ويخرج فيها لا يقرب أن يكون له وجود أو أهلية فضلا عن أن يكون له (٦).

وفي هذه إشارة إلى أن الحامل لهم على رؤية السراب ماء أو على تخيل ذلك الوهم وظنهم النفع فيه هو عدم رؤيتهم الداخلية بسبب هذه الظلمات (٧).

(١) انظر الراغب مادة (يد) .

(٢) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ٣٩٠/٣ .

(٣) انظر (أبو السعود) ١٨٢/٦ .

(٤) انظر التحرير والتنوير ٥٥٧/١ .

(٥) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ٣٩٠/٣ .

(٦) نظم الدرر ٢٨٧/١٣ .

(٧) انظر المصدر السابق .

لأن (قيام الأمور وظهورها كل ظهور إنما هو بالنور) (١)

(٢)

وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ

تذييل بديع للتشيل جيء به لتقرير ما أفاده التشيل من كون

أعمال الكفار لا حقيقة لها ولا وجود ، وإنما هي سراب أو ظلمات . (٣)

ويقول الفراء : هذا مثل القلب الكافر أي إنه لا يعقل ولا

(٤) يبصر .

ثم تأمل العناصر التي كونت أسدوب التشبيه هنا .

وهي السراب والقيعة والظمان وما بينها من التجاذب والتقارب

الشديد الذي يؤكده الوهم ويضاعفه ويزيد الحاجة ويلهبها أي يقوى المعنى

المراد تقويته وتأكيده وهي شدة الحاجة لتعظم الفاقة .

تأمل كيف تعلق الظاميء بذلك السراب ويجذبه إليه وسعى

إليه سعيا حثيثا لاهثا مجهدا - وما وراء ذلك من قوة الشد والجذب

والإغراء والوهم .

كما نلمح هذا التجاذب الشديد والتقارب العجيب والتناسق

بين عناصر التشيل الآخر للظلمات والبحر اللجي والموج الذي يفشاه موج

والسحاب المظلم واليد التي لا ترى في تلك الظلمة .

وكيف يتوءد هذه العناصر كثافة الظلمة وعمقها وغورها وتضاعفها

وتراكيها . . وهكذا .

وفي هذا المثل الكريم جانب آخر من جوانب الإعجاز في القرآن

العظيم ألا وهو الإعجاز العلمي الذي شغل به علماء عصرنا لأنه الوجه

(١) المصدر السابق . (٢) سورة النور / آية ٤٠ .

(٣) روح المعاني ١٨ / ١٨١ .

(٤) معاني القرآن : للفراء ٢٥٥/٢

الذى فتن به علماء الغرب فلا عجب أن نبين لهم إعجاز القرآن
من هذا الجانب الذى فتنوا به والذى يعتقدون أنهم لم يُسبقوا إليه وسنذكره
هنا لأنه يوقفنا على فقه المثل فلا تعارض بين حقائق العلم وحقائق اللغة
والبيان .

فالحقائق التى توصل إليها العلم والتي هي/القرآن على الوجه الذى
يعلم ولا يعلم أن شمة أمواج حقيقة تعرف في الأعماق المظلمة وتضطرب
وهي غير الأمواج السطحية التى نعرفها وأن هذا النوع من الأمواج كبير
جدا ولا يسود إلا في البحار المظلمة مثل المحيطات وهذه المناطسق
المظلمة هي التى يستحيل وصول ضوء الشمس إليها لعمقها الشديد وتراكم
طبقات المياه الكثيفة وقيام الطبقة السطحية من المحيط بإعكاس ضوء الشمس
فكيف إن كانت فوق هذه الأمواج سماء ملبدة بالغيوم والسحب التى
تحجب الضوء فإن الظلمة تبلغ حدا لا يطاق .

يقول العلم لذلك خلق الخالق عز وجل أنواع الأسماك هناك بلا
عيون لأنها لا تستخدمها في الرؤية وإنما يسر لها الله سبحانه وتعالى
سبل حياتها في هذه الظلمات ، فهذه الظلمات العجيبة المفسدة
لا توجد في بحار الدنيا كلها وإنما تختص بهذا البحر اللجى العميق . (١)

(١) انظر الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن د/ عبد العليم عبد
الرحمن خضر ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

قال تعالى :

* وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ
أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْهُ
كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ
وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدْ مَنَّآ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ
فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾

من أسرار المناسبات :

يتحدث سبحانه وتعالى في الآيات السابقة للشئ عن الذين

لا يرجون لقاء الله والذين تجاوزوا الحد في الظلم والكفر :

(لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا كبرا)

"والمعتو النبي عن الطاعة يقال عتا يعتو عتوا وعتيا وهي حالة

لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها" (١).

ثم يقول الله تعالى :

(يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا)

معنى الحجر المحجور " أن الرجل كان إذا لقي من يخاف يقول

حجرا محجورا فذكر الله تعالى أن الكفار إذا رأوا الملائكة قالوا ذلك

ظنا أن ذلك ينفعهم .

قال تعالى :

(وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا)

أى منعاً لا سبيل إلى رفعه / وفلان في حجر فلان أى في منع منه عن

التصرف في ماله وكثير من أحواله " (٢).

(١) الراغب مادة (عتا) .

(٢) الراغب مادة (حجر) .

ثم يأتي المثل بعد ذلك :

(وقد منا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا)

فتأمل كيف شبه أعمالهم في الحقايرة وعدم النفع والجدوى بالهباء المنثور الذي لا يعبأ به ولا يمكن نظمه أو الا حاطة به وكيف يتلاءم هذا مع جوالسياق الذي ورد فيه والذي تجاوز فيه الكافرون الحد في الطغيان حين طلبوا رؤية الله أو نزول الملائكة عليهم فلما نزلت عليهم وحلت بهم كرهوا لقاء هم أشد كراهة وفزعوا منهم فزعا شديدا ثم عمد سبحانه إلى أعمالهم فجعلها هباء منثورا. (١)

من أسرار اللغة والنظم :

الهباء " من هبأ الفُبارُ يهبو نار وسطع والهبوة كالغبرة والهباءُ دُقاقُ التراب وما نبت في الهواء فلا يبدو إلا في أثناء ضوء الشمس في الكوة. (٢) والنثر " نثر الشيء نشره وتفريقه ". (٣)

(١) انظر (أبو السعود) ٢١٢/٦ .

(٢) الراغب مادة (هبأ) .

(٣) الراغب مادة (نثر) .

في قوله (وقد منا) والتعبير بصيغة القدوم / يتناسب مع كونهم طلبوا رؤية الله فأراهم ما يكرهون، ووراءه أنهم كانوا في غلة شديدة وذلك حين غلوا عن رقابة الله لهم، الذي احتجب عنهم في الدنيا ليجتليهم ثم عاد ليجازيهم.

وتأمل قدوم الملائكة عليهم وهم نور من نور وكيف تظهر أعمال الكافرين في هذا المشهد الذي شع فيه نور الملائكة وقدم فيه أمر الله وما وراءه " قد منا " من التعظيم والإجلال والإكبار الذي يزيد الموقف تشريفاً وهيبة وجلالاً وكيف تبدد أعمال الكافرين في ضوء هذا الحق الذي تجلّى لهم عند الاحتضار أو يوم القيامة هباءً منثوراً فلا ينفعهم قولهم

حِجْرًا مَّجْجُورًا .

وإذا ما عدنا إلى عناصر التشبيه وجدنا هذا التنافر بين موادها فالهباء والنشوة كد تمزق هذه الأعمال وتبددها بحيث لا يترك لها أثراً وهذا يتلاءم مع قوله :

سَكْرَمًا إِشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ

من حيث تنافر وتهاذ عناصره ومواده ولكنها تختلف عنها من ناحية رقتها ودقتها وكيف تتناسب مع السياق الذي شع فيه ذلك النور الجليل .

ومع هيبة الموقف وجلاله التي تشه كلمة (قدما) ، وكيف
ناسب أن تكون الأعمال بهذه الضائقة والدقة والحقارة أمام
بجلال المشهد والموقف .

من أسرار التنوع في التشبيهات التي تمثل أعمال الكافرين :

تدور المادة اللغوية أو العناصر التي بنيت منها التشبيهات

لأعمال الكافرين : حول :

الرماد - الريح التي اشتدت به - اليوم العاصف -

سراب بقيعة - الظمان الممّوه - الظلمات - البحر اللجي -

الأمواج التي تغشى البحر - السحاب المعتم - الهباء

المنثور .

وهذه العناصر وإن كانت يجمعها معنى عام وهو فناء أعمال الكافرين

وطولانها وأنها لا حقيقة لها ولا منفعة فيها فهي لا غاية مضمحلة ، عند

شدة الحاجة إليها إلا أن لكل صورة من صور التشبيه معرضا ومعنى تتميز

به يتناسب مع السياق القرآني الذي وردت فيه .

فالتشيل الأول : وهو قوله تعالى :

كَرَّمَادٍ أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ

يهتم ببيان جملة أحوال ومشاعر منها :

١ - بيان معنى الهلاك والاحتراق لهذه الأعمال وعدم الانتفاع

بها يدل على ذلك كلمة رماد .

٢ - بيان أنها أعمال تناهت في الكثرة مما يزيد من شدة الحسرة

ينبغي عن ذلك تنكير كلمة (رماد) .

٣ - بيان تبدد أعمالهم وذهابها كل مذهب بحيث لم يبق لها أثر يبين عن ذلك قوله تعالى :

* اشتدت به الريح *

وفيها تجسيد لشدة العذاب وراء شدة العصف .

٤ - بيان عجزهم عن استدراك ما فات ينبيء عن ذلك كلمة (رما د) وقوله تعالى :

لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ

وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البالغة .

٥ - أن ذهاب الريح برما د أعمالهم وتبدد ها دلالة على بعدهم في الضلالة يبين عن ذلك قوله تعالى :

ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ

بينما يهتم التحليل الثاني في سور النور ببيان جملة أخرى من الأحوال والمشاعر منها :

١ - بيان وهم الأمل المقصود الذي تعلق به الذين كفروا ورجوه من هذه الأعمال يدل على ذلك كلمة (سراب) وفيها تجسيد للخداع والوهم والضياع .

٢ - بيان أن ظهور حقيقة هذا الأمل وأنه وهم إنما يكون عند شدة حاجتهم إليه دل على ذلك كلمة (بقية وظمـــــآن).

٣ - بيان أن الذين كفروا سعيوا سعياً حسيثاً وراء هذا الأمل

الوهم الخادع يدل على ذلك قوله تعالى :

* حتى إذا جاءه *

٤ - بيان أن الواقع كان على النقيض من المتوقع . يدل على ذلك

قوله تعالى :

وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُمْ فَوْقَهُمْ حِسَاباً

فأما التمثيل الثالث فإنه يركز على بيان :

١ - خلوا أعمالهم من نور الحق لكنها أعمال فاسدة باطلة لأنها

غير مبنية على إيمان بالله والعمل لوجهه الكريم يدل على

ذلك كله كلمة (ظلمات) .

٢ - بيان أن تلك الظلمة انطبعت على قلوبهم فحالت بينهم

وبين رؤية الحق . يدل على ذلك :

أَوْ كُنَّا فِي ظُلُمَاتٍ

٣ - بيان أن ظلمة الأعمال في تضاعف وتزايد وانها ظلمات متراكبة

متراكمة تتردد في صدورهم . يدل على ذلك قوله تعالى :

يَجْشَعُونَ مِنْ فَوْقِهِمْ مَوْجٌ

٤ - بيان أنها أنواع من الأعمال الفاسدة كالاقتناعات الباطلة

والفتن وزائل النفس وغير ذلك مما تموج به قلوب أهل الباطل .

يدل على ذلك
ظلمات بعضها فوق بعض

٥ - بيان أن ظلمات أعمالهم بلغت السحاب فلا سماء تبصر ولا أرض

وأن ذلك مثال للرين والطبع على القلوب يدل على ذلك

قوله تعالى : **مَنْ قَوَّهَ سَحَابٌ**

٦ - بيان أن قلب الكافر يصبح من كرة تلبسه يسطلمات أعماله

لا يعقل ولا يبصر يدل على ذلك قوله تعالى :

إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَهُ

٧ - بيان أن أعمال الكفار لا حقيقة لها ولا وجود وإنما هي ظلمات

يدل على ذلك قوله تعالى :

وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ نُورٌ

ويهتم التشبيه الرابع ببيان :

١ - بيان ضالة أعمال الكافرين وحقارتها وأنها شيء لا يعبا به

ولا يلتفت إليه ثملة كلمة هباء .

٢ - بيان تنافر أعمالهم وتمزقها كل ممزق بحيث لم يترك لها أثرا

تدل عليه كلمة (منشورا) .

وهكذا يتضح لنا أن كل تشبيه يهتم بإبراز معاني وأحوال وشاعر تتفق

مع السياق الذي ورد فيه .

١ - ففي سورة إبراهيم تجد أن (الرماد) وهو ما يبقى

بعد احتراق الشيء يتلاءم مع جهنم .

وهذا المشهد المكفهر الذى اشتدت به الريح في يوم عاصف فلا
يكاد المرء يستسيغ بلع هواءه الممزوج برماد وفتح عينيه أو أذنيه / يتناسب
مع العذاب الذى لا يستسيغه الكافر ولا يكاد ينحدر من حلقه .

فبين هذه العناصر من التلاؤم والتناسق ما ترى وكلها معاني

تدل على المحق والسحق و عدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك .

كما تتلاءم هذه العناصر من ناحية الجزالة والقوة والشسدة

وتنافر موادها مع السياق الذى وردت فيه والذى يحوطه عذاب غليظ .

٢ - تأمل كيف اختتمت الآيات هنا بقوله تعالى :

لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ . لأن المراد تأكيد محقق

هذه الأعمال وضياعها وتبديدها .

بينما جاء النظم في سورة البقرة لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا

لأن المراد تأكيد عدم قدرتهم على شيء وعجزهم عن إدراك

ثواب ما عملوا .

٣ - وهذا التشبيه وان كان يشترك مع قوله تعالى :

* وقد منا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا * من ناحية بيان

تبدد أعمال الكافرين وتمزقها بحيث لم يبق لها أثر إلا أن هذا التشبيه

الثاني يتميز عن الأول بدقة بعناصره ورقتها وليونتها لتشمل معنى الضآلة

والحقارة ثم التناثر والذهاب بها كل مذهب وأن هذا يتناسب مع السياق

الذى تنزلت فيه الملائكة وأنسى أمر الله يفشاء هذا الجلال والرهبة

والكبرياء فناسب أن تكون أعمالهم مقابل ذلك في منتهى الضعف وغاية الوهن .

كما أن وصف الأعمال بهذه الضالة والوهن والحقارة يتلاءم مع قوله تعالى :
 ﴿ لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَتَوَعَّتُوا كِبِيرًا ﴾ * وفي الحديث (يُخْشَرُ الْمُتَكَبِّرِينَ
 يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يفشاهم الذل من كل مكان) . (١)

فناسب أن تكون أعمالهم التي هي صورة لذواتهم كذلك .
 لأن الجزاء من جنس العمل .
 ٤ - وقد يكون من أسرار التنوع في تمثيل أعمال الكافرين بالرماد

- والله أعلم - أن الكفار الذين تمثلهم هذه السورة الكريمة على صعيد واحد
 حيث يجمعهم باطلهم وجاهليتهم لما أرادوا بالعة الخنيفية الممثلة في
 أبي الأنبياء إبراهيم (عليه السلام) شرا وذلك حين ألقيوه في النار فجعلها
 الله بردا وسلاما ناسب أن يلقيوا جزاء يجانس أعمالهم ويتناسب مع اسم
 هذه السورة الكريمة التي يدل اسمها على مقصودها .

٥ - كما جاء تشبيه أعمال الكافرين بالسراب والظلمات متناسبا
 ومتناسقا مع السياق الذي وردت فيه .

لأنه سبحانه لما ذكر حال المؤمنين وما هم عليه من نور ويقين
 والحامل لهم على ذلك الفوز العظيم والنعيم المقيم الذي يصيرون إليه ذكر
 مقابل ذلك مآل الكافرين والحامل لهم على هذا الخسران المبين فناسب
 أن يعطف هذا المعنى على ذلك عطف القصة على القصة ليكون بينها
 هذا التناظر البديع .

(١) الأدب المفرد للبخاري * باب الجهرص ١١٣ .

التقابل

٦ - ثم تأمل / البديع بين هذا الذى أقام حياته على وهم

وسراب وبين أولئك الذين أقاموها على نور من ربهم فزادهم نورا .

٧ - قارن بين هذا الظمان المتوهم الذى ألهاه سراب

بقية ففضى عمر ساعيا لا هنا وراءه حتى أهلكه الظما عندما جاءه ولم

يجده شيئا .

وبين أولئك الرطبة قلوبهم المخيبة المنجيه إلى ربها بالفدو

والأصال تشبها لأنفسهم وابتغاء مرضاته فأنى تلهيهم تجارة أو بيع عن

ذكر الله ؟ .

٨ - ثم قارن بين العاقبتين فهناك عطاء واسع بغير حساب

وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

وها هنا غضب جم وتوفية حساب :

وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ

٩ - كما تجد هذا التناسب والتقابل يعتمد من ناحية

أخرى من السياق المقابل للمثل فترى هذا الظامي وحده في شدة الرضا

وهو يتحرق ظمأ ويتلوى كمدا بينما الوجود حوله رى خصب يمطر وابلسه

ويصيب برده من يشاء . (١)

(١) انظر الآية ٤٣ / سورة النور .

١٠ - ثم تأمل كيف يمتد هذا التناسق والتقابل بين هذه الظلمات في قلب الكافر وكيف تتضاعف وتتكاثر بحيث إذا أخرج يده لم يكدرها .
ومين ذلك النور في قلب المؤمن وكيف يترابط فيتزايد فهو نور قــــــد تناسرفيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت حتى لم يبق مما يقوى النور ويزيده إلا إشراقاً ويمده بإضاءة بقية* . (١)

١١ - وازن بين هذه القلوب المعرضة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف تتكاثر فيها الظلمات . (٢)
ومين تلك المقلة على بيوت الله كيف يتضاعف فيها النور والإيمان .

١٢ - ثم تأمل هذا التقابل العجيب بين هذه الظلمات في ذلك العمق الفائق والتي ختم عليها فلا تقوم فيها حياة لأعمال ومين

(١) الكشاف ٦٨/٣ .
(٢) انظر آية ٤٨ / سورة النور .

قدرة الله في ذلك العلو الشاهق على بعث الحياة من بين ركام السحاب وإخراج النور من بين ظلمات الدجى الفاسق .^(١)

١٣ - وبعد فإن ما نقف عليه من هذا السبك البارع والنظم

الجليل والتناسق اليديع الذى لا يتناهى حسنه ومجاله وفضله وجلاله إنما هو ما يتقاطر إلينا من هذا الفيض السخي والخير الخصيب من مائدة الله التي لا يشبع منها العلماء . ولك أن توازن بين هذين التمثيلين وكيف جمع الله فيهما بين أمور متضادة لتعبر عن ضياع أعمال الكافرين وعدم نفعها وهذا من يديع أسلوب القرآن الكريم الذى يمثل لك الشيء بالشيء وضده .

وازن بين (سراب بقيعة) يقابله (بحر لجي) .

وبين هذه القيعة المجدية ليس فيها قطرة ماء .

وبين بحر لجي يفيض ماء .

بين شدة الضوء هناك وشدة الظلمة هنا .

ومع ذلك فالعاقبة واحدة فهناك **لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا** وهنا : **إِذَا أَخْرَجَ**

يَدَهُ لَمْ يَكِدْ لِرَمَاهَا فالروئية والبصيرة قد طمست والأعمال قد ضاعت

وفنيت والهلاك محقق به من كل جانب .

(١) انظر آية ٤٧ / سورة النور .

١٤ - كما تعود أسرار التنوع في تشبيهات أعمال الكافرين بالسراب

والظلمات إلى المواد اللغوية التي بنيت منها التشبيهات فنلاحظ مثلاً :

أن عناصر التشبيه الأول وهي (السراب القيعه الظمان) بينها هذا التجاذب

الشديد والتقارب البديع الذي يؤكده الوهم ويضاعفه ، تأمل كيف يفرى

هذا السراب ذلك الظامي ، فيعطفه نحوه ويجذبه إليه .

كما نجد هذا التقارب والتلاؤم بين عناصر التشيل الآخر من (ظلمات

وحرلجي يفساه موج) ليؤكد شدة الظلمة وتضاعفها .

الفصل الخامس :

التشبيه الذي يمثل أوصاف المخالفين
من المنافقين وأسرار تنوعه .

المدخل :

ورد ذكر النفاق والمنافقين في القرآن الكريم في عدة مواضع
ومأساليب بلاغية مختلفة يبين فيها سبحانه أن النفاق مرض في القلب
يحول بين صاحبه وبين نور الحق وصحة اليقين قال تعالى :

فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا (١)

وأن ما يظهره المنافقون من نور الإسلام في الدنيا لا يحو ولا يزيل ظلمة
قلوبهم ، وتعظم حاجتهم إلى هذا النور في كرب يوم القيامة :

يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا

أَنْظِرُونَا نَقْتِسِسَ مِنْ نُورِكُمْ (٢)

ولما كان أمر هذه الطائفة خطيراً ولاؤها عظيماً جلى سبحانه حقيقة
أمرها وما تنطوى عليه دخائل نفوسهم وما هم فيه من حيرة وشك في مثلين
بديعين يرى من خلالهما التخييل في صورة المحقق والمتوهم في معرض
المتقين والغائب كالمشاهد (٣) ليكون في ذلك أبلغ تأكيد وأعظم تقرير

(١) البقرة / ١٠٠ .

(٢) الحديد / ١٣ .

(٣) انظر الكشاف ١ / ١٩٥ .

على سوء حالهم وفساد سريرتهم وخسران عاقبتهم .
وسأقف بإذن الله وتوفيقه في هذا الفصل على أسرار التنوع
وراء تشبيه المنافقين بالذى استوقد نارا وبأصحاب المصيب-

قال تعالى :

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي
أَسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ
فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ سَمِيعٌ بِكُمْ عُمِّيٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ
﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ
أَصْبَحَهُمْ فِي سَاءِ مَا أَنزَلَ مِنَ السَّوَادِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ
بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا
أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ
لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

من أسرار المناسبة :

تمتد المناسبة بين سورة البقرة وآخر سورة الفاتحة فما أجمل

هناك فصل هنا ، وهذا من بديع أسلوب القرآن الكريم .

فقد تناولت سورة الفاتحة الحديث عن ثلاثة أصناف من الناس

على وجه الإجمال بينما تناولت البقرة هذه الأصناف بشيء من التفصيل . (١)

فبدأت ذلك بنفي الريب عن كتاب الله المبين ، ثم بينت حال

ومآل الذين آمنوا به واهتدوا بهداه وهم المتقون ، ثم بينت صفوة

وعاقبة الكافرين الذين طبع على قلوبهم فهم لا يؤمنون ، ثم أتت ذلك

بذكر المنافقين الذين خالط قلوبهم الريب والتبس أقوالهم وأفعالهم

فخفى أمرهم وعظم بلاؤهم فأبان الحق سبحانه عن أحوالهم بما هتك

من سرائرهم وكشف من ضمائرهم ليكون الناس على بينة من أمرهم وليكون

في ذلك رديماً لهم وزجراً .

(١) انظر نظم الدرر ١ / ١ .

من أسرار اللغة والنظم :

قال تعالى :

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا . وقعت هذه الجملة موقع

البيان والتقرير من الجمل الماضية لذلك لم تعطف عليها وكان بينها وبين ما قبلها كمال اتصال . (١)

ثم تأمل كيف جاء التشبيه بصورة فردية وهي قوله تعالى :

” كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا “

مع أن التشبيه هي حالة جماعة المنافقين ويكاد يغلب هذا على أسلوب القرآن

الكريم في أمثاله التي يعبر بها عن المخالفين وأحوالهم وأعمالهم .

فذلك الظمان اللاهث وراء السراب في حرقة الصحراء ، وذلك

السابح في ظلمات بحر لجي (إذا أخرج يده لم يكد يراها) (٢) ، وهذا

الصفوان الأجرد وسط طبيعة ثرة خصبة تتفجر ينابيعها (٣) بالحياة ،

(١) التحرير والتنوير ١ / ٣٠٢ .

(٢) سورة النور / ٣٨ - ٤٠ .

(٣) سورة البقرة / ٢٦٤ .

كلها صور فردية تعبر عن جماعة المخالفين وأعمالهم وأحوالهم ، ولعل
حكمة مجيئها على هذه الهيئة هو أن في هذه الصورة مزيد إيهاش وتنفير
وكان صاحبها وحده وسط هذه الأحوال والحيرة والشك يتخبط ويعاني
وذلك أشد وقعاً عليه وأنكى له .

وتلك هي حقيقة هذه الفئة الذين لا جماعة لهم في الواقع

* تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى (١)

ثم تأمل ما وراء (استوقد) من الكد والكبح والطلب والإلحاح
في حصول ذلك والتأكيد والحرص عليه والحث والاستدعاء له وراء ذلك
الحاجة الملحة لهذا الطلب والاستيقاد .

ثم تأمل كيف يكون انطفأؤها - مع حاجتها هذه إليها -
أنكى له . (٢)

" ووقود النار سطوعها وارتفاع لهبها " . (٣)

في تنكير (نار) ما يوحي بأنها نار عظيمة ارتفع لهبها وسطع ضوءها

(١) الحشر / ١٤

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ١ / ١٣٠ .

(٣) الكشف ١ / ١٩٧ ، البحر المحيط ١ / ٧٥ .

حتى أضاءت ما حولها . (١)

فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ

جلمة مفرعة على جلمة استوقده . (٢) وأضاء . يأتي متعدياً وهو الأصل كما

في قول الشاعر :

أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ

دَجَى اللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ الْجَزَعُ ثَائِبَهُ

ويأتي قاصراً (لازماً) بمعنى صار ذا ضوء كقول الشاعر :

يَضِي سَنَاءُ أَوْ مَصَابِيحُ رَاهِبٍ

أَمَالَ السَّلِيْطَ بِالذَّبَالِ الْمُفْتُلِ

والآية لا تضيق عن هذين المعنيين أى فلما أضاءت النار الجهات حوله

وهو يعني ارتفاع شعاعها و سطوع لهبها أو فلما أضاءت النار واشتعلت

وكثر ضوءها في نفسها . (٣)

ذَهَبَ اللَّهُ نُورُهُمْ

تأمل كيف أخرج الكلام هنا على خلاف مقتضى الظاهر وهذا من

(١) انظر الكشاف ١/٣٠٠

(٢) التحرير والتنوير ١/٣٠٧

(٣) المصدر السابق ١/٣٨

بديع أسلوب القرآن إذ أن مقتضى الظاهر والسياق أن يقول (ذهب الله بنوره وتركه) ليعود الضمير على (الذي استوقد ناراً) ولكن جمع الضمير، والتعبير (بالنور) عوضاً عن (النار) أوحى بهذا الانتقال البديع الذي يدل على أن الله سبحانه أذهب نور الإيمان من قلوب المنافقين . (١)

وقريب ما ذهب إليه ابن عاشور ما جوزه الكشاف من اعتبار قوله

تعالى :

ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ

استثنافاً وأن التمثيل ينتهي عند قوله تعالى :

فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُمْ

ويكون جواب (لما) محذوفاً دلت عليه الجملة المستأنفة . (٢)

(١) التحرير والتشوير ١/٣٠٩ .

(٢) الكشاف ١/١٩٩ .

وينبه صاحب الكشف إلى النكت البلاغية وراء هذا الحذف فيقول :

(وكان الحذف أولى من الإثبات لما فيه من الوجازة مع الإعراب عن الصفة التي تحصل عليها المستوقد بما هو أبلغ في اللفظ في آراء المعنى كأنه قيل :

" فلما أضاءت ما حوله خمدت فبقوا خابطيين في ظلام متحيرين

متحسرين على فوت الضوء خائبين بعد الكدح في إحياء النار " . (١)

ومعنى (ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ) أى أطفأ نارهم .

وفي التعبير عن (النور) بدل (النار) لأنه المقصود من

إيقاد النار . كما أن المقصود من التجارة الريح فالريح هو الثمرة المرجوة

كما أن النور هو الغاية المقصودة .

والمشابهة بين الإسلام الذى أظهروه بقولهم : (آمنا) وبين

النور قائمة ، وقد شاع استعمال النور في التعبير عن الإسلام في القرآن

الكريم .

كما شاع استعمال الظلمة في الكفر .

ثم تأمل ما وراء إستاناد الذهاب إلى الله سبحانه وتعالى من
أن الذي ذهب بنورهم هو القوى العزيز الذي لا راد لما
أخذ ولا مرسل لما أسكه ^(١) فهو أشد في تحقيق الذهاب وتأكيده .
ولأن تعدية الفعل بالباء فيه معنى الاستصحاب والإسك وفي
ذلك من المبالغة والتأكيد ما فيه . ^(٢)
ومنها أنه حدث بأمر خفي أو أمر سماوي لأن الكل بخلقـــــــــــــــــه
تعالى . ^(٣)
ومنها أيضا إشعار بغضب الله عليهم إذ أطفأ نارهم وذلك
لأنهم استوقدوها لغير مرضاة الله وهي إما نار مجازية كنار الفتنة
والعداوة للإسلام .
أو حقيقة أوقدها الخوافة للفساد والإفساد . ^(٤)

-
- (١) روح المعاني ١/١٦٦ - الكشاف ١/٢٠١ .
(٢) انظر أبو السعود ١/٥١ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) انظر الكشاف ١/٢٠٠ . روح المعاني ١/١١٥ .

(وتركهم في ظلمات لا يبصرون)

تأمل ما وراء (تركهم) من الرمي والطرح والنهذ كأنهم كالشيء
الذي لا يعبأ به ولا يلتفت إليه ولا يخطر ببال . (١)

ثم تأمل كيف أكد شدة هذه الظلمات وتضاعفها وتراكبها
وتراكمها وإطباقها بحيث لا ينفذ فيها بصر وذلك بجمعها وتكثيرها
واتباعها بقوله (لا يبصرون) .

ثم إنك إذا عدت إلى هذا الجمع في (ظلمات) وجدت أنه يشير
إلى أحوال كثيرة من أحوال المنافقين كل حالة منها كأنها ظلمة فكفرهم
ظلمة وكذبهم ظلمة واستهزاؤهم بالموءنين ظلمة وهكذا . (٢)

ثم تأمل ما وراء حذف مفعول (لا يبصرون) فكانه أوهم بأن
الفعل غير متعد وفي ذلك إيحاء بأن حاسة البصر عندهم كأنها معطلة
ثم تأمل كيف يتناسب هذا مع قوله تعالى في السياق السابق :

(٣) وَيَكْدُهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ يَمْشُونَ

(١) انظر الكشف ٢٠٠ / ١

(٢) انظر التحرير والتنوير ٣١٢ / ١

(٣) البقرة ١٥ /

« والعنه في البصيره كالعمى في البصر وهو التحير والتردد » (١)

وإذا ما عدت إلى هذه الجملة وهي قوله تعالى :

وَتَرْكُهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ

تجدها تقريراً وتوكيداً لمضمون جملة :

ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ

وليس في ذلك تكراراً لأن الكلام ينمو وتكرر فوائده بهذا التكرار إذ أن

هذه الجملة بالإضافة إلى أنها تؤكد معنى الجملة السابقة إلا أنها

تضيف إلى ذلك معنى التحقير والازدراء في (تركهم) وشدة الحيرة

والتخبط فسي هذه الظلمات التي جمعت ثم نكرت ليزيد ذلك من

هولها وشدتها وإطباقها ثم عن البصر والبصيرة وسط ذلك كله فسي

قوله :

لَا يُبْصِرُونَ ۝ صُمُّ بَكْرَتَيْنِ فَهَهُمَا لَا يَرْجِعُونَ .

ثم تأمل قول الزمخشري في معنى هذه الآية إذ يقول : (٢)

(١) أبو السعود ٤٧/١

(٢) الكشاف ٢٠٣/١ - ٢٠٤

" كانت حواسهم سليمة ولكن لما سدوا عن الإصاغة إلى الحق مسامعهم وأبو أن ينطقوا به أَسَدَتْهُمْ وَأَنْ يَنْظُرُوا وَيَتَبَصَّرُوا بَعْيُونَهُمْ جَعَلُوا كَأَنَّمَا أُيْفِتْ شَاعِرُهُمْ وَانْتَقَضَتْ بِنَاهَا الَّتِي بَنَيْتَ عَلَيْهَا لِلْإِحْسَاسِ وَالْإِدْرَاكِ كَقَوْلِهِ :

صَمَّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذَكَرْتُ بِهِ

وَأِنْ ذَكَرْتُ بِسَوْءٍ عِنْدَهُمْ أَذُنُوا

وعن ابن عباس : صم بكم عمي لا يسمعون / ولا يبصرونه ولا يعقلونه . (٢)

وقوله تعالى :

صَمَّ بِكُمْ عَمًى

أخبار لمبتدأ محذوف ، وحذف المسند إليه في مثل هذه المقامات أخر جرت

عليه لغة العرب وكان السياق يشتد ويحتد ، فيكون للإيجاز مع الحذف

هذا الوقع الشديد التأثير في النفس والحس .

وقوله تعالى : لَا يَرْجِعُونَ ، فيها عدة وجوه منها :

" أى لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه أو عن الضلالة بعد أن اشتروها . (٣)

(١) أَيْفِتْ : أَصَابَتْهَا آفَةٌ .

(٢) الطبري ١/ ١١٤ .

(٣) الكشف ١/ ٢٠٧ .

ومنها : "أنهم بمنزلة المتحيرين الذين بقوا جامدين في مكانهم

لا يخرجون ولا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون". (١)

ومجيء الجملة الاسمية يفيد ثبوت ذلك ودوامه واستمراره .

ثم تأمل كيف أثرى حذف المتعلق في قوله (لا يرجعون) المعنى وأفساد

أنهم لا يرجعون عن أحوال كثيرة .

ثم إنك إذا ما عدت إلى هذه الآية وجدت بها تقريراً وتأكيذاً للمضمون

ما قبلها وإيذاناً بأنهم مستمرون في ظلماتهم لا يخرجون منها لأنهم فقدوا

أدوات المعرفة وآلات الحس التي يستدلون بها على طريق النجاة أو

يشعرون بها أنهم في خطر وفساد .

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُتَّسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ

فهم في غيهم يعمسون وفي ظلمات قلوبهم ونفاقهم يترددون فأنى يرجعون .

وقد ذكر المفسرون (٢) لهذا التشيل وجوهاً كثيرة وذلك لأن

التشيل في القرآن الكريم لا يقتصر على وجه واحد للمشابهة بل هو مبني

على الطي والدمج والثراء والخصوبة والإيجاز والاكتناز وتعدد وجوه

(١) الكشف ٢٠٧/١ .

(٢) انظر البحر المحيط ٧٦/١ . والفخر الرازي ٨١/١ .

الشبه والعلاقات الدقيقة التي تربط المشبه بالمشبه به والتي لا تظهر إلا أثناء التحليل المتأنى والمدارسة والمتابعة والتذوق الواعي البصير للمعاني الكلم وسرائر النظم.

من تلك الوجوه التي ذكرها المفسرون لهذا التشثيل قولهم :
(إن الذي يستوقد النار^{*} إنما يستوقدها ليسمدفع بها الأذى عن نفسه ويحسبها فإذا انطفأت عنه كان قد عرض نفسه للهلاك وكشف عنها ستار الأمن وهذه حال الناطق الذي يحقق دمه بالإسلام ويبسجه بالكفر .
ومنها أنه يهتدى بنور الإسلام فإذا ارتكس ونكس فقد زال عنه ذلك النور فضل وتاه وغشيتة ظلمة كفره ونفاقه .

ومنها أن المستضيء بهذه النار إنما يستضيء بنور خارجي لا ينبع من ذات نفسه وداخل قلبه أي نور مستعار فظلمة نفسه لا تزال كما هي على أن ما حوله مضاء متقد .

ولما كان هذا الضوء ضوء خارجي لا يحوطه سياج يحسبه كان عرضة للذهاب والهلاك فإذا انطفأ ضل صاحبه وهلك فهو مثال لمن أقربلسانه ولم يلج إيمانه قلبه فكأن إيمانه كالمستعار .

ومنها أنه شبه إقبالهم على المسلمين بالإضاءة وإدبارهم وتوليهم إلى شياطينهم بضدها .
(١)

وإذا كان المراد بالعشبه منافقي اليهود كان وجه الشبه هو
استفتاحهم على أعدائهم وما كانوا يستنصرون به عليهم بحال المستوقد
ناراً فلما بعث عليه الصلاة والسلام كبروا به وناقوا فذهب عنهم ذلك
النور. (١)

والمهم هو وصف شدة الحيرة والتخبط والتردى لمن يكون له
نوراً ويستوقد ناراً لغاية ما ثم تطفأ ناره فيصبح أشد حيرة منه قبل
ذلك لأنه عرف ثم ^{أنكر} وأبصر ثم علم ثم جهل فلا إصار لهم ببصر
ولا بصيرة. (٢)

(١) المصدر السابق .

(٢) انظر البقاعي نظم الدرر ١/ ٢٠٠ .

أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ

وَالصَّيْبُ : السَّحَابُ الْمَخْتَصُّ بِالصَّوْبِ وَهُوَ فِعْلٌ مِّنْ صَابَ

يَصُوبُ قَالَ الشَّاعِرُ :

* فَكَأَنَّمَا صَابَتْ عَلَيْهِ سَحَابَةٌ * (١)

وَالصَّيْبُ : الْمَطَرُ الَّذِي يَصُوبُ أَيْ يَنْزِلُ وَيَقَعُ وَيُقَالُ لِلْسَّحَابِ

صَيْبٌ أَيْضًا قَالَ الشَّمَاخُ :

* وَأَسْحَمُ دَانَ صَادِقُ الرَّعْدِ صَيْبٌ * (٢)

قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ " شَبَّهَ دِينَ الْإِسْلَامِ بِالصَّيْبِ لِأَنَّ الْقُلُوبَ تَحْيَا بِهِ حَيَاةَ الْأَرْضِ بِالْمَطَرِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ ، وَشَبَّهَ الْكُفَّارَ بِالظُّلُمَاتِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ بِالرَّعْدِ وَالْبَرْقِ ، وَمَا يَصِيبُ الْكُفْرَةَ مِنَ الْإِقْزَاعِ وَالْبَلَايَا وَالْفِتَنِ مِنْ جِهَةِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ بِالصَّوَابِ .

وَالْمَعْنَى أَوْ كَمَثَلِ ذَوِي صَيْبٍ وَالْمَرَادُ : كَمَثَلِ قَوْمٍ أَخَذَتْهُمُ السَّمَاءُ

عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ فَلَقُوا مِنْهَا مَا لَقُوا " (٣)

(١) مفردان الراغب مادة (صوب) .

(٢) الكشف ١ / ٢١٤ .

(٣) المرجع السابق ١ / ٢٠٩ - ٢١٠ .

ومجيء الكاف مع حرف العطف (أو كصيب) فيه إشارة إلى

إختلاف الحالين المشبهين .

والمراد بالصيب هنا القرآن أو هدى الإسلام وتشبيهه بالغيث

ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول :
(مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ الْكَبِيرِ الْغَيْثُ / أَصَابَ
أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ ..) (١)

وهكذا يتضح لنا مجعلاً أن هذا التشثيل تصوير لأحوال نفوس

المنافقين حين يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستمعون

إلى كتاب الله وحين يلقون المؤمن فيتظاهرون أمامهم بالإيمان ثم ما

وراء ذلك ما يختلج في صدورهم — وما يجاذب نفوسهم

حين يستمعون إلى آى الوعيد لا مثالهم وآى البشارة للمؤمن وما يقولونه

لحظة آمن ثم ينكصون عنه إذا ما خلوا إلى شياطينهم . وغير ذلك

من المعاني والأحوال التي يبين فيها ويجليها الوقوف المتأنى أمام

معاني الكلمات .

(١) مختصر صحيح البخارى للإمام زين الدين الزبيدى رقم ٢٠ ص ٤٠ .

فورا تتكبر صيب : إياها بأنه نوع من المطر شديد عظيم وسخي
كريم فاضل من أرجاء السماء وغمر الوجود .

ثم تأمل كيف أفادت الكلمة بمادتها (صوب) وبمخارج
حروفها وطريقة بنائها من الصاد إلى الياء الشددة والياء عن شدة
الانصباب والخير الذي عم وفاض . (١)

وشدة الصيب تستدعي شدة الظلمة التي تكاثفت من كثافة
السحب وكثافة الانسكاب بالإضافة إلى ظلمة الليل .

ثم تأمل ما وراء هذا القيد (من السماء) من الإشارة إلى
علو مصدره وسمو مورده وصفائه ونقاؤه وإحاطته وعمومه ، وأنه صيب
عام نازل من غمام مطبق آخذ بالافاق . (٢)

فِيهِ ظَلَمَتْ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ

تأمل كيف يصور لك التمثيل هذه الجوانب التي طغت على
نفوسهم فانخلعت لها قلوبهم جزعا وضعت آذانهم رعبا وكادت أبصارهم
أن تخطف إنه الحق الذي تجلجل به السماء وتتفشى رحمته الوجود

(١) انظر (أبو السعود) ٥٢ / ١ - ٥٣ .

(٢) انظر الكشاف ٢١١ / ١ .

لم ينلهم منه إلا ظلمات ووعده ورقه .

ثم تأمل ما وراء هذه الظلمات من الإيحاش والغمة التي تعترى

نفوسهم إنها ظلمات الشبهات والشكوك والريب الذي يخالط قلوبهم . (١)

ثم تأمل ما وراء هذه الظرفية (فيه ظلمات) من الإشارة

إلى شدة هذا الصيب والتهويل والتعظيم لا أمره بحيث طفت ظلماته

فهي غالبية على غيرها من ظلة الليل والغمام وهذا أعظم في بيان
شدته . (٢)

ثم ذلك الرعد القاصف والبرق الخاطف يقرع أسماعهم وكان

يعني أبما رهم من زواجر القرآن ووعده ووعيده . (٣)

أو أن هذا البرق الشديد اللعنان هو ما يشرق من نور الحق

وضيائه وسط ظلمات نفوسهم وشبهات قلوبهم .

(١) انظر التحرير والتنوير ٣١٢/١ .

(٢) انظر (أبو السعود) ٥٣/١ .

(٣) انظر الكشاف ٢٠٩/١ - ٢١٠ .

وهكذا نقف على جلال التشيل في القرآن ودقته حين يصور

لك كيف أحاط هذا الفزع والجزع والهول والرعب بجميع منافذ الحس لديهم فأطبق عليهم من ظلمات تفتال بهولها ووحشتها نفوسهم ورعد وصواعق تعوم آذانهم ويرق يكاد يخطف أبصارهم فإذا هم في شك وحيرة بين مشي وقيام وتبصر فظلام .

ثم تأمل كيف تتوالى الأحوال فتستأنف الجمل الحالية التي

تكشف عن دقائق نفوسهم وما يختلج في صدورهم إذ :

يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ

تأمل هذا التناسب البديع والتدرج في التصوير وهذه الحركة

الخارجية حركة أيديهم المضطربة الفزعة تلج آذانهم ثم ما وراء ذلك

من حركة قلوبهم الوجلة المذعورة التي ترتجف حذر الموت .
(من الصواعق والحذر والموت)

ثم تأمل هذه الكلمات/ وكيف أضفت جو الرعب والهلع وشبح الموت

والهلاك بالإضافة إلى شدة الحيرة والتخبط .

المرسل في جعلهم

ثم تأمل ما وراء هذا المجاز / أصابعهم في آذانهم، والمراد : رؤوس الأصابع

من المبالغة في التصوير الذي ينبغي " عن مبلغ الخوف والحذر . يقول

الزمخشري :

وهذا من الاتساعات في اللغة التي لا يكاد الحاصر يحصرها

كقوله تعالى :

فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ

وَالسَّارِقَةَ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا (١)

وقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾

اعتراض راجع إلى المنافقين وهو في رجوعه يتناسب ويتلاءم

مع قوله تعالى :

ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكُوهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ

حيث رجع إلى الشبه . (٢)

ووراء ذلك أن حذرهم وما صنعوا لا يفني عنهم شيئاً ولا ترد

حيلهم بأس الله بهم .

ثم تأمل ما وراء التعبير (بالكافرين) واظهره موضع الضمير

من الإشارة إلى أن ما أصابهم وما دههم من الأمور الحالكة والخطب

العظيم بسبب كفرهم .

(١) الكشاف ٢١٧/١

(٢) التحرير والتنوير ٣٢١/١

يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ^(١)

يكاد : يقارب (يقال كَادَ يَفْعَلُ إذا لم يكن قد فعل)^(١)

والخطف : (وَالْاِخْتِطَافُ الْاِخْتِلَاسُ بِالسَّرْعَةِ)^(٢)

وفي الأساس (وَمِنْ الْمَجَازِ الْبَرْقُ يَخْطِفُ الْبَصَرَ)^(٣)

ثم تأمل ما وراء كلمة (يخطف) من تكرر ذلك واستمرار تجدد فهم

في رعب دائم ، وعدم أمن أو يقين إلى صحة إيمانهم .

يقول أبو السعود : " إيراد (كلما) مع الاضاءة (وإذا) مع الإظلام

للإيذان بأنهم حراس على المشي مترقبون لما يصححه ، فكلما وجدوا

فرصة انتهزوها ولا كذلك الوقوف ، وفيه من الدلالة على كمال التحير

وتطايير اللب ما لا يوصف " (٤) وذلك في قوله تعالى :

كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا

(١) الراغب مادة (كيد) .

(٢) الراغب مادة (خطف) .

(٣) الأساس للزمخشري مادة (خطف)

(٤) أبو السعود ٥٤ / ١ .

ذلك
وما يؤكده هذه الظرفية في قوله : «لَشَوْأُ فِيهِ» :

إذ أن المشي في محل البرق وموضع إشراق ضوئه .

والمعنى : مشوا لأجل الإضاءة فيه ، وفي ذلك إشارة إلى

ضعف قواهم ومزيد خوفهم ودهشتهم وشدة حيرتهم لذلك لم يشير

القرآن إلى سرعتهم في ذلك ، وفي حذف مفعول (أضاء) ما يشير

إلى فرط الحيرة وأنهم كانوا يخطئون خبط عشواء ويمشون كل مشى .^(١)

وَإِذَا أَذْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا

أي وقفوا متحيرين غاية التحير، والظلمة بعد شدة الضوء

ولمعان البرق تكون أشد وصاحبها أعظم حيرة من ذي قبل .

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢٠

تأمل هذا الكلام البديع وكيف أشار إلى أن الرعد والبرق

المشبه بهما قد بلغا غاية القوة ومنتهى الشدة بحيث لم ينفعهما

من إتلاف سمع هؤلاء المنافقين أصحاب الصيب والذهاب بأبصارهم

إلا مشيئة الله وقدرته سبحانه وذلك لحكمة يريد بها .

(١) روح المعاني ١٧٦/١ وانظر البحر المحيط ٩٠/١ .

وهذا يعني أن المنافقين لشدة نفاقهم وتردد هم وشكهم واستهزائهم بالمؤمنين وإعراضهم عن الحق تكاد أسماعهم وأبصارهم أن تتلف فلا ينتفعوا بها ولكن الله أبقاها لهم استدراجاً لهم وإيلاءً ليزدادوا إثماً وغيياً . (١)

وفي ذلك من التهديد لهم والوعيد ما فيه . التهديد بأنهم إن لم يقلعوا عن كفرهم ونفاقهم فإن الله قادر على أن يطمس قلوبهم ويختم على أسماعهم وأبصارهم فلن يهتدوا إنذاً أبداً .

من أسرار التنوع في التشبيه الذي يمثل أوصاف المخالفين من المنافقين :

رأينا كيف أن الوقوف أمام الكلمات والجمل ومساءلتها ، ومحاولة
الكشف عما وراءها من سرائر النظم ويديع المعاني هو الذي يجلب لنا
أسرار التنوع وراء كل تمثيل .

فعناصر التمثيل الأول ومواده تتكون من الذي يكدر ويلج في طلب
الاستيقاد - أي المستوقد نارا - والنار والإضاءة لما حوله ثم انطفاء تلك النار
وخمودها والظلمات التي ظلوا فيها لا يبصرون عندما ذهب الله بنورهم
وانعدام حواسهم التي يبصرون ويسمعون ويتكلمون بها فهم لا يرجعون ،
يقابل ذلك في التمثيل الثاني " أصحاب الصيب " .

والصيب البالغ الشدة وما فيه من ظلمات ورعد وصرق وصواعق
ثم حركاتهم المضطربة من وضع أصابعهم في آذانهم واحتلاج صدورهم
حذر الموت ومشيمهم تارة ثم قيامهم أخرى في ضوء البرق .
وتم قدرة الله عليهم وإحاطته بهم وإبقاؤهم سمعهم وأبصارهم لحكمة
يريدها مع تهديدهم بأن الله قادر على الذهاب بها .

يقول ابن القيم :

" ف ضرب للمنافقين بحسب حالهم مثلين : مثلاً نارياً ومثلاً مائياً
لما في النار والماء من الإضاءة والإشراق والحياة فإن النار مادة النور والماء

مادة الحياة وقد جعل الله سبحانه الوحي الذي أنزله من السماء متضمنا
لحياة القلوب واستنارتها ولهذا ساء رُوحا ونورا وجعل قابلية أحياء في
النور ومن لم يرفع به رأسا أمواتا في الظلمات* (١)

١ - الصورة الأولى أو التمثيل الأول يمثل قوما لهم حاجة ماسة
إلى استيقاد نارٍ وأنهم بعد الجهد والنصب والطلب أضأت لهم
النار ما حولهم وتبينوا وأبصروا فهم أهل علم ومعرفة أي بعد أن عرف
المنافقون طريق الإسلام وأدركوا أن الحق والهدى غلبت عليهم عصبيتهم
وجاهليتهم ونزعتهم لتقليد آباءهم فاتبعوا شهواتهم فذهب عنهم^{ضوء} الإسلام
وأطفئت فيهم نور الفطرة وتعطلت قواهم الحسية والشعورية فهم بمنزلة
الصم البكم العمي .

بينما التمثيل الثاني : يركز على هذا الخير الذي فاض وهم الوجود
ويؤكد أن مصدر هذا الهدى والنور الذي أنكره الناكرون إنما هو من
مصدر إلهي سام لا ريب فيه ولكن ظلمات الشك والريب حالت بينهم وبين
هذا الخير والانتفاع به على أتم وجه فهم قوم مترددون بين مجلس رسول
الله صلى الله عليه وسلم وسماع آيات القرآن وبين شياطينهم الذين إذا خلوا

(١) اعلام الموقعين لابن القيم ١/ ١٥٠ - ١٥١ .

بهم قالوا لهم (إنا معكم، إنما نحن مستهزئون) فبصائرهم وعقولهم ضعيفة
ولضعفها تشدد (عليهم زواجِر القرآن ووعيده وتهديده وأوامره ونواهيه
وخطابه الذي يشبه الصواعق) . (١)

التنوع أن

٢ - من أسرار / التمثيل الأول يوءد ذهاب الله بنورهم وتركهم في ظلمات
لا يبصرون بينما لا يزال القوم في التمثيل الثاني حيارى مترددين بين

إبصار وإظلام .

التنوع أن

٣ - من أسرار / التمثيل الأول يوءد الله سبحانه وتعالى فيه بأنهم لا يرجعون
عن ضلالتهم التي اشتروها أو لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه فهم
... قد ضلوا ولا عودة لهم .

بينما يهدد القرآن الكريم أصحاب الصيب بأنهم إن ظلوا على نفاقهم

فإن الله قادر على الذهاب بسمعهم وأبصارهم ، أو أنه سبحانه إنما يدع

لهم أسماعهم وأبصارهم مستدرجا لهم ليطمأنوا في غيهم وطمغيانهم وفي

ذلك من الاستهزاء بهم والتهكم مافيه : يقول تعالى :

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْمَهُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ

فَكَرِهَتْ تُجَازُّهُمْ وَمَا كَانُوا مَهْتَدِينَ ۝

(١) اعلام الموقعين ابن القيم ١/ ١٥٠ .

(٢) البقرة / ١٥ - ١٦ .

تأمل إلى هذه التجارة التي هي رأس مالهم وإلى الهدى والعلم

الذي كانوا يحرصون عليه أشد الحرص كيف باعوه وجعلوه سبباً للضلالة .
٤ - من أسرار / التنوع أن المثل الناري في الصورة الأولى يركز على أن الضوء خارج عن
مستوقده منفصلاً عنه ولو اتصل ضوءها به ولا بسبب لما ذهب فهو ضوء مجاوره
لا ملابسه ومخالطه ^(١) وهو ضوء أرضي استوقده صاحبه يمثل كلمة
الإيمان التي قالوها مخادعة ورياء .

بينما الضوء في المثل المائي ضوء سواى لا يدلهم في إيقاده
يمثل النور الذي يغشاهم عند حضورهم مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسماعهم
لآيات الكتاب ولكن ظلمات صدورهم وما هم فيه من شك وحيرة يحول بينهم
وبين الانتفاع به .

٥ - من أسرار التنوع أنه بنى التمثيل الأول على الأفعال الماضية وكأنها
صورة قامت وتحققت وتمت فلا عودة لهم .
بينما يمثل التمثيل الثاني صورة حاضرة متجددة مستمرة وكأنها
مائدة أمام أعيننا لا يزال البرق فيها يضيء تارة ويظلم عليهم أخرى ولا يزال
القوم فيها حيارى مترددين يعانون أشد أنواع الظلمات والحيرة والشك -
والتخبط لأن البرق لا يخطف إلا بصر من كان في ظلمة شديدة وهول رهيب .

(١) انظر التفسير القيم ص ١١٦ .

ويرى صاحب الكشف :

" أن الصحيح الذي عليه علماء البيان أن التشيلين جميعا من
جملة التشيلات المركبة دون المفردة ^{لا يتكلف} لواحد واحد هوشي * يقدر تشبيهه
به وهو القول الفحل والمذهب الجزل * (١)

والذين يذهبون إلى أن التشبيه الثاني أبلغ من الأول كالزمخشري
وأبوحيان وغيرهما لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الاضطراب وفظافته وأن
العرب يتدرجون من الأول إلى الاضطراب (٢) غابت عنهم حقائق منطق
منها :

أن كل شبيه في القرآن الكريم في موضعه بليغ بل هو الأبلغ
وليس في القرآن بليغ وأبلغ أى ليس في بلاغته تفاوت وإنما يأتي مراعاة
لمقتضى الحال والسياق والمعنى الذى جسي * به لتقريره .
والقرآن ينتقل من الصورة الأقل تركيبا إلى الصورة الأكثر تركيبا
وخصوصية لأن هذا هو منطق اللغة والعقل والفطرة .

(١) الكشف ٢١١/١ .

(٢) انظر الكشف ٢١٣/١ والبحر المحيط ٨٥/١ .

فالصورة الأولى أجملت لهم عاقبتهم وما هم فيه من عدم الانتفاع
بنور الإسلام . والثانية كشفت عن دخائل نفوسهم بصورة أدق وما
يعتريهم عند سماع القرآن وعندما يخلون إلى شياطينهم وتردد هم فسي
حيرتهم وشكهم ونفاقهم .

الفصل السادس :

النشبهات التي تمثل أحوال الناس عند البعث
وأسرار تنوعها .

المدخل :

أفاض القرآن الكريم في الحديث عن أحوال الناس عند البعث وفي يوم القيامة وقد ورد ذلك على طريق الحقيقة كما ورد عن طريق التشبيه والتمثيل .

قال تعالى :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ①
تَرَوْنَهَا نَذْهَلُ كُلَّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَانٍ حَمْلَهُ
حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ
شَدِيدٌ ②

وقوله تعالى :

يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرًّا ③

وقوله تعالى :

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ④
وَسِيرْنَا فِي الْجِبَالِ فَكَانَتْ سَرَابًا ⑤

(١) الحج / ١ - ٢٠ .

(٢) ق / ٤٤ .

(٣) النبأ / ١٨ - ٢٠ .

وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ①

كما ورد على طريق التشبيه :

فَقَالَ تَعَالَى :
يَوْمَ يُخْرِجُنَا مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ②

وقال تعالى :
يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ③ وَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ④

وقال تعالى :
يَوْمَ يُخْرِجُنَا مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ⑤ خَشَعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرَاهُمْ ذَلَّةً أَلْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ⑥

وسأقف بإذن الله على أسرار التنوع وراء كل صورة من صور التشييل :

والملاحظ أن العناصر أو المادة اللغوية التي تجمع بين هذه

التشبيهات هي الجراد المنتشر ، كأنهم إلى نصيب

يوفضون ، الفراش المبعوث .

(١) الكهف / ٩٩ .

(٢) القمر / ٧٠ .

(٣) القارعة / ٢ - ٣ .

(٤) المعارج / ٤٣ - ٤٤ .

وهو
وهي وان كان يجمعها معنى عام / إسرارهم إلى الداعي خاشعة
أبصارهم في غاية الذلة والضعف والوهن والتهالك والتهافت
إلا أن كل صورة تتفرد بمعان وإيحاءات تتناسب مع السياق الذي
وردت فيه.

قال تعالى :

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكَرٍ ۖ خُشَعًا
أَبْصَرُهُمْ يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ۖ

من أسرار المناسبة :

تتميز سورة القمر بآنها حملة رهيبه عنيفه على المكذبين
بالنذر من تهديد ووعيد واعتذار وإنذار وهول راجف وفزع مزلزل :

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ①

ابتدأت بالحديث عن الساعة وأنها قريبة جدا وقدمت بين يديها آية
تدل على إكرام لرسول الله - عليه الصلاة والسلام - لا إثباتا لنبوته لأن
نبوته ثابتة بنزول القرآن .

تأمل ما وراء أَهْرَبَتِ السَّاعَةُ من تحقق وقوعها وأن ما سيقع
هو عند الله واقع لا محالة .

ثم تأمل ما وراء انشقاق القمر من قدرة الله تعالى في آية
من أعظم آيات الله في الكون فإن كان القمر ينفطر ويتشقق استجابة
لأمر الله فكيف بهذه القلوب الجاهلة المعرضة تنكر وتكذب وتدعي
أن ذلك سحر مستمر :

(٢) فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً

(١) القمر / ١٨ .

(٢) البقرة / ٧٤ .

وَلَا يَرْوَأُ آيَةَ يُرْضُوا وَيَقُولُوا
سِحْرٌ مُسْتَمَرٌّ ۖ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ مُسْتَقَرٌّ ۖ
وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۖ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ
الذُّرُ ۚ

تأمل إلى موقفهم من آيات الله في الكون ومن الحق الذي بلغ
الغاية والنهاية في الحكمة والهداية والبيان ما زادهم إلا إغراضاً
وتكذيباً اتباعاً لا هوائهم لا استناداً إلى حجة هذا في الوقت الذي
تجد فيه كل ما في الكون يسير لغاية يستقر إليها ونظام يقوم عليه وثبات
واستقرار في كل سنن من سنن الكون والحياة حتى وظائف الأجسام والأعضاء
لا سلطان إلا هواء عليها فهذا الاستقرار يتجلى في كل شيء وفي كل أمر
من بين أيدينا وخلفنا إلا هواء الكافرين هم المضطربون المخالفون
لسنن الله في الوجود والمنقادون لا هوائهم تتجاذبهم كيف تشاء فدعهم
حتى يأتي يوم ينتهي فيه كل شيء إلى مستقره فتأمل حالهم ومصيرهم
في ذلك اليوم. ^(٢) قال قتادة : " إن الخير يستقر بأهل الخير والشر بأهل
الشر، وقيل يستقر الحق ظاهراً ثابتاً والباطل زاهقاً ذاهباً " . ^(٣)

(١) القمر / من آية ١ إلى آية ٥ .

(٢) في ظلال القرآن ص ٣٤٢٨ الطبعة التاسعة .

(٣) انظر البحر المحيط ١٧٤/٨ .

من أسرار اللغة والنظم :

فَقَوْلُهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرُ ①

تأمل التناصب والتقابل البديع فكما أعرضوا عنك يا محمد وعن الحق الذي جئت به رحمة وهدي فأعرض عنهم وتولى عنهم في أحسبك ساعاتهم وأعسر أيامهم .

* أو فأعرض عنهم فإن الإنذار لا يجدى فيهم * (٢)

والنكر - "الإنكارُ ضدُّ العِرفانِ" ويقالُ أَنْكَرْتُ كَذَا وَنَكَرْتُ وَأَصْلُهُ أَنْ يَرِدَ عَلَى الْقَلْبِ مَا لَا يَتَصَوَّرُهُ وَذَلِكَ ضَرْبٌ مِنَ الْجَهْلِ . . . وَالنُّكْرُ : الدَّهَاءُ وَالْأَمْرُ الصَّعْبُ الَّذِي لَا يُعْرِفُ * (٣)

وفي قوله (شي * نكر) وجوه منها :

* أى يوم يدعو الداعي إلى الشيء الذى أنكره * (٤)

وقيل (نكر) أى منكر لا ينبغي أن يكون أو يقع لأنه يردى بهم في الهاوية . (٥)

-
- (١) القمر / ٦٠
(٢) البحر المحيط ٨ / ١٧٤
(٣) الراغب مادة (نكر)
(٤) تفسير الفخر الرازى ١٦ / ٣٤
(٥) المصدر السابق .

فهو أمر صعب وشاق عليهم كالحساب والوقوف بين يدي الله
يوم القيامة ولم تكن نفوسهم قد تهيأت لتصوره والإيمان به واعتقاده ،
ففاجأها واغتالها لهوله .

خُشِعَ أَبْصَارُهُمْ

تأمل كيف وصف الأبصار بالخشوع ولم يصف به قلوبهم لأن
خشوعهم هنا عن ذلة وإهانة من شدة الهول فهم أذلاء ، وقدم الحال على
الفعل لمزيد الاهتمام به . (٢)

فراء هذه الكناية الواصفة خُشِعَ أَبْصَارُهُمْ ما في البصر
الخاشع من معنى الاستسلام والخضوع الدائم الملازم لهم في ذلك اليوم
يقول الطبري :

" وإنما وصف جل ثناؤه بالخشوع الأبصار دون سائر
أجسامهم والمراد به جميع أجسامهم لأن أثر ذلته كل ذليل وعزة كل
عزیز تتبين في ناظره دون سائر جسده " . (٣)

(١) القمر / ٥٧

(٢) انظر روح المعاني ٨٠ / ٩

(٣) الطبري ٥٣ / ٩

(١) يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ

تأمل ما وراء يخرجون من استحضر ذلك المشهد العظيم
الذى يكون عليه الناس حين يخرجون من قبورهم في جوارح الهول
والخوف .

كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ

ثم تأمل كيف يركز التشبيه هنا على معنى الكثرة والتفج والانتشار
على غير نظام مع تسلط الضوء على معنى التخاض والضعف والوهن الذى
هم فيه والمتجلج في أبصارهم الخاشعة .

يقول ابن فارس :

نشر * أصلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى فَتْحِ شَيْءٍ وَتَشَعُّبِهِ * . (٢)

والجراد : معروف * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ
وَالْقُمَّلَ * . (٣)

ويجوز أن يجعل أصلاً فينشق من فعله جَرَدَ الأرض ويصح أن
يقال سعى بذلك لجرده الأرض من النبات * .

(١) القم / ٧٠

(٢) المقاييس مادة (نشر) .

(٣) الأعراف / ١٣٣ .

تأمل هذا وما وراء ذلك من الإيحاء بأنهم جـراد
 ليس لهم ما يقدمونه لأنفسهم لأنهم جردوا نفوسهم
 من إيمانها وكل ما ينفعها عند ربها ، ثم إن كلمة " منتشر " تعبير صادق
 حي حركي يوحي بعدم انضباط نفوسهم وانتظامها بسنة الله في الوجود
 وشيوع الحيرة والفزع والهول والاضطراب فيهم .
 كما أن في التعبير " بالجراد المنتشر " ما يتلاءم مع جو السورة
 من " أعجاز نخل منقعر " هشيم محتظر " فكها توحى بالهلاك
 والفناء .

مُطِيعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسْرٍ ۝٨

١ : مسرعين إليه قال أبو عبيد مادي أعناقهم) . (٢)

تأمل حركة أعناقهم وما وراءها من الإسراع الحثيث الجاد إلى
 ما ينتظرهم من هول ، ثم التسميع المنبي عما يختلج في صدورهم من
 كرب وغمة * هذا يوم عسر * وكل ذلك على إيقاع واحد وتناسب في
 السبك والنظم يتناسب مع جو الهلع والفزع والرعب مع مشهد يوم القيامة
 وأحوال الناس عند البعث .

(١) القمر / ٨ .

(٢) روح المعاني ٨٠ / ٩ .

قال تعالى :

فَذَرَهُمْ يَخْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا
يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ
سِرَاطًا كَانَ هُمْ إِلَىٰ نُصُبِ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ
تَرَهِقُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

من أسرار المناسبة :

حينما نتأمل المناسبة بين نهاية السورة الكريمة وهي قوله

تعالى :

فَذَرَهُمْ

يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَأْتِيَ الْيَوْمَ الَّذِي يُوعَدُونَ ○ يَوْمَ يَخْرُجُونَ
مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ○ خَشِيعَةً
أَبْصَرُهُمْ تَرَهُهُمْ ذُلَّةً ذَٰلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ

وبين بدايتها وهي قوله تعالى :

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ○ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ

نقف على هذا التناسب البديع ورد العجز على الصدر السدى

يوءد فيه سبحانه أن هذا العذاب سيحل بالكافرين ولا
يستطيع أحد رده ، والذي أصابهم بسبب طغيانهم وجحودهم وتمردهم
على طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم يتدرج الحديث عن ذلك اليوم الموعود الذي يتحقق فيه
هذا الوعيد . وفي هذا الجوالطي بالرهبة والخشية تصعد الملائكة إلى
السماء تتنزل بأمره ووحيه . ثم ترى الجبال تتطاير وتتناثر كالعهن
المنفوش ، والسماء تذوب كالسحل ، والكل في هم شاغل ، وفزع هائل -

وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا

ولا يثبت في ذلك اليوم العظيم إلا الذين يصدقون بيوم الدين
والذين يصف القرآن الكريم كيف كان تصديقهم لذلك اليوم تطبيقا عمليا
على حياتهم قلبا وقالبا روحا وجسدا :

أُولَٰئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ (١)

ثم يعرض مقابل ذلك النعيم والتكريم حال المشركين الذين يسرعون الخطى
في الدنيا إلى مجلس رسول الله عليه الصلاة والسلام مادي أعناقهم إليه ،
مقبلين بأبصارهم عليه (٢) لا رغبة في هديه ونوره ولكن استهزاء به
وبأصحابه .

قال المفسرون : * كان المشركون يجتمعون حول النبي صلى الله عليه
وسلم حلقا حلقا يسمعون كلامه ويستتهزون به وأصحابه ويقولون إن دخل
هوء لا الجنة - كما يقول محمد - فلندخلها قبلهم ، فنزلت الآية (٣) .
ثم قارن إسراعهم في الدنيا استهزاء بالدين وإسراعهم في الآخرة ،
وكيف يستهزئ الله تعالى بهم فيقول :

يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ

حيث شبه حالة إسراعهم إلى موقف الحساب بحالة إسراعهم وتسايقهم في
الدنيا إلى آلهتهم وطواغيتهم وفي هذا من التهكم بهم والسخرية والازدراء
ما فيه .

(١) المعارج / ٣٥ .
(٢) انظر الكشاف ٤ / ١٦٠ .
(٣) انظر تفسير أبي السعود ٥ / ١٩٥ وتفسير الخازن ٤ / ١٥٢ .

من أسرار اللغة والنظم :

الخوض : هو الشُّرُوعُ في الماءِ وَالْمُرُورُ فِيهِ وَكَثُرَ مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ
فِيهِمَا يُذَمُّ الشُّرُوعُ فِيهِ . (١)

والنصب : من نَصَبُ الشَّيْءِ وَوَضَعُهُ وَضَعًا نَاتِئًا كَنَصَبِ الرُّمَحِ وَالْبِنَاءِ
وَالْحَجَرِ وَالنَّصِيبِ الْحَجَارَةِ تَنْصَبُ عَلَى الشَّيْءِ . (٢)
* وهو كل ما نصب فعبد من دون الله * . (٣)

يوفضون : مضارع أوفض .

* أوفض إيفاضاً أسرع * . (٤)

ثم تأمل كيف تأتي كلمة (كلا) ردعاً لهم عن الطمع في دخول
الجنة وعلّة ذلك أنهم ينكرون البعث والجزاء .

ثم يأتي الأمر والنهي للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يترك ما أهمه
من أمر عنادهم وكفرهم ويدعهم في خوضهم ولعبهم . (٥)

(١) الراغب مادة (خوض) .

(٢) الراغب مادة (نصب) .

(٣) الزمخشري ، ١٦٠/٤ .

(٤) المعاييس مادة (وفض) .

(٥) انظر التحرير والتنوير ١٨١/٢٩ .

حَتَّى يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ①

انظر ما وراء هذا التعبير من رحلة طويلة فيها ما فيها من جهد
وتعب ومعاناة وعمر طويل أضاعوه فيما لا يجدى ولا يشر ثم هم يلاقوا
يومهم الذى يوعدون يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب
يوفضون .

ثم تأمل الحال التي آكوا إليها بعد تكبر وعناد في الدنيا إلى
يوم القيامة
منتهى الضعف والذلة والهوان وهم يسرعون الخطى إلى الداعي/مستبقيين
كأنهم يستبقون إلى أنصابهم . (٢)

يقول ابن عاشور : وفي هذا التشبيه إيحاء إلى أن إسرائيلهم
يوم القيامة إسراع دع ودفع جزاءً على إسرائيلهم للأصنام . (٣)
وقارن بين إسرائيلهم لمجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاءً
مادين أعناقهم إليه مقلين بأبصارهم عليه وبين إسرائيلهم يوم القيامة
خاضعين خاشعين من الذل (ينظرون من طرف خفي) خَشِعَةً أَبْصَرَهُمْ
تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ

(١) المعارج / ٤٢ .

(٢) الكشاف / ٤ / ١٦٠ .

(٣) التحرير والتنوير ١٨٣ / ٢٩ .

والرهق : من رَهَقَهُ الأمرُ غَشِيَهُ يَقْهَرُ . (١)

كما أن من لطائف التشبيه الإيحاء / التعب والشقة والجهد
لأن
الذى يبذلونه أو بذلوه لا يطائل من وراء السعي إلى الانصب بجانب
ما يوحيه من معنى الذل والمهانة والخضوع يوحى أيضا بأنه سعى
إلى حجارة لا تضر ولا تنفع وأنه سعى لا ثمرة من وراءه وكذلك هم يوم
القيامة ما يؤكده أنهم لن يسموا إلى شيء إلا للعذاب والهلاك +

(١) الراغب مادة (رهق) .

قال تعالى :

الْقَارِعَةُ ۝^١ مَا الْقَارِعَةُ ۝^٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝^٣
يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝^٤ وَتَكُونُ
الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۝^٥

من أسرار المناسبة :

سورة

تتحدث/القارعة عن القارعة وأهوالها والآخرة وشدائدها وما يقع فيها من أحداث عظام وأهوال شداد كخروج الناس من قبورهم وانتشارهم وكثرتهم كالفراش الصبوث المتهافت هنا وهناك وما يحدث للجبال من تطاير ونسف كالصوف المنبث .

أن

ثم تأمل كيف قرن الناس إلى الجبال إشارة وتنبيه إلى/تأثير

القارعة في الجبال هذا التأثير فما عساه يكون حال الناس فيها .

ثم يتحدث عن الجزاء على الأعمال وأنها تقاس بثقلها

وخفتها في الميزان .

وسميت القارعة لأنها تفرع القلوب والاسماع بهولها .

ومناسبتها لما قبلها لأنه لما ذكر سبحانه وقت بعثرة القبور (١)

فكان مناسبا ذكر يوم القيامة . (٢)

(١) في السورة التي قبلها - المعاديات آية ٢٩ .

(٢) انظر البحر المحيط ٥٠٦/٨

من أسرار اللغة :

القرع : "ضرب شي" على شي" (١)

"والقرع الضرب بشدة واعتماد ثم سميت الحادثة العظيمة
من حوادث الدهر القارعة ...

ومن أسماء يوم القيامة القارعة . وأما سر تسميتها ففيه وجوه منها :
أن القارعة هي التي تفرع الناس بالاهوال والإقزاع ، وقيل تفرع أعداء
الله بالعذاب والخزي والنكال لأن الموت من آمن آمنون (وهم من فرغ
يومئذ آمنون) . (٢)

يقول ابن عاشور :

" وأطلقت القارعة على الحدث العظيم وإن لم يكن من الأصوات

كقوله تعالى :

(٣)

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ

وقيل : تقول العرب قرعت القوم قارعة إذا نزل بهم أمر فظيع ولم أقف

عليه فيما رأيت من كلام العرب قبل القرآن . (٤)

(١) الراغب مادة (قرع) .

(٢) الفخر الرازي (بتصرف) ٧٠ / ١٦ .

(٣) الرد / آية ٣١ .

(٤) التحرير والتنوير ٣ / ٥١ .

والفراش " شبههم بالفراش في الكثرة والانتشار والضعف والذلة
والتطايير إلى الداعي من كل جانب كما يتطايير الفراش إلى النار.
قال جرير :

إن الفرزدق ما علمت وقومه مثل الفراش غشين نار المصطلق
وفي أمثالهم : أضعف من فراشه وأذل وأجهل .
وسمى فراشا لتفرشه وانتشاره " . (١)

" وقال الزجاج الفراش هو الحيوان الذي يتهافت في النار وسمى
فراشا لتفرشه وانتشاره " . (٢)

والمبشوث : " الباء والثاء أصل واحد وهو تفريق الشيء وإظهاره يقال
بشوا الخيل في الغارة وبث الصياد كلابه على الصيد والله تعالى خلق
الخلق وبشهم في الأرض لمعاشهم وفي القرآن وَزَرَأْنِي مَبْشُوثَةً (٣)
أي كثيرة متفرقة . وبثت الحديت أي نشرته " . (٤)

والمهن المنفوش : (النفش نشر الصوف ونَفَشُ الغنم انتشارها
والنفش بالفتح الغنم المنتشرة) . (٥)

-
- (١) الكشاف ٠٢٧٩/٤
(٢) الفخر الرازي ٠٧٠/١٦
(٣) الغاشية / ٠١٦
(٤) المقاييس مادة (بث) .
(٥) الراغب مادة (نفش) .

تأمل هذا البدء المهول الذى فيه من التشويق والترغيب إلى

معرفة ما سيكون ، القارعة ، ما القارعة .

ثم تأمل هذا القرع المفزع والهول الرهيب الذى ترى فيه الخلق

على غير نظام فى ضعف وذلة ومجيء وذهاب مستطارون مستخفون فى حيرة
الفراش الذى يتهافت على الهلاك وهم يسرعون إلى الداعي الذى يدعوهم
إلى المحشر . (١)

ثم انظر إلى التناقض البديع بين شدة القرع ومنتهى الضعف والذلة

والهوان الذى آل إليه الناس فى ذلك اليوم وذهابهم إلى غير جهة على

غير نظام ، لأن شدة القرع وعظم الهول يدعو لعدم الانضباط والتهالك
والتهافت .

وهذه الكاف فى (كالفراش المبثوث) توحى بأنهم أذل من

الفراش لأن الفراش لا يعذب وهم يعذبون .

ثم تأمل كيف جاءت جملة :

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ

بيانا للإبهام الذى فى قوله تعالى * ما القارعة *

وقوله : وَمَا أَذْرِكْ مَا الْقَارِعَةُ (٢)

تهويل إثر تهويل .

(١) انظر روح المعاني ١٠ / ٢٨٢ . وانظر التحرير والتنوير ٣٠ / ٥١

(٢) التحرير والتنوير ٣ / ٥١

ثم انظر كيف جاء هذا التعبير البديع وهذا التقابل العجيب بين
هذين الكونين : كون الناس (كالقراش الميثوث) وهو ايجادهم بعد
عدم وبعثهم بعد موت ، وكون (الجبال كالعين المنفوش) في
انتشارها وتفتتها واضمحلالها فهو كون يؤذن بزوال وفناء فهذا عالم
يولد ويظهر وآخر يزول ويرحل ، والكل في حالة زهول وفزع وتطايسر
وخفه وضعف وزله . (١)

ثم تأمل كيف تقاس الاعمال في ذلك اليوم العظيم بثقل الموازين
وكيف يتقابل مشهد الخفة والتطايير بمشهد الثقل والرضى والاطمئنان :
فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ

وأما الكافرون فما أشبه أعمالهم بهم في خفتها وتطاييرها وهويها
في نار جهنم :

وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ
نَارُ حَامِيَةٍ

من أسرار التنوع :

وذلك نخلص إلى أن التشبيه لا^١ حوال الناس عند البعث وان كان

يشارك في معنى عام وهو وصف ضعفهم وذلتهم وهوانهم مع كثرتهم
وانتشارهم وإسراعهم الخطى نحو الداعي في جو رهيب من الهلع والفرع
المحاط بهم إلا أن لكل صورة من صور التشبيه معرضا ومعنى يتلاءم
مع السياق الذي وردت فيه .

١ - التشبيه في سورة القمر :

يصف أهوال يوم القيامة حين يدعو الداعي ، فينبعث الموتى
من قبورهم ويخرجون منتشرين في هذا المشهد الرهيب وهو يركسز
على خروج الناس من جوف الأرض وانتشارهم على ظهرها كالجسراد
المنتشر في الكرة والتدافع وجولان بعضهم في بعض وتموجهم واضطرابهم
ويتلاءم مع السياق السابق الذي وصف عدم انضباطهم في الدنيا وذلك
باعراضهم عن سنن الله في الكون ولشريعته وهديه ونوره فكانوا عرضة للأهواء
تتجاذبهم وتتناوشهم من كل مكان فهم اليوم كذلك لا يأمنون من الفرع
الأكبر بل يضطربون ويتماوجون ويجول بعضهم في بعض من شدة
الهول والفرع .

بينما التمثيل في سورة المعارج : يركز على طريقة إسراعهم

في ذلك اليوم ووكأنهم إلى نصب يوفضون» لأن الجو والسياق حولهم مليء
بالرهبة والخشوع والخضوع حيث تنزل الملائكة بأمره ووحيه .

ثم هو يقابل بين إسرائعهم في الدنيا بمجلس رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - مستهزئين به وأصحابه ، وبين إسرائعهم في الآخرة إجابة
للداعي في رهبة وخضوع واستسلام مطلق يتناسب مع جو العبودية والخضوع
والرهبة لله سبحانه وتعالى .

فكان التمثيل في سورة القمر في يوم القيامة عامة والتمثيل في سورة

المعارج في موقف خاص من مواقفه .

التنوع أن التشبيه

٢ - من أسرار / في سورة المعارج وصف أبصارهم بأنها (خاشعة) على وزن

(فاعلة) لتفيد دوام خشوعها وخضوعها ، ولأن تخاذل النفس وتماسكها

إنما يظهر في أحوال البصر .

بينما وصف البصر في سورة القمر بقوله : (خُشَعًا أَبْصَارُهُمْ)

زيادة في التهويل والتقريع لأنهم يدعون إلى شيء نكرو شديد صعب

تأمل الضمتين على الحرفين الأول والثاني وما فيها من معنى ارتفاع

الشدّة . (١)

(١) انظر التصوير البياني ، د / محمد محمد أبو موسى ص ٢٩٠ .

أن

٣- من أسرار التنوع التشبيه في سورة المعارج يؤكّد بطلان سعيهم وأنه سعي
لا ثمرة من وراءه لأنه أشبه بسعي من سعى لمن لا يملك بهم ضرا ولا نفعا
فهم يسعون " كأنهم إلى نصب يوفضون " .

بينما نجد أن التشبيه في سورة القارعة :

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ
كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ

يتناول بجانب الكرة والانتشار على غير نظام معنى التخاذل
والوهن والضعف الذي يكون عليه حال الناس عند ابتعاشهم من قبورهم فسي
ذلك المشهد الذي يقرع القلوب بهوله .

وبين أنهم تخاذلوا أشد التخاذل بحيث لم يبق فيهم

من قوى

بقية / وتماسك فصاروا كالفرش المبعوث وهذا يتناسب مع شدة القرع وهول
الموقف ، والفرش مثل في الوهن والضعف ومثل في الخفة والحقاقسة
والتهافت والطيش .

التنوع أن

٤- من أسرار / التشبيه الأول في سورة القمر وصف الجراد بالانتشار بينما التشبيه

في سورة القارعة وصف الفرش بالبعث، وبينهما فرق . والفرق بين البعث والانتشار

أن الانتشار فيه فضل تماسك لا يوجد في البعث، ولذلك تقول العرب :

نشر عليه ثوبه ولا تقول بثه .

هـ - من أسرار التنوع الفرق بين الصياغتين فالمشوث مفعول من بث وقع عليه

البث والمنتشر اسم فاعل من انتشر حدث منه الانتشار.

فهم في التشبيه الأول كالجراد الذي ينتشر بنفسه وهو يتناسب مع

* أعجاز نخل منقعر * (وهشيم محظّر) وهكذا .

بينما التشبيه الثاني كالفراش المشوث أى الذى ييبس غيره وهو

يتناسب مع تلك الجبال التي غرق وتنفس ويتحلل ألوانها وأصباغها وتتراعى

ألوانا شتى فتكون مثلاً في الخفة وفي اختلاف الألوان وهكذا تتناسب

مع الفراش المشوث . (١)

(١) انظر التصوير البياني ، د / محمد محمد أبو موسى ص ٣٠ .

لشانه

الخاتمة

قامت هذه الدراسة على إدراك أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم وكان لا بد للوقوف على ذلك من إمعان النظر في آيات التشيل ومدارستها كلمة كلمة وجملة جملة وترسم كل ذلك توسا واعيا في ضوء السياق الذي وردت فيه ومحاولة استخراج ما وراءها من فيوضات وأحوال وأسرار .

والإحاطة بكل أسرار التنوع أمر خارج عن طاقة البشر وإنما وقفنا على ما فتح الله به علينا وما تقاطر منها إلينا .

ففي الفصل الأول : انتهيت فيه بعد التحليل والمداولة والموازنة الى أن تشبيهات الحياة الدنيا وإن كانت تشترك في معنى عام وهو تشبيه حال الدنيا في نضرتها ومهجتها وافتتان الناس بها ثم ما تؤول إليه من الهلاك والفناء إلا أن لكل تشبيه معرضا ومعنى يتلاءم مع السياق الذي ورد فيه واستقى منه .

فالمثل الأول في سورة يونس يهتم ببيان من يبغى في الأرض ويفتر بالحياة الدنيا ويشد تعلقه بها ويقوى إعراضه عن أمر الآخرة والتأهب لها . ويبين عن أنهم قد بلغوا في الفتنة بها غايصة الطفيان حتى ظنوا القدرة عليها والتمكن منها وفيه إبراز لسلطان العلم الذي سخره الله للبشر فحادوا به عن الجادة حين توهبوا أنهم العالمون بالدنيا المتحكمون منها .

فهو مبني على التفصيل والتحليل لتغلغل هذه الحياة الدنيا في قلوب القوم ثم ما آل اليه حالهم حين باغتهم أمر الله ، بينما نجد أن التمثيل الثاني في سورة الكهف مبني على الطن والدمج ، لأنه هنا يركز على جانب سرعة زوال هذه الحياة الدنيا الذي يكاد ينطق بالتعبير عنها هيئة المشبه به بجملة الثلاث القصار وأن هذا يتناسب ويتلاءم مع السياق الذي تحدث فيه سبحانه عن اغترار المشركين بأموالهم وأولادهم وافتخارهم بها على فقراء المسلمين - وظنهم أنها لن تبدا أبدا * وما **مَا أَظُنُّ أَنْ يُبْعِدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً** فناسب هذا التقابل البديع بين طول الأمل في البقاء وانكار البعث مع قصر الحياة الدنيا وسرعة الفناء .

في حين أن التمثيل الثالث في سورة الحديد يهتم ببيان شدة الإعجاب بالحياة الدنيا من حيث هي لهو ولعب وزينة وتفاخر وتكاثر بالأموال والأولاد / حالت بينهم هذه الأمور عن المسارعة لطاعة الله والإنفاق في سبيله لأنهم إنما يستبقون المال لإنفاقه في لذائذها وشهواتها ، هذا بالإضافة إلى فروق ودقائق أخرى ظهرت أثناء التحليل والموازنة .

وفي الفصل الثاني ظهر لي أن تشبيهات الإنفاق في سبيل الله وإن كانت تشترك في معنى عام ألا وهو مضاعفة الأجر والثواب . إلا

أن التشبيه الأول يهتم بالمضاعفة الحسابية التي تتمثل في **جَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ** بينما يبرز التمثيل الآخر للإنفاق في سبيل الله أشرا آخر للإنفاق ، وهو ما يعود به الإنفاق على نفس صاحبه بحيث تعتاد الخير

فلا يصدر عنها إلا فضائل الأعمال ويصبح الإنفاق سجية من سجاياها إن أصابها وابل أثمرت وأمرعت وإن لم يصبها وابل فطل أي فهي مرعسة مثمرة وفيه حث على تكرير الإنفاق لتربية هذه الطلعة .

كما ظهر من أسرار التنوع في هذا الفصل الانتقال من الصورة البسيطة التركيب في المثل الأول إلى الصورة الأكثر تركيباً وخصوصية ويعود ذلك لتكاثف الأحوال وثرأ المعاني حيث النفوس مليئة مفعمة بمعاني العطاء والخير مبتغية وجه الله وفيه تدرج في تربية النفس لأن الأمور المحسوسة هي أول ما تدركه ثم ترتقي إلى ابتغاء مرضاة الله بينما نجد أن تشبيهات الإنفاق رثاء الناس والمصحوبة باليمن والأذى ، ونفقات الكافرين وإن كانت تشترك في معنى عام وهو بيان إحباط العمل وإبطاله وضياعه إلا أنها تتميز بمعان تتناسب مع السياق الذي وردت فيه والعللة التي من أجلها كان إحباط العمل ، فالمرائي الذي مثله **صَفْوَانٌ عَلَيْهِ رُكْبٌ** لم شرأعماله أصلاً لخلو قلبه من الإيمان بالله الذي يرجو به ثواباً أو يخشى عقاباً فعلته وآفته تصرأصل العقيدة وجوهرها .

بينما المان والمؤذي بلغت نفقتهما غاية الوفرة والكرة والخصومة ثم طرأ عليها ما أحبطها وأفسدها وهو أحوج ما يكون اليها .

أي أن صدقته وقعت صحيحة ثم بطلت باليمن والأذى بينما المرائي لم يأت بالعمل مقبولا صحيحا بل أتى به باطلا مردودا .

ومن أسرار التنوع بين هذه الجنة التي أصابها إعصار فيه نار فاحترقت وبين تلك الريح الشديدة البرودة ^{التي} * أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته * وأن الإعصار الذي فيه نار أشبه بحرقة المن والأذى

وتمزيقه لا وأصر المحبة وإشعاله الحق والبغض في النفوس، فناسب أن يكون الجزاء من جنس العمل .

أما الريح الباردة فهي أشبه بالماء منين الأشداء على الكافرين الذين أهلكوا حرث هوء لاء الظالمين الذي بذلوه لمحاربة الله ورسوله فالحرث هنا في أجواء شديدة الحرارة والانتقاد / لأنها لاشعال الفتنة والفرقة بين المسلمين ومحاربة دين الله فناسب أن تكون هذه الريح الشديدة البرودة لإطفاء نار الكفر والبغض وإخماد شوكة المشركين إلى جانب فروق دقيقة ولطائف عجيبة ظهرت أثناء التحليل والموازنة .

وفي الفصل الثالث انتهيت إلى أن تشبيهات الحق والباطل وإن كانت تشترك في معنى عام هو بقاء الحق وزوال الباطل واضمحلاله إلا أن كل تشبيه منه يتميز بتناول جانب من جوانب هذا المعنى لم يتناوله غيره .

فالتشبيه الأول يمثل الحق إبان نزوله من السماء وكيف تلقته تلك الطائفة المؤمنة واستجابت له فتصدى لها أهل الباطل بالتكذيب والانكار وقد جاء التعبير عنه بالأفعال الماضية (أنزل - سالت - احتمل) التي أفادت تحقق وقوعه وأنه تمثيل لصورة قامت وتمت .

بينما التمثيل الثاني جاء التعبير عنه بلفظ المضارع فسي (يوقدون) ليدل على صورة متجددة ومستمرة يلبس الباطل فيها معدن الحق ويُنْغَل فيه ولكن الشدائد والمحن التي تمثلها عطية الإيقاد على معدن الحق تطرد زيد الباطل فلا يلبث أن يزول ليبقى جوهر الحق الصافي المثل له بالماء النافع والمعدن الذي تتخذ منه الحليسة والمتاع .

ثم تأتي النتيجة المترتبة على نزول الحق ومقائه في الأرض^{أند} وهي
تثبيت جذور شجرة التوحيد في القلب المثل لها بالكلمة الطيبة واجتثاث
كلمة الكفر والشرك المثل لها بالكلمة الخبيثة .

كما نلاحظ أن من أسرار التنوع مراعاة التمثيل لأحوال البيئة
المعاشية . . حيث تجد الصورة الأولى المثل بها الحق أقرب إلى
أهل البادية بينما الثانية هي من واقع الحضر وتشارك الألفاظ بجرسها
وقوتها أورخاوتها في التعبير عن ذلك .

وفي الفصل الرابع انتهيت إلى أن تشبيهات أعمال الكافرين وإن
كانت تشترك في معنى عام^{وهي} أنها باطللة لا غية لا منفعة فيها ولا خيسر
يرجى منها مهما عظمت وكثرت إلا أن لكل صورة من صور التشبيه معرضا
ومعنى تتميز بها تتناسب وتتلاءم مع السياق الذي وردت فيه .

فالتشبيه الأول كَرَمًا أَشَدَّ بِدَارِ الْوَيْحِ يدل على المحق

والسحق وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك وفي عناصره من الجزالة
والقوة ما يتناسب مع المعنى الذي سيق له وهو وإن كان يشترك مع قوله
تعالى وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ أَخْرَجَهُمْ مِنَ ظُلُمَاتٍ إِلَى نُورٍ وَكَرَّمَهُمْ
فِي بَيْتِهِ وَنَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْقُدُّوسُ فَخَرَّ سَاجِدًا فَسِي
بيان تعدد أعمال الكافرين وتمزقها بحيث لم يحق لها أثرا إلا أن الثاني
يتميز بدقة عناصره ورقتها لأنها تمثل معنى الضالة والحقارة ثم التناثر
والذهاب بها كل مذهب وهذا المعنى يتلاءم مع السياق الذي ورد فيه .

كما لاحظنا أسرار التنوع وراء تشبيه أعمال الكافرين بالسراب ،
والظلمات لأنها وردت في سياق يتحدث عن حال المؤمنين والحامل لهم
على ذلك الفوز العظيم ثم ما يصيرون إليه من نعيم مقيم فذكر مقابل ذلك

مآل الكافرين من الخيبة والخسران المبين ثم عطف عليه الحامل لهم على
هذا الخسران وهو خلوا أعمالهم من نور الحق وتلبسهم بالظلمات .
ومن أسرار التنوع أيضا أن السراب يمثل أعمالهم الحسنة
والظلمات تمثل أعمالهم الفاسدة كالفتن والكفر والشرك وذنابل النفوس
وغيرها .

ولاحظنا التناسق البديع بين المثلين وسياق الآيات حيث
ترى هذا التقابل الرائع بين من أقام حياته على وهم وسراب وسعى لاهثا
وراءه حتى وجد الله فوفاه حسابه وبين الذين أقاموها على نور من
ربهم فزادهم نورا .

كما نجد التقابل بين هذه الظلمات في قلب الكافر وكيف
تتكاثف وبين ذلك النور في قلب المؤمن وكيف يتضاعف وقد تناصرت فيه
المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت وهكذا . . .

إلى غير ذلك من الفروق والدقائق التي تجلت في ضوء التحليل
والمداولة والموازنة .

وفي الفصل الخامس وقفت على أن تشبيه النافقين بالمستوقد
نارا وبأصحاب الصيب وإن كان يشترك في معنى عام وهو ضلالتهم فيه من
شدة الحيرة والتردد والتخبط لانطماس بصائرهم وتشككهم في دين الله
إلا أن لكل تشبيه سياقه ونسقه الذي يتميز به .

فالصورة الأولى تمثل قوما لهم حاجة ماسة إلى استيقان نار ،
وإنهم بعد الجهد والنصب أضلوا لهم فتبينوا وعرفوا فهم أهل علم

بعد أن وصلوا
ومعرفة شم إنهم/عرفوا أنكروا/ وغلبت عليهم جاهليتهم فذهب الله بنورهم وتركهم
في ظلمات لا يبصرون .

بينما التشيل الثاني يبين عن هذا الخير الذي فاض عليهم ولم
ينتفعوا به ولم يصيبهم منه إلا صواعقه ورعده مرقه أى هذا الهول والفرع
الذى أحاط بهم من كل جانب ونفذ إليهم من كل حاسة.

التشيل الأول يؤكّد الله فيه أن القوم لا يرجعون عن غيهم
وضلالتهم، بينما الثاني لا يزال القوم فيه حيارى مترددين بين مشي وقيام
وتبصر وظلام.

وفي الفصل السادس وقتت فيه إلى أن تشبيهات أحوال الناس عند
البعث وإن كانت تشترك في معنى عام وهو وصف ذلتهم وضعفهم وهوانهم
وتهالكهم وتهافتهم ذلك اليوم إلا أن كل صورة تنفرد بمعان وإيحاءات
تناسب مع السياق الذي وردت فيه .

ففي سورة القمر يصفهم بالجراد المنتشر في تدافعهم وتزاحمهم
واضطرابهم وعدم انضباطهم وذلك يتناسب مع السياق الذي وصفهم فيه تعالى
في الدنيا بأنهم كانوا غير منضبطين لشرعة الله تتجاذبهم الأهواء وتتناوشهم
من كل مكان .

والتشيل الثاني يركز على طريقة إسراعهم في ذلك اليوم وكأنهم
إلى نصب يوفضون لأن السياق حولهم مليء بالرهبة والخشوع تنتزل فيه
الملائكة بأمر الله ووحيه وهو يقابل بين إسراعهم في الدنيا لمجلس رسول الله
صلّى الله عليه وسلم مستهزئين به وأصحابه وبين إسراعهم يوم القيامة
إجابة للداعي في خضوع واستسلام مطلق .

وفي سورة القارعة يركز التشبيه بجانب التعبير عن الكثرة والانتشار على غير نظام معنى التخاذل والوهن والضعف الذي يكون عليه حال الناس عند البعث ويبين عن أنهم تخاذلوا أشد التخاذل وذلك يتناسب مع شدة القرع وهول الموقف .

ومع تلك الجبال التي أضحت كالعهن المنفوش في اختلاف ألوانها وخفتها .

ومن الأصول التي وقفنا عليها وراء أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم (١) تناول المعنى الواحد في كل مرة من جانب من جوانبه التي تتلاءم مع الغرض الذي سيق له والسياق الذي ورد فيه .

(٢) الانتقال في تنوع التشبيهات من الصورة البسيطة التركيب إلى الصورة الأكثر تركيباً وتعقيداً تدرجاً في إقناع النفس وتلاوياً مع تكاشف الأحوال ووفرة المعاني وسخائها .

(٣) التعبير عن المعنى الواحد بصورتين متضادتين أو متقابلتين ، كالمثل المائي والناري والماء والنار عنصران يغلبان على أكثر تشبيهات القرآن ، فالماء هو الحق الذي نزل من السماء فسالت به أودية بقدرها . وهو الصيب الذي أصاب القوم من هدى القرآن وخيره ولكنهم لم ينتفعوا به وهو الوابل الذي أزال التراب عن الصفوان / زكت به الجنة ذات الربرة وهو الماء الذي اختلط بنبات الأرض لتمثيل الحياة الدنيا وهو الغيصة الذي أعجب الكفار نباته .

وهو السراب الذي تراءى للظمان .

وهو البحر اللجن الذي تكاثفت فيه الظلمات .

والنار هي النار التي استوقدها المستوقد ليستضي بها ،
وهي النار التي أحرقت أعمال الكافرين فأصبحت رمادا تشنبيه
الرياح ، وهي النار التي أوقدت على معدن الحق لتذهب زبد الباطل ،
وهي ضمن الجائحة التي جعلت ما على الأرض حصيدا في تمثيل
الحياة الدنيا أوهشيما تذروه الرياح .

وهي النار في الإعصار الذي أحرق الجنة ذات الأنهار
والأشجار والشمار .

ومن الصور المتقابلة أيضا التعبير عن المعنى الواحد بأجواء حارة
جافة كسراب بقيعة ، وأجواء رطبة ندية كبحر لحي .

(٤) كما أن من أسرار التنوع وأصوله مراعاة أحوال البيئة المعاشية
والحضارية كالتعبير بصورة مستقاة من البادية وأخرى من الحضر في تمثيل
الحق والباطل .

(٥) من أسرار التنوع وأصوله مراعاة المستوى الفكري والحضاري والتقدم
العلمي .

فصورة السراب الذي تمثل للظمان صورة عامة تراعي مستويات
الإدراك الأولى لدى الناس .

أما تمثيل البحر اللحي وتكاثف ظلماته تحتاج إلى قدر عظيم من
الرؤية والتأمل والتفكير فضلا عما وراءه من الإعجاز العلمي في القرآن والذي
لم يدرك إلا في العصر الحديث .

٦ - من أسرار التنوع وأصوله أن يبني التمثيل مرة على التحليل والتفصيل وأخرى على الطبي والدمج تلاو ما مع السياق الذي ورد فيه والفرض الذي سيق له .

٧ - من أسرار التنوع وأصوله الانتقال من الحسى الى المعنوى وذلك لأن الأمور المحسوسة أول ما تدركها النفس ثم ترتقي بعد ذلك كالتمثيل للانفاق في سبيل الله في صورة المضاعفة الحسابية لا ثارة محنور الطمع في الربح ثم الانتقال الى ابتغاء مرضاة الله لأن النفس هنا زاخرة مغممة بمعاني الخير زاكية مبتغية وجه الله والنفقة وارفة الظلال دائمة الاثمار .

٨ - من أسرار التنوع وأصوله أن لكل مثل بناؤه ونظمه وعناصره ومعانيه وظلاله التي تتناسب مع السياق الذي ورد فيه فالما المخطط بنبات الأرض يتلاءم مع الريح الطيبة والبحر ، والهشيم الذي تذروه الرياح يتلاءم مع الجنة الخاوية على عروشها . والظلمات التي تتكاثف في بحر لجي تتناسق مع النور الذي يتضاعف في مشكاة فيها مصباح وهكذا .

ومعد فالحمد لله الذي وفني لخدمة كتابه الجليل والكشف عن بعض أسرار بيانه ولا يزال القرآن الكريم مأدبة الله التي لا يشبع منها العلماء ينطوى على لطائف وأسرار لا تتناهى نرجو الله الكريم أن يهدي إليه حملة العلم وطلابه ليفتقوا كمائمه ويستخرجوا ودائعهم .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ،

وقل ربي زدني علما ،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

فَرَسُ الْوُصَاوِي وَالْمَرْبِيعِ

المصادر والمراجع

- الأثر المفرد
للإمام الحافظ محمد بن اسماعيل البخاري رضي الله تعالى عنه ، دار
أساس البلاغة
تأليف الإمام جابر الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري
تحقيق عبد الرحيم محمود
دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان .
- أسرار البلاغة
تأليف الإمام عبد القاهر الجرجاني
دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان .
- أسرار التكرار للكرماني
لناج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرماني
دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا
ط / الثالثة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م . دار الاعتصام .
- الاتقان في علوم القرآن لشيخ الاسلام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ،
ط / الرابعة ١٣٩٨ - ١٩٧٨ م .
- الإعجاز البلاغي
د / محمد محمد أبو موسى
ط / الأولى ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م
الناشر مكتبة وهبه .
- إعجاز القرآن للباقلاني
أبي بكر محمد بن الطيب
تحقيق السيد أحمد صقر ط / الرابعة
دار المعارف .

- اعلام الموقعين عن رب العالمين

تأليف شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف
بابن قيم الجوزية

- حققه وفصله وضبط غرائبه وعلق حواشيه

محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر بيروت لبنان .

- الأمثال في القرآن الكريم

د / محمد جابر الفياض

ط / الأولى ١٩٨٨ م

(ب)

- بديع القرآن

لابن أبي الإصبع المصري

تقديم وتحقيق د / حفني محمد شرف ، ط / الثانية ، دار نهضة مصر
للطباعة والنشر القاهرة .
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب
الفيروز آبادي - توزيع دار الباز للنشر والتوزيع ، مكة المكرمة .
المكتبة العلمية بيروت لبنان . تحقيق : الاستاذ عبد العظيم الطحاوي .
- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية .
د / محمد محمد أبو موسى

مكتبة وهبة ، القاهرة .

(ت)

- تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن

لابن أبي الإصبع المصري

تقديم وتحقيق د / حفني محمد شرف

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامي

القاهرة ١٣٨٣ هـ

- التصوير البياني

دراسة تحليلية لمسائل علم البيان

د / محمد محمد أبو موسى

ط / سنة ١٩٨٠ م - مكتبة وهبه القاهرة

- تفسير أبي السعود

المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم

للإمام أبي السعود محمد بن محمد العماد

- دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان .

- تفسير البحر المحيط

لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي

ط / الثانية ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

- تفسير ابن كثير

أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي

ط / سنة ١٩٨١ م دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

- تفسير التحرير والتنوير

تأليف الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

الدار التونسية للنشر .

- تفسير الفخر الرازي

المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب

للإمام محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر

ط / الأولى ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

- تفسير القرآن الحكيم (المنار)

محمد رشيد رضا ، ط / الثانية .

دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان .

- التفسير القيم

للإمام ابن القيم

جمع محمد اويس الندوى ، تحقيق محمد حامد الفقي

دارالعلوم الحديثة بيروت لبنان

- تلخيص البيان في مجازات القرآن

تأليف الشريف الرضي

تحقيق وتقديم د / علي محمود مقلد

منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان .

(ث)

- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن

للرمانى والخطابى وعبد القاهر الجرجاني

تحقيق محمد خلف الله ود / محمد زغول سلام

ط / الثالثة ، دار المعارف بمصر

(ج)

- الجامع لأحكام القرآن

أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبي

دار أحياء التراث العربى بيروت .

- جامع الأصول في أحاديث الرسول

تأليف الإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك ابن محمد

ابن الأثير الجزرى

تحقيق : عبد القادر الأرناؤوط ، ط / ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م

نشر وتوزيع مكتبة الحلواني و مطبعة الملاح ومكتبة دارالبيان .

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن
تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري
دار الفكر . بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م

- الجامع الصحيح

للامام أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري

دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان .

- الجمان في تشبيهات القرآن لابن نايقا البغدادي
الدكتور: مصطفى الصاوي الجويني ، الناشر منشأة المعارف الاسكندرية .

- حاشية الشهاب المسماة عناية القضاي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي
دار صادر بيروت .

- درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز
الخطيب الاسكافي برواية ابن أبي الفرج الاردستاني ،
منشورات دار الافاق الجديدة بيروت ، ط/الرابعة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م

- دلائل الاعجاز

تأليف الشيخ الإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد

الجرجاني النحوي

قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة .

(ر)

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للذوسي

١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م دار الفكر بيروت .

(ص)

- صحيح البخاري

للامام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة

ابن بردزبه البخاري الجعفي

دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع .

- صفوة التفسير

تأليف محمد علي الصابوني

دار القرآن الكريم بيروت .

- الصورة في التراث البلاغي

مجلة كلية اللغة العربية ، أم القرى السنة الثانية

١٤٠٤-١٤٠٥ هـ

(ظ)

- الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن

تأليف د / عبد العليم عبد الرحمن خضر ، الدار السعودية للنشر والتوزيع .

(ع)

- عمدة القارى شرح صحيح البخارى للشيخ الامام بدر الدين أبي محمد

محمود العيني ، دار احياء التراث العربي بيروت لبنان .

(غ)

- غرائب القرآن وغرائب الفرقان

نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابورى

تحقيق إبراهيم عطوة عوض

مطبعة مصطفى البابي الحلبي

ط / سنة ٩٦٤ م القاهرة .

(ف)

- في ظلال القرآن

سيد قطب - دار الشروق . ط : التاسعة ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م .

(ك)

- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل

تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي

دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان .

(ل)

- لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن)

علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن
طبعة دار الفكر .

(م)

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز

للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي

تحقيق المجلس العلمي بفاس ، ط/ الثانية ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٢ م)
- مختصر صحيح البخاري

تأليف الامام زين الدين أحمد بن عبد اللطيف الزبيدي
تحقيق ابراهيم بركة ، دار النفائس ، ط/ الثانية ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م)
- مختصر صحيح مسلم

للامام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري

تحقيق محمد ناصر الدين الألباني

المكتب الاسلامي بيروت .

- معاني القرآن

تأليف أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء

عالم الكتب بيروت .

- معجم مقاييس اللغة

لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا

تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

- المفردات في غريب القرآن

تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني

تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني

دار المعرفة بيروت لبنان .

من الإعجاز البلاغي للقرآن

د/ صباح عبيد دراز

دار التوفيق للطباعة بالأزهر

- من أسرار التعبير في القرآن - صفاء الكلمة -

د/ عبد الفتاح لاشين ، ط/ دار المريخ

- من بلاغة القرآن

تأليف أحمد أحمد بدوي ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة .

(ن)

- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور

للامام المفسر برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي

ط/ الأولى ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م

مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدكن الهند .

- النظم القرآني في سورة الرعد

تأليف محمد بن سعد الدبيل

عالم الكتب .

- نيل الأوطار - شرح منتقى الأخبار للشوكاني للمحمد بن علي الشوكاني ،

ط/ ١٩٧٣ م ، دار الجيل بيروت ، شرح وتعليق : منير آغا الدمشقي .

فهرست الملوک و فکاحه
سید

فهرس الموضوعات الاجمالي

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١ - ج
التعميد : جهود العلماء السابقين في بيان أسرار التنوع الفصل الأول : التشبيهات التي تمثل الحياة الدنيا	٢٧ - ١
وأسرار تنوعها	٨٧ - ١
الفصل الثاني : التشبيهات التي تمثل الإنفاق وأسرار تنوعه ويتضمن الإنفاق في سبيل الله والإنفاق المشوب بالمن والاذى أو الرياء أو الكفر	٨٦ - ١٦٠
الفصل الثالث : التشبيه الذى يمثل الحق والباطل وأسرار تنوعه	١٦١ - ٢١٩
الفصل الرابع : التشبيهات التي تمثل أعمال الكافرين وأسرار تنوعها	٢٢٠ - ٢٧٧
الفصل الخامس : التشبيه الذى يمثل أوصاف المخالفين من المنافقين وأسرار تنوعه	٢٧٨ - ٣٠٩
الفصل السادس : التشبيهات التي تمثل أحوال الناس عند البعث وأسرار تنوعها	٣١٠ - ٣٣٦
الخاتمة	٣٣٧ - ٣٤٧
المصادر والمراجع	٣٤٨ - ٣٥٧
فهرس الموضوعات الاجمالي	٣٥٨